رواية

آليس ووكر

اللون أرجواني

ترجمة: سيزار كبيبو

مراجعة: زياد عبد الله

آليس ووكر

اللون أرجواني

ترجمة : سيزار كبيبو

مراجعة : زياد عبد الله

اللون أرجواني

رواية

Author: **Alice Walker**	اسم المؤلف: آليس ووكر
Title: **The Color Purple**	عنوان الكتاب: اللون أرجواني
Translation: **Sezar Kbibo**	ترجمة: سيزار كبيبو
Review: **Ziad Abdullah**	مراجعة: زياد عبد الله
Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**	تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
P.C.: **Al-Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2018**	الطبعة الأولى: **2018**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © THE COLOR PURPLE by Alice Walker. Copyright © 1982 by Alice Walker. By arrangement with the author. All rights reserved.

للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means; electronic, mechanical, photocopying, recoding or otherwise, without the prior permission in writing of the publisher.

لايجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو تخزين أي مادة بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدّماً.

إلى الروح:

لولا عونها

لما كان هذا الكتاب

ولا كنتُ كُتبتْ

أرني السبيل لأكون مثلك
أرني كيف السبيل إلى ذلك.
• ستيفي وندر

فيضانات التسونامي والأعاصير:
بعد 25 عاماً على نشر «اللون أرجواني»[1]

آليس ووكر

في شمال الجنوب الأمريكي حيث ولدتُ، وبعد بضع سنوات مما يفترض أنها نهاية لأحداث رواية «اللون أرجواني»، كان لا يزال هناك هامش من المخاطرة عند سؤال الناس حول فكرتهم عن الله. من المسلّم به أن «الله» هو «الله». الجميع يعلم معنى هذا – ما هو شكله (دائماً مذكر، بالطبع)، بماذا يفكر، وما الذي يقدر على فعله؟ – ولكن في الواقع، ولمعرفة الإجابة عن هذه الأسئلة، يلجأ سكان الجنوب وأجزاء عديدة من العالم إلى الإنجيل. وهناك، يتمّ إعلامنا أن الله هو أب يسوع، والذي عادة ما نراه مصوراً على هيئة رجل أبيض. يعتقد أننا ولدنا كثمرة للخطيئة وأننا تجسيد لها؛ ويجب على الرجل أن يكون سلطاناً على الأرض، التي تشتمل على اليابسة والمياه والنساء والحيوانات والأطفال. إنه قادر على إنزال أقصى العقوبات وإلحاق أشد الآلام بهؤلاء الذين يرغب بإيذائهم أو تدميرهم، بينما يقدم كل الدعم أو المغانم الممكنة لهؤلاء الذين يحبهم، مع أنه قد يعاملهم بطريقة سيئة للغاية أحياناً، لكن حسبهم أن الله اصطفاهم، أو هذا ما ترويه الحكاية، لتحظى بالمتابعة والاهتمام.

لم يعد خافياً على أحد الطريقة أو المرحلة الزمنية التي بدأ فيها

1 – صدرت الطبعة الأولى من «اللون أرجواني» عام 1983. (المترجمة)

الأميركيون من أصل إفريقي، على غرار الشخصيات في الرواية، الإيمان بإله صُمم ليرشد ويطوّر رغبات شعوب أخرى، إله يعتقد أن البشرة السوداء لعنة. بعد أسرهم في أفريقيا، بدءاً من القرن السادس عشر، ساروا مشيًا على الأقدام قاطعين سهول السافانا والغابات المطرية، حيث كانت سفن العبيد بانتظارهم لنقلهم إلى العالم الجديد. في «قلاع العبيد» سيئة الذكر التي كانت علامة (ولا تزال) للساحل الإفريقي، أرغموا على الركوع أمام تمثال يسوع، وقام كاهن برش الماء على رؤوسهم الحليقة، وجرّدوا من أسمائهم «القديمة». وتم إعطاؤهم أسماء مسيحية تتوافق مع دينهم الجديد الذي اعتنقوه على عجل (بمساعدة السوط وفي ظل شبح التهديد بالإبادة)، ومن ثم وبعد أن دمغوا بعلامات على وجوههم أو أجسادهم، دفع بهم إلى داخل السفن، وحُشروا كما يقول التشبيه المبتذل مثل السردين في العلبة. لن نعرف أبداً عدد الذين قضوا ضحية الحزن، أو المرض، أو الجوع. أو عدد الأشخاص الذين أقدموا على تلك القفزة اليائسة لتبتلعهم مياه البحر.

العالم الجديد الذي يصوره مؤسسوه لا يمكن بناؤه من دون جهود العبيد، إذ يرغبون بأن تبدو واشنطن العاصمة، بمستنقعاتها وذبابها، مثل باريس دفعة واحدة، وأن تبدو نيويورك أكبر وأفضل من لندن. حتى جورجيا، الولاية التي أنحدر منها، ما كانت لتُبنى لولا هذه الجهود. المهاجرون القادمون من أوروبا مرضوا وخرّوا صرعى بالآلاف، وهم يحاولون اجتثاث الهنود (الفرع الثاني لأسلافنا) وتجفيف المستنقعات، وقطع الغابات، وقهر الملاريا. عاشوا جميعاً قيظاً لاهباً أشبه بالجحيم المذكور في الإنجيل الذي جلبوه معهم ولا يشبه بشيء الفردوس الموعود الذي أغراهم التجار بوجوده وهم يشقون عباب البحر.

جاء أسلافي الأفارقة (تم استقدامهم)، كان الكثير منهم مهرة في زراعة القطن والنيلة والأرز. صناعة القرميد والتبليط، والطهي، والغزل، وتربية الحيوانات. العديد منهم فنانون ومداوون، موسيقيون وراقصون.

أصحاب رؤى وفلاسفة. وعلماء. ومعلمون. وتجار. لم ينجح القيظ بالنيل منهم بسهولة. وكانوا أيضاً أذكياء للغاية. شككوا بكل شيء، لبضعة أجيال على الأقل. وكيف لهم ألّا يفعلوا؟ إذ وجدوا أنفسهم وسط شعب يعتبرهم أشياء يصدرون لها الأوامر ويستخدمونها، غير مبالين بأبدانهم أو مشاعرهم. افتُرض أنهم، مثل النساء والهررة، بلا روح. سبع سنوات كانت تقريباً عدد الأعوام التي أتيح لمعظم هؤلاء الأسلاف عيشها قبل أن يرموا للموت؟ استُهلكوا حتى آخر رمق، ومن ثم ضربوا على رؤوسهم ودفنوا دون جلبة. يمكن العثور على رفاتهم في أرجاء الجنوب؛ والشمال، تم اكتشاف القليل من عظامهم في أماكن غير متوقعة، على سبيل المثال تحت ما عرف لاحقاً في مدينة نيويورك باسم وول ستريت.

عاشوا وسط الأبالسة. فُصلوا عن أولادهم وقبائلهم كي لا يتمكنوا من تبادل أطراف الحديث بذكاء مع أي شخص آخر، لم يعد هناك في الحياة سوى العمل، بلا أجر ولا تقدير. كان على حياتهم احتمال ضربات السوط. وهبت الحياة الولادة لأطفال – تخلو ذاكرتهم من أي شيء سوى العبودية الوحشية – ليموتوا بعدها ويُقذف بهم إلى الخور أو يدفنوا على حافة مستنقع أو طرف حقل. هل كان هناك مما يشير إلى أي نوع من أنواع التحرر؟

لو كان أسلافي مثلي، ومثل الأفارقة الذين أعرفهم اليوم، لكانوا تشبثوا بمنطقهم السليم لزمن أطول. ولكن في مرحلة ما، وبعد العمل لصالح أحدهم على مدار الأسبوع، بدت فرصة الجلوس لمدة نصف ساعة في صباح يوم الأحد تستحق الإيمان بما يتعذر الإيمان به. هل يمكن لشخص أن يموت ومن ثم يبعث حقاً من بين الأموات؟ إن كان قد حُكم عليهم أن يُستخدموا حتى آخر رمق وبعد سبع سنوات سيقتلون، فإن فكرة البعث ربما جديرة بالتفكير. هل كانوا ليعلّموا أولادهم هذه الفكرة الجديدة إن كانت تحمل فرصة التنعم بمسحة من الإنسانية التي

يغدقها عليهم سجانوهم؟ نعم. لماذا تبسّم السيد بينما كان يشهد تدهور الجانب الروحي والبدني لمقاومة العبودية بين العبيد؟

لا بد وأن هذه الفكرة أثلجت صدورهم. لا بد وأن أول الأفارقة الذين أذعنوا، وهُشّموا روحياً، قد فاقت معاناتهم الوصف. لو تذكروا آلهتهم وإلهاتهم لكانوا أدركوا أنه، في الجوهر، الإله الواحد/ الإلهة الواحدة وتشبثهم به/ بها في أفريقيا، وعلى متن سفينة العبيد، وفي المسيسيبي ونيويورك أيضاً، كانت الطبيعة. بيد أن هذه الفكرة، التي تعتبر بمثابة جوهر الوثنية، كانت لعنة للإله الجديد ولمريده الأمين.

يكمن تألق عبودية الروح في كون العبودية سجناً غير مرئي يبدو النزيل فيه يتمتع ببعض الراحة. بالنسبة للأمريكيين من أصول إفريقية حتى ذلك المقدار الطفيف من الراحة كان يتطلب النضال من أجل الحصول عليه. يمكنني تخيل أحد الأسلاف المحنكين ينوه لسيده أو للمشرف عليه بأنه لو كان الله المذكور في الإنجيل قد خلق العبيد كما خلق غيرهم، فإنه بلا شك يريدهم أن يعرفوا كيف يقرؤون بأنفسهم عن هذا. أنا واثقة من أن محادثة كهذه قد جرت بينما السيد جالس منفرج الساقين على صهوة جواده، فيما العبد راكع على ركبتيه أو مطأطئ رأسه بلا شك وهو يحمل قبعته بيده – استغرق هذا قرناً على الأقل. أخيراً، تم السماح لعبد مختار بعناية، ربما كان ابن السيد من عبدة قام باغتصابها، بقراءة نسخة ملخصة من «الإنجيل»، ويتولى السيد طبعاً مهمة الشرح. وبالتأكيد تكررت جملة: «أيها العبيد أطيعوا سادتكم».

في ريف بوتنام في جورجيا حيث أبصرتُ النور، قام سادة المزرعة في زمن جد جدي الأكبر بإعارة المجتمع الأسود قطعة أرض صغيرة لبناء كنيسة؛ على الرغم من إهمالها التام، إلا أنها لا زالت هناك. تم العثور مؤخراً على قبر جدتي الكبرى سالي مونتغومري ووكر في مكان ليس بالبعيد. ولدت عام 1861، واستُعبدت. قضت نحبها عام 1900 ودفنت مع أربعة من أولادها. ما الذي جرى لها؟ سيبقى الجواب طي

الكتمان. وربما بسبب المنزلة التي كانت تتمتع بها في عائلة مونتغومري فقد تم العثور على شاهد قبر لها (معظم العبيد لم يكن لقبورهم شواهد) إضافة إلى أن والدها، الذي ماتت قبله، دُفِن بالقرب منها. ومن المحتمل أنها ارتبطت ووالدها بصلة دم مع مالكيهما. الآنسة ماي مونتغومري - التي عمل لديها والدي، كانت على وشك إغلاق ممتلكاتها الكبيرة لأنه طُلب منها دفع اثني عشر دولاراً شهرياً لقاء خدمته غير المنتهية كعامل في الحقول وحلاب وسائق - قد أدلت بتعليق تناقلته عائلة مونتغومري ووكر عبر الأجيال. سمع أحدهم أن أحد أخوتي كان يمقت أكل جلد الدجاج، فقهقهت قائلة: «هذه من خصال عائلة مونتغومري. حسناً، لا يمكنك أبداً إرغام أحد أفراد عائلة مونتغومري على تناول جلد الدجاج!».

هذه هي الوسائل التي حاولت فيها سلالة العبيد تجميع هوياتها: من ناحية البيض، ومن فتات رماه الأقارب الذين، بسبب النفاق والجبن، فشلوا في احترام الصلة التي تجمعهم بأقربائهم. أعرف أن هذا حقيقة، ومع ذلك يصعب تخيل الأمر.

جئت إلى العالم وفي قلبي محبة الله. أقصد الله كلّي الحضور والسحر. كان حبي لله جلياً مما دفع والدي وأخوتي لإقحامي في مسابقات عديدة للأطفال، كوني بدوت غير قادرة على تقبل شكل الملكوت، على هيئة بشر، ولم أقدّره. وبفضل هذا الحب فإن العنصرية التي تمثلت بالاعتقاد بالمظاهر والذهنيات الفوقية والدونية فشلت في أن تؤثر بي. عجزت عن فهمها. بدت عمياء. قبلتُ الناس الموجودين في مجتمعي بفرح، بصرف النظر عن مظهرهم الخارجي وخصالهم، فقد تذوقت عجائبهم. واستجابوا للسعادة التي غمرتهم من خلال مساعدتي على الفوز بكل المسابقات التي خضتها قاطبة، ولهذا فقد جمعنا التبرعات لبناء مقاعد للكنيسة أو سقف لمدرستنا. وفي تلك الفترة، تنحى «الله» كلّي الحضور والسحر - بالنسبة لمعظم الناس - لصالح

«صورة الله» (كما يسميها كارل يونغ) الذي يعبدونه في الكنيسة كل يوم أحد. تلك كانت الصورة الأولى المتخيلة لله، عقب أسرهم، وضربهم، وتجويعهم، وتكبيلهم بالأصفاد، ودمغهم بالعلامات، بعد اليوم الذي غادروا فيه بلدهم في أفريقيا. صورة الله كانت في الواقع لإله كما تخيله شخص آخر، وليس انعكاساً للناس الذين تمّ إرغامهم على عبادته. من الممكن زيارة كنائس في الجنوب، حتى هذه اللحظة، والعثور على رمز التفاني على هيئة يسوع المسيح الشاحب للغاية، عيون زرقاء معلقة نحو الأعلى حيث أبيه (الذي من المفترض أنه أكبر وأكثر بياضاً) المعبود في السماوات. كان ذلك التعبّد ذاته الذي غرسه سيد العبيد بين عبيده. ولدت في زمن سمح لي برؤية بقايا هذا السلوك المحير القاتل للروح، والانضمام إلى حركة السود التي نشطت في الستينيات بهدف اجتثاث هذا السلوك.

وعندما بدأت بالتفكير، في أواخر السبعينيات، بكتابة الرواية التي أصبحت «اللون أرجواني»، شعرت بحاجة قصوى لكتابتها وأنا محاطة بالطبيعة. كنت أعيش في مدينة نيويورك. وبعد الكثير من التغيرات التي طرأت علي - طلاقي، وبيع منزلي، وترك عملي كمحررة في مجلة «مس - Ms.» - انطلقت إلى سان فرانسيسكو. ومن هناك، سافرت شمالاً إلى أن وصلت إلى مستعمرة صغيرة اسمها بونفايل، حيث استأجرت كوخاً مكوناً من غرفة واحدة مقابل مرج أخضر فيما فناؤه عبارة عن بستان من التفاح. وشجرة زيزفون عملاقة تمنّ بظل وافر. وبحثاً عن الإرشاد، أمضيت أياماً قرب النهر ووسط الخشب الأحمر. وأمضيت الليالي وأنا أحدق في النجوم. كانت هذه تجربة الفردوس الموجود في الطبيعة التي كنت أفتقدها بشدة خلال فترة إقامتي في نيويورك، مستلهمة من هو كلّي الوجود والسحر وتوق روحي وإبداعي إليه.

بعد مرور خمسة وعشرين عاماً، لا يزال يذهلني أن «اللون أرجواني» تطرح مراراً وتكراراً على بساط البحث على أنها كتاب يدور حول الله.

و«الله» مقابل «صورة الله».. في نهاية المطاف، كانت أولى كلمتين لبطلتها سيلي هي «عزيزي الله». كل شيء حدث خلال حياتها، على مدار العقود، يرتبط بنضج فهمها لهذه القوة. أتذكر محاولة شرح الحاجة إلى محنتها وابتلائها بمروحة الشك. أقول: «ننضج ضمن فهمنا لما يعنيه الإله/ الإلهة، ومن خلال عمق معاناتنا، وقدرتنا على صنع شيء ما منها». وأضيف «وبقدر ما يمكنني البوح به». لحسن الحظ أنهينا للتو النقاش حول كارثتين طبيعيتين (تسونامي وإعصار مدمرين) اللذين أرخيا بظلالهما على جنوب شرق آسيا وساحل الخليج في الولايات المتحدة: قلت: أفكر في «الأب» على أنه التسونامي الذي حل بسيلي، و«السيد» على أنه الإعصار الذي ضربها.

في الواقع، يوجد «أب» و«سيد» في حياة أي إنسان. قد يرتديا قناع الحرب، أو المجاعة، أو الإعاقة البدنية. قناع الطبقية والعنصرية والفئوية والجنس والمرض العقلي أو غير العقلي. تتجسد معانيها بالنسبة إلينا، ببساطة في أنها عرض، أو تحدٍّ أرسله «الله» أقصد الكلي الحضور والسحر، مما يدفعنا للنضج. رغم أننا قد نصاب بالحيرة، وحتى بالأذى، كما حدث لسيلي، بسبب بنيته التاريخية والاجتماعية والنفسية، ولكن إن صبرنا فقد نصل، على غرار سيلي، إلى الدهشة ونسكنها: ومن خلال القليل من اللطف الغامض نحظى بالمفاتيح الصحيحة التي نحتاجها لفتح الجزء الأعمق والأكثر ظلمة في حصننا العاطفي والروحي، واختبار تحررنا وسلامنا اللذين لطالما تقنا إليهما.

***

بعد مرور ثلاث سنوات على نشر «اللون أرجواني» التي حازت جائزة بوليتزر وجائزة الكتاب الوطني، تحوّلت الرواية إلى فيلم سينمائي من إخراج ستيفن سبيلبرغ وحصد الفيلم شهرة دولية واسعة. وبعد مرور خمس سنوات على نشرها بيع ما يزيد عن ستة ملايين نسخة منها حول العالم. بعدها بعشر سنوات، تضاعف هذا الرقم، وأصبحت من بين أكثر

خمسة كتب أعيدت قراءتها في أميركا. في العام 2005 أمست «اللون أرجواني» مسرحية موسيقية ناجحة على نحو استثنائي على مسرح برودواي، وكان المسرح يحتشد بالجمهور كل ليلة على مدار ما يزيد عن سنة. ولا يزال عرضها يحظى بحضور جماهيري غفير. حولت المسرحية إلى ما اصطلح على تسميته «غريت وايت واي» (الطريق البيضاء العظيمة) وهو مكان يجتمع فيه الناس من مختلف الألوان والمشارب والهويات لإقامة العروض واختبارها، والاحتفاء بـ«الله» وتبجيله بوصفه معادلاً للحياة والحب والإبداع والفرح.

آليس ووكر

30 كانون أول 2006

كاسا ماردي

كوستا كاريس، المكسيك

احرصي على ألا تخبري أحداً سوى الله، فقد يقضي ذلك على أمك.

عزيزي الله،

أنا في الرابعة عشرة من عمري، أنا فتاة صالحة[2] لطالما كنت فتاة صالحة، فهلّا أرسلت إليّ إشارة تفسر ما ألمّ بي!

في الربيع الفائت، بعد قدوم ليشوس، سمعتهما يتشاجران. كان يجرها من ذراعها، وهي تقول: ما زال الوقت مبكراً جداً يا ألفونسو، لست على ما يرام. تركها وشأنها أخيراً. وبعد مرور أسبوع، عاد من جديد ليجرها. قالت له: لا أستطيع الآن، ألا ترى أنني نصف ميتة، بعد إنجاب كل هؤلاء الأطفال.

ذهبتْ لزيارة طبيب شقيقتها في مدينة ماكون. وأوكلت إليّ مهمة الاعتناء بأخوتي. لم يتلّفظ بكلمة لطيفة واحدة معي. كل ما قاله هو إنني سأقوم بما لم تقم به أمي. عمد أولاً إلى وضع شيئه على وركي ثم صار يدوّره، جذب نهديّ بقوة وأولج شيئه في فرجي، وحين آلمني، صرخت، فمضى يخنقني، قائلاً: من الأفضل أن تخرسي وتعتادي على ذلك.

لكنني لن أعتاد عليه أبداً. وها أنا الآن أشعر بالقرف متى حان دوري في الطهي. أمي ترمقني متأففة. سعيدة لأنه يحسنُ معاملتها، إلا أنها مريضة جداً ولن تصمد طويلاً.

---

2 - كما وردت في الأصل. (المترجمة)

عزيزي الله،

أمي ميتة. ماتت وهي تصرخ وتشتم، وبختني. لعنتني. أنا ممتلئة. حركتي متلكئة. أعود من البئر فيمسي الماء فاتراً. أحضر الصينية فيبرد الطعام. أجهّز الأطفال للمدرسة فيأتي موعد العشاء. لم ينبس ببنت شفة. جلس قرب السرير ممسكاً بيدها وهو يبكي، يرجوها أن تبقى وألا ترحل.

سألتني أمي عن الطفلة الأولى: ابنة من هي؟ قلت إنها ابنة الله. ما كنت عرفت رجلاً آخر أو ما الذي يتعين عليّ قوله. ألمت بي الدهشة حين بدأ الألم يعتصرني وتحركت أحشائي لألفظ بعدئذٍ من فرجي تلك الطفلة الصغيرة وهي تمص إصبعها.

لم يزرنا أحد.

استفحل مرضها أكثر فأكثر.

أخيراً سألتني: أين هي؟

قلت: أخذها الله.

أخذها. أخذها أثناء نومي. قتلها هناك في الغابة. وكان يود قتل هذا أيضاً لو استطاع.

عزيزي الله،

ما عاد يطيقني. قال إنني شريرة ولا أصلح لشيء. أخذ طفلي الثاني، كان صبياً هذه المرة، لا أعتقد أنه قتله. أحسب أنه باعه لرجل وزوجته في مزرعة مونتيسيلو. صدري طافح بالحليب ويفيض عليّ.

يقول لي: تعوزك الحشمة. ارتدي شيئاً ما.

وما الذي يمكنني ارتداؤه؟ لا شيء عندي.

ما تخليت عن أملي بأن يحظى بزوجة. رأيته ينظر إلى أختي الصغيرة. خافتْ، إلا أنني أخبرتُها بأنني سأتولى الأمر. ليكن الله بعوني.

عزيزي الله،

عاد إلى البيت وبصحبته فتاة من مدينة غراي. كانت بعمري إلا أنهما تزوجا. كان يمتطيها طيلة الوقت. تمشي مسرنمة غير مدركة ما أصابها. أغلب الظن أنها تحبه. لكن أولاده كُثر وطلباتهم لا تنتهي.

حظيت أختي الصغيرة بحبيب فيه شبه كبير من أبي. زوجته متوفاة، قتلها عشيقها بعد عودتها من الكنيسة. لديه ثلاثة أطفال فقط. رأى نيتي في الكنيسة وبات السيد ـــــ يأتي مساء كل أحد إلى هنا. نصحتُ نيتي أن تهتم بدراستها، فهذا أفضل من الاعتناء بأطفال ليسوا من رحمها. خذي العبرة مما حلّ بأمّنا.

عزيزي الله،

ضربني اليوم لأنني حسب زعمه غمزت أحد الشبان في الكنيسة. ربما دخل شيء ما في عيني لكنني لم أغمز. حتى إنني لا أنظر إلى الرجال. إنها الحقيقة. أنظر إلى النساء لأنني لا أخافهن. قد يساوركَ الظن بأنني غاضبة من أمي لأنها لعنتني. لكنني لست كذلك. أشفق على أمي. وأحاول إقناع نفسي بأن قصته قتلتها.

أحياناً يحدّق طويلاً بنيتي، لكنني أقف في وجهه دائماً. والآن أسألها أن تتزوج السيد ـــــ، لا أفصح عن السبب.

أقول لها تزوجيه يا نيتي، حاولي التنعم بسنة حلوة في حياتك. أعرف، ستحملين بعدئذٍ.

أما أنا، فلن يكبر بطني مجدداً أبداً. تقول فتاة في الكنيسة إن بطني ستكبر إن أصبحت أنزف شهرياً، وأنا ما عدت أنزف.

عزيزي الله،

ها قد جاء السيد ـــــ أخيراً طالباً الزواج من نيتي. لكنه لن يدعها ترحل. قال إنها لا تزال صغيرة جداً، وعديمة الخبرة.

قال إن السيد ـــــ لديه الكثير من الأولاد، ثم ماذا عن فضيحة مقتل زوجته على يد أحدهم؟ وماذا عن كل الشائعات التي سمعها حول شوغ إفري؟ ماذا عن هذا الأمر؟

سألت والدتنا الجديدة عن شوغ إفري. ما هذا الشيء؟ سألتها. لم تكن تعرف شيئاً عنها، لكنها وعدتني بأن تتحرّى عن الأمر.

لم تكتفِ بالسؤال، بل حصلت على صورة أيضاً. كانت تلك أول صورة أراها في حياتي لشخص حقيقي. قالت كان السيد ـــــ يُخرج شيئاً ما من محفظته ليريه لأبي وسقطت الصورة وانزلقت تحت الطاولة. كانت شوغ إفري امرأة. أجمل امرأة رأيتها على الإطلاق، كانت أجمل من أمي. أجمل مني بعشرات آلاف المرات. ترتدي الفرو وتضع أحمر الخدود على وجنتيها. شعرها ملموم على هيئة ذيل. تضع قدمها في سيارة أحدهم متبسمة، إلا أن نظرتها لا تخلو من رزانة، وثمّة مسحة حزن في عينيها.

سألتها أن تعطيني الصورة، ومكثتُ الليل بطوله أحدق فيها، وبتُّ عندما أحلم، أحلم بشوغ إفري، ترتدي فستاناً فاتناً، تتمايل وتضحك.

عزيزي الله،

طلبتُ منه أن يأخذني عوضاً عن نيتي حين كانت أمنا الجديدة مريضة، لكنه نهرني وقال لي: ما هذا الذي تتفوهين به.

قلت له: أستطيع أن أتجمّل من أجله. دخلت إلى غرفتي وخرجت مصففة شعري كذيل الحصان، ووضعت الريش وارتديت حذاء أمنا الجديدة بكعبه العالي. ضربني لأنني أرتدي ملابس فاحشة، لكنه فعلها معي على أي حال.

جاء السيد ـــــ في تلك الليلة، كنت في السرير أبكي، أخيراً أدركتْ نيتي بوضوح ما الذي يجري. وكانت أمنا الجديدة تبكي أيضاً في غرفتها. أول من علم بالأمر كانت نيتي، ومن ثم أمنا الجديدة. أصيبتْ بالهلع، خرجتْ من البيت وتقيأت، لكن بعيداً عن الرجلين.

قال السيد ـــــ: حسناً يا سيدي، أتمنى أن تكون قد غيّرت رأيك.

أجاب: كلا، لا يمكنني قول ذلك.

قال السيد ـــــ: حسناً، كما تعرف، يحتاج صغاري المساكين إلى أم.

أجاب: حسناً، لنكن واضحين، لا يمكنني أن أعطيك نيتي. غضّة العود هي. لا تعرف إلا ما تخبرها عنه. علاوة على أنني أريدها أن تكمل دراستها. أن تصبح معلمة. يمكنني أن أهبك سيلي. فهي الأكبر على أي حال. وينبغي أن تتزوج أولاً. غير أنها لا تستطيع الإنجاب. وأحسب أنك تعرف هذا. لقد أجهضت مرتين. لكنك لستَ بحاجة إلى امرأة عذراء. ها قد تزوجتُ من عذراء وها هي مريضة على الدوام. بصق على السياج. الأطفال يثيرون أعصابها، كما أنها ليست بطبّاخة جيدة، وقد نالت منها البدانة.

لم ينبس السيد ـــــ بكلمة، توقفتُ عن البكاء فقد كنتُ مذهولة للغاية.

وأردف: إنها قبيحة، لكنها معتادة على العمل الشاق، ولها أن تتولى أمور التنظيف. الرب تولاها بأن صيّرها متاحة لأن تفعل بها ما يحلو لك، من دون تكبد عناء إطعام أو كسوة أطفال جدد.

حافظ السيد ـــــ على صمته. أخرجتُ صورة شوغ إفري. وتمعنتُ في عينيها، فقالتا: نعم، هكذا تمضي الأمور أحياناً.

واسترسل أكثر: والحق يقال، أود التخلص منها. لقد تقدمتْ في العمر ولم يعد لائقاً أن تعيش في هذا البيت. كما أن لها أثراً سيئاً على بناتي الأخريات. ستأخذها وملابسها معها، وبوسعها أن تأخذ تلك البقرة التي تربيها في الحظيرة الخلفية. ولكنك مهما فعلت لن تأخذ نيتي. ليس اليوم. ولا في أي يوم آخر..

أخيراً تكلم السيد ـــــ. تنحنح: في الحقيقة لم أر تلك الفتاة من قبل.

حسناً، يمكنك رؤيتها في المرة المقبلة. إنها قبيحة. لا تحسب قط أنها بجمال نيتي. لكنها ستكون زوجة صالحة أكثر من نيتي. كما أنها ليست ذكية، وسأكون منصفاً، ينبغي عليك مراقبتها وإلا ستضيع كل ممتلكاتك. لكنها تعمل كالرجال.

سأل السيد ـــــ: كم عمرها؟

أجابه: في العشرين تقريباً. شيء آخر؟ إنها تكذب.

عزيزي الله،

استغرق اتخاذه قرار زواجي فصل الربيع بأكمله، من شهر آذار ولغاية حزيران. انصبّ جلّ تفكيري على نيتي. كيف ستزورني إن تزوجتُ منه وهو يحبها وفكرت بطريقة تتيح لنا الهرب. بدأنا ننكب سوية على كتب نيتي المدرسية، إذ أدركنا وجوب أن نكون أذكياء لننجو. أعرف أنني لست بجمال نيتي أو ذكائها، لكنها قالت إنني لست ببلهاء.

تقول نيتي: لتتذكري اسم مكتشف أميركا عليكِ التفكير بالخيار (كيوكمبرس)[3].

هكذا كان وقْع اسم كولومبوس. لقد درستُ في الصف الأول كل شيء عنه، وكان أول ما نسيته. قالت إن كولومبوس جاء إلى هنا على متن قوارب تسمّى «نيتر»، و«البيتر»، و«سانتماريتر». كان الهنود في غاية اللطف معه وقد أجبر مجموعة منهم على العودة معه إلى بلاده ليمثلوا بين يدي الملكة.

لكن لم يكن بوسعي التركيز فموضوع الزواج من السيد ـــــ يؤرقني.

في المرة الأولى التي انتفختْ فيها بطني أخرجني أبي من المدرسة. لم يكترث لتعلقي بها. وقفت نيتي عند البوابة متشبثة بيدي. كنت قد هيأت نفسي لليوم الأول من المدرسة. قال أبي إنني خرقاء جداً ولا أصلح للذهاب إلى المدرسة. نيتي هي الأذكى.

قالت نيتي وعيناها مغرورقتان: إن سيلي ذكية أيضاً يا بابا. حتى

---

3 - تعتمد سيلي لحفظ اسم كولومبوس على التقارب اللفظي بين كلمتي خيار وكولومبوس في الإنجليزية: cucumbers و Columbus. (المترجمة).

الآنسة بيزلي قالت ذلك. نيتي مفتونة بالآنسة بيزلي. وتعتقد بأن لا نظير لها في العالم.

قال أبي: ومن يصغي إلى ما تقوله آدي بيزلي؟ فالكلمات تتدفق من فمها كالسيل، وما من رجل رغب ذلك، ولهذا كان عليها أن تعلّم في المدرسة. لم يرفع عينيه عن البندقية التي كان ينظفها. وبعد فترة قصيرة، جاء مجموعة من الرجال البيض إلى الفناء، وكان معهم بنادق أيضاً.

نهض وتبعهم. ولبقية الأسبوع كنتُ أتقيأ بينما أنظف ما غنمه من حيوانات.

لكن نيتي لا تستسلم أبداً. الشيء التالي الذي أتذكر حدوثه هو مجيء الآنسة بيزلي إلى منزلنا محاولة إقناع أبي. قالت إنها ما عرفت أحداً طيلة فترة تعليمها يتوق للدراسة مثلي ومثل نيتي. ولكن عندما نادى عليّ أبي ورأت ضيق فستاني على جسدي، صمتتْ وانصرفتْ.

لا تزال نيتي مثلي تماماً. عاجزة عن الفهم. لاحظ الجميع أنني طيلة الوقت مريضة وبدينة.

يتملكني أحياناً شعور بالضيق لأن نيتي تعلمت أكثر مني. ولكن يبدو أنه ما من شيء قالته لي دخل عقلي وبقي عالقاً فيه. حاولتْ إطلاعي على ما مفاده أن الأرض ليست منبسطة. كنت أكتفي بالموافقة كأنني اقتنعت بذلك. ولم أقل لها يوماً كم تبدو الأرض منبسطة بالنسبة لي.

جاء السيد ـــــ أخيراً في أحد الأيام وبدا منهاراً تماماً، فالسيدة التي كانت تساعده تركت العمل. واستنكفت والدته عن مساعدته.

قال لأبي: دعني أراها ثانية.

خرج اسمي من فم أبي كما لو أنني لا شيء: سيلي، يود السيد ـــــ إلقاء نظرة ثانية عليكِ.

وقفت عند الباب. كانت أشعة الشمس تحرق عيني. بينما كان على صهوة جواده. رمقني بنظرة فاحصة من الأعلى إلى الأسفل.

هز والدي الجريدة، وقال لي: تحركي، لن يعضك.

اقتربت من الدَّرج، ولكن ليس لمسافة قريبة فقد كنت خائفة من حصانه.

استديري، قال والدي.

استدرت، وخرج أحد أخوتي الصغار. ربما ليشوس، كان سميناً وشقياً، وثمة دائماً ما يلوكه في فمه.

قال: لماذا تفعلين ذلك؟

قال أبي: أختك تفكر بالزواج.

وكأن الأمر لا يعنيه بتاتاً. شد ذيل فستاني وسأل إن كان بوسعه أخذ بعض التوت الأسود من الصندوق.

قلت له: أجل.

قال والدي: إنها تحسن التعامل مع الأطفال. وهزّ جريدته أكثر. لم أسمعها قط تتفوه بكلمة فظة مع أي منهم. المشكلة الوحيدة أنها تعطيهم كل ما يطلبونه.

قال السيد ـــــ: هل ستجلب البقرة معها؟

قال: أصبحت بقرتها الآن.

عزيزي الله،

أمضيت طيلة يوم زفافي أهرب راكضة من الابن الأكبر. كان عمره اثني عشر عاماً. ماتت أمه بين ذراعيه ولا يرغب بسماع شيء عن أم جديدة. حمل حجراً وفجّ رأسي. سال الدم ونزل إلى ما بين نهدي. قال له والده: لا *تفعل* ذلك! وكان هذا كل ما قاله. كان لديه أربعة أولاد، وليس ثلاثة: صبيان وبنتان. لم يكن شعر البنتين قد سُرِّح منذ وفاة أمهما. قلت له:سأحلق شعرهن، لينمو من جديد. قال إن قص شعر المرأة نذير شؤم. وبعد أن ضمّدت رأسي كيفما اتفق حضّرت العشاء – لديهم نبع بدلاً عن البئر، وفرن خشبي أشبه بشاحنة – وبدأتُ بعدها بفك عقد الشعر المتشابك. كانت البنتان بعمر السادسة والثامنة، وشرعتا بالبكاء. وصرختا يا مجرمة يا مجرمة. فرغتُ منهما في العاشرة. واصلت البنتان البكاء حتى غالبهما النعاس. إلا أنني ما بكيت. تمددتُ ورحتُ أفكّر وهو يعتليني، بنيتي، متسائلة ما إذا كانت في مأمن. ثم صرت أفكّر بشوغ إفري. أعرف أنه يفعل معها ما يفعله معي ويروقها ذلك. فطوّقتُه بذراعي.

عزيزي الله،

كنت في البلدة جالسة في العربة بينما كان السيد ـــــ في حانوت الأقمشة. رأيت طفلتي. عرفت أنها هي. فقد كانت تشبهني وتشبه أبي تماماً. بل بدت تشبهنا أكثر مما نشبه أنفسنا. كانت تمشي خلف إحدى السيدات وترتدي الثياب ذاتها. مشتا بمحاذاة العربة فبادرتُ بالحديث. كانت السيدة تتحدث بلطف. نظرت طفلتي إلى الأعلى وقطبت حاجبيها. شيء ما أخافها. عيناها تطابقان عينيّ اليوم، كأنهما تشاهدان كل ما أشاهده، وتتأملانه.

أعتقد أنها ابنتي. قلبي يحدثني أنها هي. لست متيقنة تماماً. إن كانت هي، سيكون اسمها أوليفيا. فقد طرزت باستخدام غرزة الأقحوان اسم أوليفيا على الجزء الداخلي من جميع ملابسها، طرزت الكثير من النجوم والأزهار الصغيرة أيضاً. وعندما أخذها أخذ ملابسها معها، كان عمرها قرابة الشهرين. وهي ربما الآن في السادسة من عمرها.

ترجلتُ من العربة وتبعت أوليفيا وأمها الجديدة إلى الحانوت. راقبت يدها مستريحة على الطاولة، وبدت غير مكترثة بشيء. كانت أمها تشتري بعض الأقمشة. وطلبتْ من أوليفيا ألا تلمس شيئاً. فتثاءبت.

قلتُ: إنه جميل بالفعل. وساعدتُ والدتها في وضع قطعة من القماش أمامها.

ابتسمتْ. سأصنع من هذا القماش فساتين جديدة لي ولابنتي. سيتفاخر والدها بها.

من هو والدها؟ أفلت السؤال مني. وأخيراً يبدو أن أحدهم يعرف.

قالت: السيد ـــــ. لكن هذا ليس اسم والدي.

قلت: السيد ـــــ؟ ومن يكون؟

نظرت إليّ كما لو أنني سألت عن موضوع ليس من شأني.

قالت: السيد ـــــ *الكاهن*. وأشاحت بوجهها نحو البائع الذي قال: أيتها الفتاة، أتودين ذلك القماش أم لا؟ هناك زبائن غيرك ينتظرون.

قالت: نعم يا سيدي. أريد خمس ياردات لو سمحت يا سيدي.

سحب القماش بقوة وفتح اللفة. لم يقس. وعندما تراءى له أن طول القماش أصبح خمس ياردات قام بقصه. ثمنه دولار وثلاثون سنتاً. أتريدين خيوطاً؟

قالت: كلا يا سيدي.

قال: لن تستطيعي حياكته من دون الخيوط. أخذ مكبّ خيوط وقرّبه من القماش. يبدو هذا لوناً قريباً، ما رأيك؟

قالت: أجل.

بدأ يصفُر. أخذ دولارين، وأعاد إليها ربع دولار. نظر إليّ: أتريدين شيئاً يا فتاة؟ قلت: كلا يا سيدي.

تعقبتهما طول الطريق.

ما من شيء بمقدوري تقديمه وأشعر بالتعاسة.

جالتْ ببصرها الشارع من أوله إلى آخره. فلم تجده هناك. ليس هنا. ليس هنا. قالت كأنها على وشك البكاء. سألتها: من تقصدين؟

قالت: السيد ـــــ الموقّر. لقد أخذ العربة.

قلت: عربة زوجي هنا.

شعرتْ بالحرج. أشكر لطفك؟ جلسنا في العربة نراقب القادمين إلى البلدة. لم أر أناساً بهذا العدد حتى في الكنيسة. بعضهم متأنق، والبعض الآخر ليس كذلك. ثياب السيدات معفّرة بالتراب.

سألتني من يكون زوجي، فأنا الآن أعرف كل شيء عنها. ضحكتْ

قليلاً. قلت: السيد ـــــ. قالت: حقاً؟ كأنها تعرف كل شيء عنه. لكنها لم تكن تعرف أنه متزوج. قالت: إنه رجل وسيم. ليس الأجمل في هذه الأصقاع، ما بين البيض أو السود.

قلت: لا بأس به. قلت ذلك من دون تفكير. أغلب الرجال يبدون متشابهين في نظري.

سألتُها: متى رزقت بهذه الطفلة؟

آه، ستبلغ السابعة في عيد ميلادها المقبل.

سألت: ومتى عيد ميلادها؟

فكرت قليلاً ثم قالت: في كانون الأول.

أعتقد أنه في تشرين الثاني.

قلت: هذا سهل جداً، ما اسمها؟

قالت: ندعوها بولين.

تعالت دقات قلبي.

ومن ثم قطبتْ حاجبيها. *أنا* أدعوها أوليفيا.

سألتها: لماذا تسمينها أوليفيا إن لم يكن هذا اسمها؟

حسناً، انظري إليها، قالت بنبرة طفولية، ونظرتْ مجدداً إلى الصغيرة، ألا تبدو وكأنها أوليفيا بالنسبة إليك؟ انظري إلى عينيها، بالله عليك. إنهما لامرأة هرمة. لذلك أسميها الطفلة الهرمة «*أولي* ليفيا»[4]. كتمتْ ضحكتها. وقالت وهي تمسد شعر الطفلة: حسناً يا أوليفيا، لقد جاء السيد ـــــ الموقّر. أرى عربة ورجلاً ضخماً متشحاً بالسواد وبيده سوط. نشكركِ على حُسن ضيافتك. ضحكتْ مجدداً، انظري إلى الخيول تهش

4 - تقصد تجزئة اسمها إلى مقطعين: الأول «أولي» وهي تحوير لكلمة old التي تعني بالإنجليزية متقدم في العمر، والثاني «ليفيا» وهي تحوير لكلمة live والتي تعني يعيش.(المترجمة).

الذباب عن أردافها. قالت إنه حُسن ضيافة *الخيول*[5]. أدركت مغزى طرفتها وضحكتُ إلى أن شارف وجهي على التمزق.

خرج السيد ـــــ من الحانوت. صعد إلى العربة. جلس. وقال ببرود: ما الذي يضحكك مثل بلهاء؟

5 – تلاعب على كلمة hospitality «ضيافة» التي تصبح horsepitality.(المترجمة).

عزيزي الله،

نيتي هنا معنا. هربت من البيت. تقول إنها لا تحب ترك زوجة أبي، لكنها اضطرت، لربما تستطيع تقديم المساعدة لأخوتنا الصغار. تقول إن الصِبية بخير. يمكنهم العيش على طريقته، لحين يشتد عودهم. وبعدها سيتصدون له.

قد يقتلونه، قلت لها.

سألتني: كيف حالك مع السيد ـــــ، لنيتي عينان تبصران. ما زال على إعجابه بها. خرج في العشية وجلس على الشرفة مرتدياً ثياب يوم الأحد. كانت تجلس هناك معي تقشر البازلاء أو تساعد الأطفال في التهجئة. وتساعدني بالتهجئة وبكل شيء تعتقد أنني أحتاج معرفته. ومهما حدث، كانت نيتي تحاول بإصرار إطلاعي على ما يجري في العالم. إنها معلمة جيدة أيضاً. يقتلني التفكير بأنها قد تتزوج رجلاً مثل السيد ـــــ أو ينتهي بها المطاف في مطبخ سيدة بيضاء. كانت تقرأ طيلة اليوم، وتدرس، وتتمرن على تحسين خطها، وتحاول تحفيزنا على التفكير. كنت أشعر على مر الأيام بالإعياء الشديد والعجز عن التفكير. لكن الصبر كان من أبرز شيمها.

كان جميع أطفال السيد ـــــ أذكياء، لكنهم لؤماء. يقولون سيلي أريد هذا، سيلي أود ذاك. أمنا كانت تعطينا هذا. لم ينبس ببنت شفة. حاولوا لفت انتباهه، لكنه كان يختبئ وراء سحابة من الدخان.

تقول نيتي لا تسمحي لهم بتخطي حدودهم. ينبغي أن يعرفوا من الأقوى.

يعرفون، قلت لها.

لكنها تصر على كلامها. عليكِ أن تناضلي. عليكِ أن تناضلي.

لا أعرف كيف أناضل. كل ما أعرف القيام به هو البقاء على قيد الحياة.

إنه ثوب جميل يليق بكِ، يقول لنيتي.

فتقول له: شكراً.

والحذاء يليق جداً بالفستان.

فتقول: شكراً.

بشرتكِ. وشعركِ. وأسنانكِ. في كل يوم يجد شيئاً ما ليعرب لها عن إعجابه به.

كانت في البداية تبتسم ابتسامة طفيفة. ثم أصبحت تقطب حاجبيها. لاحقاً لم تعر الأمر اهتماماً على الإطلاق. كانت تلتصق بي. تقول لي: بشرتك. شعرك. أسنانك. كان يحاول مغازلتها، وكانت تحيل غزله إليّ، إلى أن أصبحت أشعر بأنني جميلة بحق.

توقف بعد فترة وجيزة. قال لي في إحدى الليالي بينما كنا في السرير: حسناً، لقد فعلنا ما بوسعنا لمساعدة نيتي. عليها الرحيل الآن.

سألته: إلى أين ستذهب؟

قال: لا يهمني.

أخبرت نيتي في صباح اليوم التالي. وبدل أن تغضب، بدت سعيدة بالرحيل. قالت إنها تكره أن تفارقني، وتعانقنا بقوة بعد قولها ذلك.

قالت: أكره بالتأكيد تركك هنا مع هؤلاء الأطفال العفنين. فضلاً عن السيد ـــــ. الأمر أشبه برؤيتك تدفنين حية.

أعتقد أن الأمر أكثر فداحة من ذلك. لو دُفنت، لما كان علي أن أعمل. لكنني اكتفيت بقول لا عليكِ، لا عليكِ، طالما بقيت قادرة على أن أتلفظ بـ ال ل ه[6] فإنني لن أكون وحيدة.

---

6 - الله. (المترجمة).

ما استطعت إعطاءها سوى اسم السيد ـــــ الكاهن. أوصيتها أن تسأل عن زوجته. لربما تستطيع مساعدتها. إنها السيدة الوحيدة التي أعرفها ولديها نقود.

قلت لها: راسليني.

قالت: ماذا؟

قلت: راسليني.

قالت: الموت وحده سيمنعني عن ذلك.

لكنها لم تراسلني قط.

يا الـــلـــه،

جاءت اثنتان من شقيقاته لزيارتنا. ثيابهما أنيقة. قالتا: سيلي، عليك الحفاظ على نظافة البيت. لا يجوز أن نطال الموتى بسوء، لكن ما كان قول الحقيقة يوماً أمراً سيئاً. لقد كانت آني جوليا قذرة في بيتها.

قالت الأخت الأخرى: ما كانت ترغب أن تكون هنا.

سألتها: أين أرادت أن تكون؟

قالت: في بيت أهلها.

قالت الأخت الأولى: حسناً، هذا ليس عذراً. كان اسمها كيري، وكان اسم الأخرى كايت. يتعين على المرأة عندما تتزوج أن تبقي المنزل لائقاً والعائلة نظيفة. ما كان ليأتيها شيء في الشتاء، حين يعاني هؤلاء الأطفال من الرشح، والإنفلونزا، والإسهال، والالتهاب الرئوي، والديدان، والبرد، والحمى. كانوا جياعاً، وشعرهم مهمل ما مسّه مشط. كانوا مقرفين لدرجة ما كان لأحد أن يلمسهم.

قالت كايت: أنا كنت ألامسهم. وأطبخ. لم تكن تطبخ. كما لو أنها لم تر مطبخاً في حياتها.

ما كانت لتراه هو أصلاً.

يا للفضيحة، قالت كيري.

بالفعل يا لفضيحته، قالت كايت.

ما الذي تعنينه؟ سألت كيري.

أقصد أنه جلبها إلى هنا، وتركها لوحدها، وواصل تمضية لياليه لاهثاً خلف شوغ إفري. هذا ما أقصده. لا يكلمها ولا يزورها أحد. يغيب لأيام، ثم بدأت بإنجاب الأطفال. كانت شابة وجميلة.

قالت كيري بينما كانت تنظر في المرآة: ليست بجميلة. مجرد رأس من الشعر. إنها شديدة السواد.

حسناً، لا ريب أن شقيقنا يحب النساء السود، شوغ إفري سوداء مثل حذائي.

قالت كيري: شوغ إفري، شوغ إفري. لقد سئمت منها. يقولون إنها في جولة غنائية. يا للهول، ما الذي ستغنيه؟ ويقولون إنها ترتدي فساتين تكشف عن كامل ساقها، وتضع أوشحة تتدلى منها كرات صغيرة وشرّابات، لتبدو مثل نافذة تلبس فستاناً.

أصغيت بإمعان عندما كانتا تتحدثان عن شوغ إفري. أشعر بأنني أريد التحدث عنها بطريقتي. صمتتا.

قالت كايت وهي تزفر: لقد سئمت منها أيضاً. أنت محقة بشأن سيلي. إنها مدبرة منزل جيدة، وطيبة مع الأطفال، وطاهية ماهرة. ما كان أخي ليحظى بزوجة أفضل لو حاول.

ما هي يا ترى الطريقة التي حاول فيها!

جاءت كايت هذه المرة لوحدها. عانس في الخامسة والعشرين من عمرها تقريباً. لكنها بدت أكثر شباباً مني. تتمتع بصحة جيدة. وعينين متقدتين. ولسان سليط.

قالت للسيد ـــــ: اشتر بعض الملابس لسيلي. سألها: وهل تحتاجها؟

انظر إليها.

نظر إليّ، بدا وكأنه ينظر إلى كومة تراب، بينما كانت عيناه تقولان: وهل تحتاج إلى أي شيء؟

ذهبتْ معي إلى الحانوت. كنتُ أفكر ما هو اللون الذي قد ترتديه شوغ إفري. إنها كالملكة بالنسبة لي، لذلك قلت لكايت، أريد الأرجواني، وربما الأحمر أيضاً. بحثنا وبحثنا من دون أن نعثر على ملابس أرجوانية. الكثير من الملابس لونها أحمر، لكنها قالت إنه سيرفض دفع ثمن ملابس

لونها أحمر. تبدو بهيجة جداً. سنختار ملابس باللون البني أو الأحمر أو الأزرق الداكن. قلت: الأزرق.

لا أذكر أنني ارتديت يوماً شيئاً وكنت أول من يرتديه. لدي الآن ثياب صممت من أجلي فقط، حاولت أن أخبر كايت ما الذي يعنيه هذا. تملكني الخجل وخانتني الكلمات.

قالت: لا بأس يا سيلي. أنت تستحقين أكثر من ذلك.

لعلك على حق، كما أحسب.

قالت يا هاربو. هاربو الصبي الأكبر سناً. لا تدع سيلي تجلب كل المياه، لقد أصبحت شاباً الآن، وحان الوقت لتمد يد العون.

قال: هذا عمل النساء.

قالت: ماذا؟

هذا عمل النساء. أنا رجل.

قالت: أنت زنجي تافه. أحضر الدلو وأعده مليئاً بالمياه.

رمقني بطرف عينه. تعثر. وسمعته يتمتم بضع كلمات ويقول شيئاً ما للسيد ـــ الجالس على الشرفة. نادى السيد ـــ أخته. مكثت بعض الوقت على الشرفة تتحدث، ثم عادت وهي ترتجف.

قالت: حان وقت ذهابي يا سيلي.

كانت تبكي بحرقة وانهمرت دموعها وهي تحزم حقيبتها.

قالت: عليكِ أن تتصدي لهم يا سيلي. لا يمكنني أن أحارب نيابة عنكِ. عليك خوض حربك بنفسك.

لم أقل شيئاً. كنت أفكر بنيتي، ميتة. هاربة، تكافح لتنجو. ما الفائدة؟ أنا لا أكافح، أبقى حيث يُطلب مني البقاء. لكنني على قيد الحياة.

عزيزي الله،

سأل هاربو أباه: لماذا يضربني. قال السيد ـــــ لأنها زوجتي، وهي عنيدة. جميع السيدات بارعات في ... لم يكمل كلامه. دفن رأسه في الجريدة كما يفعل دائماً. ذكّرني بأبي.

سألني هاربو: لماذا أنت عنيدة؟ لم يسألني لماذا أنا زوجته؟ لا أحد يطرح هذا السؤال.

قلت: ولدتُ هكذا، على الأرجح.

يضربني كما يضرب الأطفال. لكنه لا يبرحهم ضرباً مثلي. يقول سيلي أحضري الحزام. يقف الأطفال خارج الغرفة يسترقون النظر عبر الشقوق. كل ما بوسعي فعله هو التمنع عن البكاء، أجعل نفسي خشبة. أقول لنفسي: سيلي أنت شجرة. وهكذا عرفت أن الأشجار تخشى الإنسان.

قال هاربو: أنا عاشق.

قلت: هاه؟

قال أحب إحدى الفتيات.

قلت: حقاً؟

قال: أجل، نخطط للزواج.

قلت: الزواج، لست بعمر يؤهلك للزواج.

قال: بلى، أنا في السابعة عشرة. وهي في الخامسة عشرة. كبيران بما يكفي.

سألته: ماذا قالت أمها؟

لم أتحدث إلى والدتها.

ما الذي قاله والدها؟

لم أتحدث إلى والدها أيضاً.

حسناً، ماذا قالت هي؟

لم نتحدث إلى بعضنا البعض أبداً. طأطأ رأسه. لا يبدو بشعاً. كان طويلاً ونحيلاً، أسود مثل والدته، عيناه كبيرتان جاحظتان.

سألته: أين تراها؟ قال: في الكنيسة. تراني خارجها.

سألته: هل هي معجبة بك؟

لا أعرف، غمزتها. بدت وكأنها تخشى النظر إليّ.

أين يكون والدها في هذه الأثناء؟

قال: عند المذبح.

عزيزي الله،

ستأتي شوغ إفري إلى البلدة! إنها قادمة بصحبة فرقتها الموسيقية. ستغني في لاكي ستار على طريق كولمان. سيذهب السيد ـــ لسماعها. ارتدى ملابسه أمام المرآة، نظر إلى نفسه، ثم خلعها وارتدى ملابس أخرى. وضع دهناً على شعره وملّسه إلى الخلف، ثم غسله من جديد. بصق مراراً على حذائه ومسحه بقطعة قماش.

كان يلقي عليّ الأوامر: اغسلي هذه، اكوي ذاك. انظري هذا. جدي هذا. يتأفف من الثقوب في جاربه.

كنت أدور من مكان إلى آخر أرتق وأكوي، أتلقف المناديل، سألته: هل حدث شيء ما؟

سألني: ماذ تقصدين؟ وكأن سؤالي أغضبه. أحاول فقط أن أنفض عني زي المزارع المتخلف. كان هذا ليسعد أي سيدة غيرك.

قلت: أنا سعيدة.

سألني: ما قصدك؟

قلت: تبدو وسيماً. أي امرأة ستكون فخورة بذلك.

قال: أتعتقدين ذلك؟

كانت المرة الأولى التي يسألني فيها رأيي. كنت متفاجئة جداً، وربما قلت له أجل، كان قد أصبح على الشرفة، يحاول حلق ذقنه حيث الضوء أفضل.

طفت اليوم بطوله والإعلان عن الحفل في جيبي يكويني. كان لونه زهرياً. وامتلأت بصورها الأشجار بين المنعطف المؤدي إلى طريق بيتنا والمتجر. جلب قرابة خمسة حزم منها في شاحنته.

وقفت شوغ إفري في الصورة أمام بيانو، طوت يدها، ووضعت الأخرى على وركها. ارتدت قبعة تشبه قبعة الزعماء الهنود. فمها مفتوح يظهر جميع أسنانها وما من شيء يعكر صفو ذهنها. يقول الإعلان هلموا فرادى، هلموا جماعات. الملكة «هني بي»[7] عادت إلى البلدة.

رباه، أتحرّق للذهاب. لا لأرقص. ولا لأشرب. ولا لألعب الورق. ولا حتى لأستمع إلى شوغ إفري تغني. سأكون ممتنة لمجرد أن ألقي نظرة واحدة عليها.

7 – ملكة نحلات العسل «honey bee». (المترجمة).

عزيزي الله،

غاب السيد ـــــ طيلة ليلتي السبت والأحد، ومعظم نهار الاثنين. شوغ إفري في البلدة طيلة عطلة نهاية الأسبوع. عاد مترنحاً، ألقى بنفسه على السرير. كان منهكاً. وحزيناً. وواهناً. بكى. ثم نام بقية النهار وطيلة الليل.

عندما استيقظ كنت في الحقل، وقد مضت علي ثلاث ساعات وأنا أقطع سيقان القطن. حينها جاء ولم يتفوه كلانا بكلمة.

كان في جعبتي ملايين الأسئلة. ماذا كانت ترتدي؟ هل ما تزال شوغ كما تبدو في صورتي؟ كيف هو شعرها؟ ما نوع أحمر الشفاه الذي تستخدمه؟ هل تضع شعراً مستعاراً؟ بدينة؟ نحيلة؟ هل صوتها جميل؟ متعبة؟ مريضة؟ أين كان أولادها حين صدحت بالغناء وملأ صوتها المكان؟ هل تشتاقهم؟ كان ذهني يلهج بالأسئلة. تتسلقني كما الأفاعي. أتقوّى بالدعاء، وأعضّ باطن فمي.

أمسك السيد ـــــ بالمجرفة وبدأ بالتقطيع معي. ضرب ثلاث مرات وتوقف. رمى المجرفة في الأخدود، وعاد إلى المنزل، أحضر لنفسه كوباً من الماء البارد، وغليونه، جلس على الشرفة شارداً. تبعته وأنا أحسبه مريضاً. قال لي: من الأفضل أن تعودي إلى الحقل. لا تنتظريني.

عزيزي الله،

هاربو ليس أفضل حالاً مني في مجابهة أبيه. يستهل والده يومه بالجلوس على الشرفة، ويتمعن في اللاشيء. ينظر أحياناً إلى الأشجار المتواجدة أمام المنزل. ينظر إلى فراشة إذا ما حطّت على السياج. يشرب القليل من المياه نهاراً. والقليل من النبيذ مساءً. لكنه في أكثر الأحيان لا يأتي بحركة.

يتذمر هاربو من الحراثة الملقاة على عاتقه.

يقول والده: ستحرث.

يقارب هاربو حجم أبيه. قوي البنية لكنه ضعيف الإرادة. كان يخاف.

نمضي أنا وهو طيلة اليوم في الحقل، نعرق ونقطّع ونحرث. أنا بلون حبوب قهوة محمّصة الآن. هو أسود كما جوف مدخنة. عيناه حزيتتان وساهمتان. وجهه أمسى يشبه وجه امرأة.

سأل والده: لماذا توقفت عن العمل؟

البركة فيك، أليس كذلك؟ قال ذلك بعدائية. ما جرح مشاعر هاربو. فهو أيضاً لا يزال عاشقاً ولهاناً.

عزيزي الله،

قال والد حبيبة هاربو إن الأخير ليس جديراً بها. غازل هاربو الفتاة ردحاً من الزمن. قال إنه جالسها في الردهة، بينما كان والدها رابضاً في الزاوية متسبباً باستياء الجميع. ثم إنه ذهب للجلوس على الشرفة أمام الباب المفتوح حيث يمكنه سماع كل شيء. وفي الساعة التاسعة، أحضر لهاربو قبعته.

سأل هاربو السيد ـــــ: لِم لست جديراً بها؟ قال السيد ـــــ: إنها أمك.

قال هاربو: ما خطب أمي؟

قال السيد ـــــ: شخص ما قتلها.

تطارد هاربو الكوابيس المرعبة. فقد رأى أمه تركض عبر المروج تسعى للوصول إلى البيت، والرجل الذي قيل إنه عشيقها، يلاحقها. أمسكت يد هاربو. ركضا وركضا. أدركها، وجذبها من كتفها، قائلاً، لن تفلتي مني الآن. أنتِ لي. قالت: لا، لست لك. مكاني هنا مع أطفالي. قال: لن تذهبي إلى أي مكان، يا عاهرة. أطلق عليها النار فأصابها في بطنها. هوت على الأرض. هرب الرجل، أخذها هاربو بين ذراعيه، ووضع رأسها على حضنه.

يهمّ بالصراخ: أمي، أمي. يوقظني صراخه. يوقظ الأطفال الآخرين. يبكون كما لو أن أمهم ماتت للتو. ينتفض مرتجفاً.

أوقد المصباح وأقف فوقه، أربت على ظهره.

يقول: ليس ذنبها، شخص ما قتلها.

أقول: ليس ذنبها! كلا، ليس ذنبها.

يحكي الجميع عن تعاملي الجيد مع أطفال السيد ـــــ. نعم هذا صحيح. لكني لا أشعر حيالهم بأي أحاسيس. التربيت على ظهر هاربو أشبه بالتربيت على ظهر كلب لا أكثر. أو قطعة من الخشب. ليست حتى بشجرة حية، إنما طاولة، أو خزانة. على أي حال، هم لا يحبونني أيضاً، مهما كنت طيبة معهم.

لا يكترثون. وباستثناء هاربو فإنهم جميعاً لا يعملون. وجوه الفتيات معلقة دائماً على الطريق. بوب خارج المنزل معظم الليالي يشرب مع صبية يكبرونه بالعمر مرتين. وأبوهم ينفث دخان غليونه.

يخبرني هاربو الآن عن شؤونه الغرامية. تشغل صوفيا باتلر تفكيره ليل نهار.

يقول لي: إنها جميلة ومتألقة.

ذكية؟

كلا، لها بشرة فاتحة. ربما هي ذكية أيضاً. ننجح أحياناً في الإفلات من مراقبة والدها.

عرفت بما سيخبرني، لقد انتفخت.

سألته: إن كانت ذكية كما تقول، فكيف لها أن تنتفخ؟

هز هاربو كتفيه بلا مبالاة. قال: هذه هي الطريقة الوحيدة للخروج من المنزل. لن يسمح السيد ـــــ لنا بالزواج. يقول إنني لست جديراً بالدخول إلى صالونه. لكن إن حملت، فسيكون حينها من حقي أن أكون معها، سواء كنت جديراً بها أم لا.

أين ستسكنان؟

قال: منزلهم كبير، عندما نتزوج سأكون فرداً من العائلة.

قلت: تباً، إن كنت لا تروق للسيد ـــــ قبل أن تنتفخ، فلن تروق له *لأنها* انتفخت.

بدا هاربو قلقاً.

قلت: تحدث إلى السيد ـــــ، إنه والدك. ربما ينصحك بأمر مفيد. وربما لا، على الأرجح.

أحضرها هاربو لتقابل والده. قال السيد ـــــ إنه يرغب بإلقاء نظرة عليها. رأيتهما يغذّان الخطا على الطريق. كانا يسيران يداً بيد، كما لو أنهما ذاهبان إلى الحرب. كانت تسبقه قليلاً. وصلا الشرفة، تكلمتُ وقربتُ بعض الكراسي من السياج. جلستْ ومضتْ تستخدم منديلها مروحةً. قالت: الطقس حار. لكن السيد ـــــ لم ينبس ببنت شفة.

كان ينظر إليها من الأعلى إلى الأسفل. كانت حاملاً في الشهر السابع أو الثامن، تكاد تنفجر داخل فستانها. هاربو لشدة سواده حسب بشرتها فاتحة. فهي ما كانت بالقدر الذي تحدّث عنه. أميل للبني العادي، تعلوها مسحة من اللمعان كما الأثاث الجيد. كان شعرها مسرّحاً ولكنه كثيف، ملتف حول رأسها على شكل جديلة. لم تكن طويلة مثل هاربو، لكنها أضخم منه بكثير، قوية ومتوردة، كما لو أن أمها ربتها على أكل لحم الخنزير.

قالت: كيف حالك يا سيد ـــــ؟

لم يجب على سؤالها. قال: يبدو أنك أقحمت نفسك في ورطة. قالت: كلا يا سيدي، لست في ورطة. رغم أنني منتفخة.

مسدت الطيات على بطنها بيديها.

سأل: من هو الأب؟

بدت متفاجئة. قالت: هاربو.

كيف تعرفين أنه هو؟

قالت: هو يعرف.

قال: لم تعد الفتيات صالحات هذه الأيام. يفتحن سيقانهن لكل توم، وديك، وهاري.

نظر هاربو إلى والده كما لو أنه يراه للمرة الأولى. لكنه لم يقل شيئاً.

قال السيد ـــــ: لا طائل من الاعتقاد بأنني سأدع ابني يتزوج منك لمجرد أن صدفة ساقتك إلى العائلة. إنه غِرّ ومحدود. فتاة جميلة مثلك تستطيع أن تقوده حيث تشاء.

لم يقل هاربو شيئاً.

توّرد وجه صوفيا أكثر. تغضن جبينها. وبرزت أذناها بشكل أكبر.

لكنها ضحكت. تملت بناظريها هاربو وهو جالس هناك مطأطأ الرأس ويداه بين ركبتيه.

قالت: ما حاجتي إلى الزواج من هاربو؟ لا يزال يعيش هنا معك. وأنت من يشتري مأكله وملبسه.

قال: والدك طردك من البيت، وأعتقد أنك على استعداد للعيش في الشارع.

قالت: كلا، لن أعيش في الشارع. أعيش مع أختي وزوجها. يقولان إنه بإمكاني العيش معهما طيلة حياتي.

نهضت، منتفخة، وقوية، ووافرة الصحة، وقالت: حسناً، سعدت بزيارتكم. سأعود إلى البيت.

قام هاربو ليمضي معها. قالت: كلا يا هاربو، ابق هنا. عندما تصبح حراً، سنكون أنا والطفل بانتظارك.

تردد بينهما قليلاً، ثم عاد وجلس مجدداً. اختلستُ حينها نظرة سريعة إلى وجهها، وبدا كأن ظلاً يعبره. ثم قالت لي: سيدة ـــــ، هل لي لو سمحتِ بكوب ماء قبل ذهابي، إن لم يكن لديك مانع.

كان الدلو على الرف الموجود على الشرفة. جلبت كوباً نظيفاً من الخزانة وصببت لها بعض الماء. شربته كله، دفعة واحدة تقريباً. ثم وضعت يديها فوق بطنها مجدداً وانطلقت. بدا كأن الجيش بدّل وجهته، وها هي ذاهبة للحاق به.

لم يتزحزح هاربو عن كرسيه. جلس هو ووالـده هناك، وأطالا الجلوس. ما تحدثا وما تحركا قط. تناولت عشائي وخلدت إلى النوم. استيقظت صباحاً وأحسست بأنهما ما زالا جالسين هناك. غير أن هاربو كان في دورة المياه، بينما كان السيد ـــــ يحلق ذقنه.

عزيزي الله،

ذهب هاربو وأحضر صوفيا والطفل إلى المنزل. تزوجا في منزل شقيقة صوفيا. ساند زوج شقيقتها هاربو. تسللت شقيقة أخرى من المنزل لتساند صوفيا. وجاءت أخرى لتحمل الطفل. قيل إنه بكى طيلة مراسم الزواج، وأن أمه أوقفت كل شيء لإرضاعه. وفرغت من قول كلمة «أقبل» وهي تحمل بين ذراعيها طفلاً ضخماً ترضعه.

أصلح هاربو المنزل الصغير الموجود بالقرب من الجدول ليسكنه وعائلته. كان والد السيد ـــــ يستخدمه كمخزن. لكنه كان في حالٍ جيدة. صار له الآن نوافذ، وشرفة، وباب خلفي. إضافة إلى إطلالته الجميلة على المرج الأخضر قرب الجدول.

طلب مني صنع بعض الستائر فصنعت بعضاً منها باستخدام أكياس الطحين. لم تكن كبيرة. لكنها كانت حميمة. جلب سريراً وخزانة ومرآة وبعض الكراسي. كما جلب موقداً للطهي والتدفئة أيضاً. أصبح والد هاربو يعطيه الآن أجراً أسبوعياً لقاء عمله. كان يقول إن هاربو لا يعمل بجدٍّ بالقدر الكافي. لربما بعض المال سيحثه على العمل ويجعله أكثر اهتماماً به.

قال هاربو لي في ما مضى: سيدة سيلي، سأنفذ إضراباً.

إضراب عن ماذا؟

لن أذهب إلى العمل.

لم يأتِ بالفعل إلى العمل. صار يزور الحقل يقطف كوزين من الذرة، ويترك الباقي لتلتهمه الطيور. لم نجنِ الكثير هذه السنة.

لكن بعد مجيء صوفيا، أصبح مشغولاً دائماً. يقطّع ويطرق ويحرث. يغني ويصفر.

تضاءل حجم صوفيا إلى النصف. لكنها ما زالت تلك الفتاة الضخمة القوية. برزت عضلات ذراعيها وساقيها. وكانت تؤرجح طفلها بمنتهى السهولة. صار لها بطن صغيرة أشبه بالقِدر، يوحي للناظر بأنه سائر جسدها. صلبة هي صوفيا، إن جلست على شيء هشمته.

سألتْ هاربو أن يحمل الطفل، ريثما تمضي معي إلى المنزل لجلب بعض الخيوط. فقد كانت تصنع بعض الملاءات. أخذ الطفل وقبّله، ودغدغه من عنقه. اكفهر وجهه وهو يرمق والده في الشرفة.

نفث السيد ـــــ الدخان، ونظر إلى هاربو، وقال: نعم لقد أدركت الآن بأنها هي صاحبة اليد الطولى.

عزيزي الله،

يود هاربو معرفة السبيل إلى ترويض صوفيا. جلس مع السيد ـــــ في الشرفة وقال: أسألها القيام بشيء، فتقوم بشيء آخر.لا تنصاع لما أقوله أبداً، ولا تكف عن المجادلة.

وللأمانة، فقد بدا لي فخوراً بما قاله عنها.

لم يقل السيد ـــــ شيئاً. ظل ينفث الدخان.

أقول لها: إنها لا تستطيع زيارة أختها دائماً. لقد أصبحنا متزوجين الآن. مكانك هنا مع الأطفال.

تقول: سآخذ الأطفال معي. أقول: مكانك معي. تقول: هل تريد الذهاب معي؟ وتواصل تبرجها أمام المرآة، وتهيئة الأولاد.

سأل السيد ـــــ: هل ضربتها يوماً؟

أطرق هاربو ناظراً إلى يديه. قال محرجاً وبصوت خفيض: كلا يا سيدي.

حسناً، كيف لك أن تروّضها إذن؟ الزوجات كالأطفال. عليك أن تعرفهن من هو صاحب اليد العليا. ما من شيء يتكفل بذلك مثل الضرب المبرح.

نفث دخان غليونه.

وأضاف: صوفيا معتدّة بنفسها. يتعين كسر شوكتها.

تعجبني صوفيا، إلا أن تصرفاتها مغايرة تماماً لتصرفاتي. إن دخل هاربو والسيد ـــــ إلى الغرفة وهي تتكلم، فإنها تواصل حديثها. إن سألاها عن مكان شيء ما تقول إنها لا تعرف. وتواصل.

تفكّرت بذلك حين سألني هاربو عما يتعين عليه فعله لترويضها. لم أورد شيئاً عن سعادته الآن. كيف أن ثلاث سنوات مرّت وهو يصفر ويغني. أفكر بدهشتها الدائمة كلما انتفضتُ ملبية نداء السيد ـــــ. كأنها تشفق عليّ.

قلت له: اضربها.

حين رأينا هاربو بعد ذلك كان وجهه مغطّى بالكدمات. وثمة جرح في شفته. وإحدى عينيه مغمضة كما القبضة. مشى متصلباً وقال إن ضرسه يؤلمه.

قلت: ما الذي حدث لك يا هاربو؟

قال: آه إنها تلك البغلة. تعرفين كم هي حرون. جنّ جنونها في الحقل منذ يومين. أوسعتني ضرباً حين قمت بجلبها إلى البيت. وهناك اصطدمتُ بباب الزريبة. فأصيبت عيني وخدشت ذقني. حين هبت تلك العاصفة الليلة الماضية أوصدت النافذة على يدي.

قلت: حسناً، بعد كل هذا، أظن أنك فوّت فرصة ترويضها.

قال: كلا.

لكنه واصل محاولاته.

عزيزي الله،

بينما كنت أستأذن الدخول إلى الفناء، سمعت صوت تحطيم وتهشيم. جاء الصوت من داخل المنزل، فركضت إلى الشرفة. كان الطفلان يصنعان فطائر من الطين على حافة الجدول، لم يرفعا أعينهما.

فتحت الباب بحذر، حسبتهم لصوصاً أو قتلة. لصوص أحصنة وأشباح. وما كانا إلا هاربو وصوفيا. يتعاركان كرجلين. قُلِبت قطع الأثاث رأساً على عقب. تحطمت جميع الأطباق. مالت المرآة على الحائط، تمزقت الستائر. نُبِشت حشوة الفراش. لم ينتبها لوجودي. كانا يتعاركان. حاول صفعها. لماذا فعل هذا؟ انحنت على الأرض وأخذت حطبة من الموقد وضربته بها بين عينيه. لكمها في بطنها، تلوّت من الألم لكنها ضربته أسفل عدته التناسلية. تلوى على الأرض. أمسكها من ذيل ثوبها وجرّها. وقفت بملابسها الداخلية. لم يرف لها جفن. قفز وحاول تثبيتها من الخلف ممسكاً أسفل ذقنها، لكنها رمته من وراء ظهرها، فوقع على الموقد.

لا أعرف كم أمضيا من الوقت وهما على هذه الحالة. لا أعرف متى سيفرغان من القتال. خرجت بهدوء، لوحت للولدين بجانب الجدول وعدت إلى المنزل.

صباح يوم الأحد، سمعنا صرير العربة. هاربو وصوفيا والولدان ذاهبون لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في منزل شقيقة صوفيا.

لأكثر من شهر وأنا أنازع النوم. أسهر لساعة متأخرة قبل أن يبدأ السيد ـــــ التشكي من سعر الكيروسين، ثم أنقع جسدي بالمياه الدافئة

والحليب وملح الإبسوم، ثم أرش ماء الهاماماليس على وسادتي وأسدل الستائر كي لا يتسلل ضوء القمر. أحظى أحياناً بقسط من النوم، ومتى تنعمت به أصحو.

كنت في بادئ الأمر أنهض على عجل وأشرب بعض الحليب. أفكر بعدّ دعامات السياج، ثم قراءة الإنجيل.

سألت نفسي: ما الذي ألمّ بي؟

باح لي خاطري بأنني اقترفتُ خطأ ما، ربما ارتكبتِ إثماً بحق روح أحدهم. وفي ليلة من الليالي تبدّى لي السبب. إنها صوفيا. لقد أخطأتُ بحق روح صوفيا.

دعوت متضرعة ألا تعرف، لكنها عرفت. هاربو أخبرها.

ما إن سمعت بذلك، حتى أقبلتْ بخطوات عسكرية، وعلى عاتقها كيس، وتحت عينها كدمة زرقاء وحمراء.

قالت: رغبت أن تعرفي بأنني كنت أرى فيك عوناً لي.

سألت: ألم أساعدك؟

فتحت كيسها. قالت: إليكِ ستائرك وخيوطك. وهذا دولار لسماحك لي باستخدامها.

قلت وأنا أسعى لإعادتها إليها: إنها لكِ. تسرني مساعدتك. وهذا ما كان بمقدوري تقديمه.

قالت: أنت من حرّض هاربو على ضربي.

قلت: لا، لم أفعل.

قالت: لا تكذبي.

قلت: لم أعنِ ما قلته.

سألتني: لماذا قلتِ ذلك إذاً؟

وقفتْ محدقة مباشرة بعيني.

بدت متعبة ومنتفخة الأوداج.

قلت ذلك لأنني حمقاء. لأنني أغار منك. قلته لأنك تقومين بكل ما أعجز عن فعله.

قالت: وما هو؟

قلت: المجابهة.

وقفتْ مطولاً، وكأن ما قلته قد سحب الهواء من فكيها. كانت مهتاجة، فأمست حزينة.

قالت: كان عليّ أن أجابه طوال حياتي. كان عليّ مجابهة أبي، وأخوتي، وأعمامي وأولادهم. ما كان لطفلة صغيرة أن تكون بمأمن على الإطلاق وسط عائلة من الرجال. لكن لم يتبادر إلى ذهني قط بأن عليّ أن أخوض مجابهة في بيتي. زفرت. أحبّ هاربو. الله يعلم أنني أحبه. لكنني سأقتله قبل أن أسمح له بضربي. والآن إن أردت صهراً ميتاً واصلي نصحه على هذا المنوال.

وضعت يدها على وركها. قالت: اعتدت لعبة الصيد بالقوس والنشاب.

هدأت الرعشة الوئيدة التي انتابتني حين رأيتها قادمة. قلت: أنا خجلة من نفسي. والله عاقبني على فعلتي هذه.

قالت: الله لا يحب البشعين.

ولا يأبه بالجميلين.

أفضى ذلك إلى اتخاذ حديثنا مساراً آخر.

قلت: ترثين لحالي، أليس كذلك؟

فكّرت للحظة، ثم قالتْ بتريث: أجل، أنت مدعاة للرثاء.

كنت أعرف السبب لكنني سألتها.

قالت: سأصدقك القول، أنت تذكريني بأمي. إنها كالخاتم في إصبع أبي. لا بل هي تحت قدميه. كل أوامره مطاعة. لم تعصِ له كلمة قالها يوماً. لم تدافع عن نفسها قط. تحاول أحياناً أخذ نصف موقف نصرة

للأولاد ودائماً ما تتراجع. وكلما دافعت عنا، كلما صيّر حياتها أكثر شقاء. يكره الأولاد والرحم الذي أتى بهم. ما كان لأحد أن يتبين ذلك، نظراً لعدد الأطفال الذين أنجبهم.

ما كنت أعرف شيئاً عن عائلتها قبلاً. فكّرت. إن إلقاء نظرة على عائلتها ستدفع للخلوص إلى أن الخوف ما استوطن أحداً من أفرادها.

سألتها: كم ولد لديه؟

قالت: اثنا عشر.

قلت: ياه. أنجب أبي ستة أولاد من أمي قبل وفاتها. وأربعة آخرين من زوجته الحالية.

لم أذكر الولدين اللذين أنجبهما مني.

سألتني: كم بنتاً؟

قلت: خمس بنات. كم بنتاً في عائلتك؟

قالت: ستة صبية وست بنات. البنات جميعهن ضخمات وقويات مثلي. والصبية أيضاً، لكننا نحن البنات متكاتفات مع بعضنا البعض. وهناك شقيقان في صفنا. متى اندلع عراك بيننا فإنه يتحول إلى مشهد يستحق الفرجة.

قلت: لم أضرب مخلوقاً قط. عندما كنت في بيت أهلي اعتدت تأديب الصغار، ولكني لم أضربهم بالقدر الذي يؤذيهم.

سألتني: ماذا تفعلين عندما تغضبين؟

قلتُ بعد تفكري بالأمر: لا أستطيع حتى تذكّر المرة الأخيرة التي غضبت فيها. كانت أمي تثير غضبي لما تحمّلني إياه من مشاق. ثم عايشت شدة مرضها، فعدلت عن ذلك. لم أغضب من أبي لأنه أبي. يقول الإنجيل: أكرم أباك وأمك مهما كانت الظروف. ثم أصبحت أشعر بالغثيان كلما أحسست بالغضب، أو طالعني إحساس به. أشعر برغبة بالتقيؤ. هذا مريع. إلى أن أمسيت لا أشعر بشيء على الإطلاق.

سألت صوفيا متجهمة: لا شيء على الإطلاق؟

قلت: حسناً، أحياناً يقسو السيد ـــــ عليّ كثيراً. فأناجي الله القدير. لكنه زوجي. فأنفض عني ذلك غير مبالية. وأقول: هذه الحياة زائلة. الخلود في الفردوس الأعلى.

قالت: عليكِ ضرب السيد ـــــ حتى يُفتح رأسه. فكري بالفردوس لاحقاً.

ما كان هذا مضحكاً لي. بلى كان مضحكاً. ضحكتُ. ضحكتْ. ثم ضحكنا كثيراً معاً وارتمينا على الدرج.

قالت: دعينا نستخلص لحافاً من هذه الستائر المبعثرة. ركضتُ وأحضرت كتيب التصاميم.

بتّ أنام كطفلة الآن.

عزيزي الله،

شوغ إفري مريضة ولا أحد في البلدة يرغب باستضافة الملكة «هني بي». تقول إن أمها من أخبرها بذلك. وينعتها والدها بالعاهرة. تقول سيدةٌ في الكنيسة إنها تحتضر، ربما هو السل أو مرض نسائي شائن. أي مرض هذا؟ وددت لو أسأل، وما فعلت. النساء في الكنيسة تارةً لطيفات معي. وتارة أخرى لسنا كذلك. يشهدن منازعاتي مع أولاد السيد ـــــ. محاولة جرّهم إلى الكنيسة، ودفعهم لملازمة الصمت بعد دخولنا. منهن من رأيتهن في المرتين اللتين انتفخت فيهما. يعتقدن أنني جاهلة بما ألمّ بي. يحدّقن بي. أرتبك.

لا تهنُ عزيمتي، ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً. أقوم بالكثير من الأعمال خدمة لأبينا في الكنيسة. أنظّف الأرضية والنوافذ، وأحضر النبيذ، وأغسل غطاء المذبح الكتاني. وأعاين مخزون الحطب شتاءً. أسماني الأخت سيلي. يقول: أنت ممتلئة إيماناً أيها الأخت سيلي. ثم يحادث نسوة أخريات وأزواجهن. أدور حولي أقوم بهذا العمل أو ذاك. يجلس السيد ـــــ عند الباب يجول بناظريه هنا وهناك. والنساء يبادلنه نظراته مبتسمات كلما سنحت الفرصة. لا ينظر إليّ أبداً أو لا يلقي بالاً لوجودي.

حتى أبونا أدلى بدلوه عن شوغ إفري. تحدّث في عظته عنها. لم يذكرها بالاسم، لم يكن من ضرورة لذلك. الجميع عرف من يقصد. تحدث عن بغي ترتدي التنانير القصيرة، وتدخن، وتشرب الجن. تغني لقاء المال وتسطو على رجال نسوة أخريات. تحدّث عن بقرة، عاهرة، فاجرة، متسكعة.

ألقيت نظرة خاطفة على السيد ـــــ حين قال متسكعة. أما من أحد يدافع عن شوغ. لم يقل شيئاً. وضع ساقه اليمنى فوق اليسرى، ثم بدلهما. وسرح بناظريه عبر النافذة. نظرت النساء نحوه وابتسمن، وقلن آمين عند الدعاء على شوغ.

وصلنا البيت. لم يدخله ولم يغيّر ثيابه. نادى هاربو وصوفيا وهو متوجه نحو منزلهما. خرج هاربو مهرولاً.

قال: أحضر العربة.

قال هاربو: إلى أين ستذهب؟

قال مجدداً: أحضر العربة.

أحضر هاربو العربة. وقفا بعيداً وتحدثا لدقائق قرب الحظيرة. ثم قاد السيد ـــــ العربة. ومضى بعيداً.

الفائدة الوحيدة من امتناعه عن القيام بأي عمل، تكمن بعدم افتقادنا له حين رحيله.

بعد خمسة أيام وبينما كنت أنظر بعيداً جهة الطريق رأيت العربة تعود أدراجها. ثمة مظلة فوقها الآن، مصنوعة من البطانيات أو شيء من هذا القبيل. بدأ قلبي يتقافز كالأرنب، وأول ما سعيت للقيام به كان تغيير ملابسي.

فات أوان ذلك. فما إن أخرجت رأسي وذراعي من الفستان القديم، كانت العربة قد وصلت إلى الفناء. علاوة على أن الفستان الجديد لن يخفف من فداحة هيئة رأسي الأشعث والخرقة المغبرة التي أضعها على رأسي، وحذائي القديم والرائحة النتنة التي تفوح مني.

لم أعرف ما الذي عليّ فعله، كنت منفعلة للغاية. وقفت وسط المطبخ. دخت. من كان ليصدق ما يحدث؟

سمعت السيد ـــــ ينادي: *سيلي. هاربو.*

أعدت رأسي وذراعي مجدداً إلى داخل الفستان القديم ومسحت العرق والأوساخ عن وجهي ما استطعت.

اقتربت من الباب وتعثرت بالمكنسة التي كنت أنظف بها عندما لمحت العربة للمرة الأولى. وسألته: ماذا تريد يا سيدي؟

هاربو وصوفيا في الفناء الآن، ينظران إلى داخل العربة. اكفهر وجهاهما.

سأل هاربو: من هذه؟

قال: السيدة التي كان يتعين أن تكون أمك.

سأل هاربو: شوغ إفري؟ ونظر نحوي.

حسبت أن فمي سيلفظ قلبي طائراً إلى الخارج حين رأيت إحدى قدميها بادية خارج العربة.

لم تعد مستلقية الآن. ترجلت وهي مستندة على هاربو والسيد ـــــ. كانت ترتدي ملابس فاتنة. فستان صوفي أحمر مع خرز أسود كثير على الصدر. قبعة سوداء براقة وفوقها ما بدا مثل ريش طائر الباز وقد تدلت بشكل مائل على إحدى وجنتيها، وكانت تحمل حقيبة مصنوعة من جلد الحية، مثل جلد حذائها.

بدت مفرطة الأناقة لدرجة تسامقت فيها الأشجار المحيطة كي تراها على نحو أفضل. أصبح بمقدوري رؤيتها الآن وقد تعثرت، بين الرجلين. لا يبدو بأنها تتحكم جيداً بقدميها.

رأيت عن قرب طبقة المسحوق الصفراء السميكة التي تغطي وجهها. رأيت أحمر الشفاه. بدت وكأنها لن تبقى كثيراً في هذا العالم ولكنها تأنقت على نحو جيد من أجل ما هو مقبل. أنا من يعرف.

تعالي ادخلي. وددت لو أنادي. لو أصرخ. ادخلي.

سيلي هنا، وبعون الله ستعتني بك. لم أقل شيئاً. هذا ليس بمنزلي. كما أنهم لم يقولوا لي شيئاً.

صعدوا منتصف الدرج، نظر السيد ـــــ نحوي. قال: سيلي. شوغ إفري هنا. صديقة قديمة للعائلة. جهزي الغرفة الإضافية. ثم نظر إلى

الأسفل نحوها، أمسكها بإحدى ذراعيه، تمسك بالسياج باليد الأخرى. كان هاربو على الجهة الثانية، بدا حزيناً. كانت صوفيا والأولاد في الفناء، يراقبون.

لم أستجب في الحال، عجزت عن الإتيان بأدنى حركة. أود رؤية عينيها. أشعر أنني حالما أراهما ستجمد قدماي في مكانهما.

قال بحدة: تحركي.

ثم نظرتْ إلى الأعلى.

بدا وجهها أسود تحت المسحوق كما وجه هاربو. كان أنفها طويلاً مدبباً وفمها كبيراً بشفتين مكتنزتين، وبدوتا مثل راحة يد سوداء. عينان كبيرتان، ولامعتان، وحمراوتان. ولئيمتان. كانت مستعدة جرّاء مرضها لقتل أفعى إن اعترضت طريقها.

تفحصتني من رأسي إلى أخمص قدمي. ثم قهقهت. كان صوتها مثل حشرجة الموت. قالت: *أنتِ* قبيحة حقاً، كأنها لم تصدق ذلك.

عزيزي الله،

شوغ إفري ليست على ما يرام. مريضة وحسب. أشدّ مرضاً من أي مريض عرفته. أشد مرضاً من ماما حين احتضارها. لكنها أكثر شراً من ماما وهذا ما يبقيها على قيد الحياة.

يلازم السيد ـــــ غرفتها ليل نهار. لا يتاح له إمساك يدها. شريرة جداً هي. تقول للسيد ـــــ: دع يدي اللعينة يا مجنون. ما بالك؟ لا أريد أن يمسك يدي صبي ضعيف ليس بمقدوره معارضة أبيه. أحتاج إلى رجل. تنظر إليه وتشيح عنه وتضحك. لم تكن ضحكة بمعنى الكلمة إلا أنها كانت كافية لإبعاده عن السرير، وانتحاء الزاوية بعيداً عن المصباح. تستيقظ أحياناً في الليل عاجزة عن الرؤية. لكنه قابع حيث هو. جالس في الظل يعضعض غليونه الخالي من التبغ. وأول ما تقوله: لا أريد أن أشم رائحة غليون نتن لعين، هل تسمعني يا ألبرت؟

أتساءل: مَن ألبرت هذا. ثم أتذكر أنه الاسم الأول للسيد ـــــ.

السيد ـــــ لا يدخن. ولا يشرب. وبالكاد يأكل. يظل فقط معها في تلك الغرفة الصغيرة، يراقب كل نفس تتنفسه.

سألت: ما الذي حلّ بها؟

قال: أنتِ لا ترغبين بوجودها هنا، فقط قولي ذلك. لن تتحسن. ولكن إن كان هذا ما تشعرين به... لم يكمل جملته.

قلت على الفور: أرغب بها هنا. نظر نحوي كما لو أنني أضمر شراً.

قلت: أريد فقط أن أعرف ما الذي أصابها.

أنظر إلى وجهه. متعب وحزين وذقنه متراخية. ما عادت ذقناً. ذقني

على ما أظن، أكثر بروزاً. وثيابه متسخة كثيراً. وعندما يخلعها، ينبعث الغبار.

قال: ما من أحد يقف إلى جانب شوغ. وسالت من عينيه بضع دمعات.

عزيزي الله،

رغم أنهما أنجبا ثلاثة أولاد إلا أنه لا يرتاح لفكرة تحميمها. ربما فطن إلى أنه يفكر بأشياء ليس عليه التفكير بها. لكن ماذا عني؟ في المرة الأولى التي أتيح لي رؤية كامل جسد شوغ إفري الأسود وحلمتيها السوداوتين كالبرقوق، المشابهتين لفمها، حسبت أنني تحولت إلى رجل.

سألتني بتقزز: بماذا تحدقين؟ كانت ضعيفة كهرة صغيرة. لكن فمها مليء بالمخالب. ألم تري امرأة عارية من قبل؟

قلت: كلا يا سيدتي. لم أرَ. باستثناء صوفيا، وكانت مكتنزة للغاية ومتوردة ومجنونة وانتابني شعور أخوي.

قالت: حسناً، مليّ ناظريك. حتى وإن كان جسدي الآن مجرد حقيبة من العظم. وضعت غير آبهة يديها على وركها العاري ورمقتني بغنج. ثم عضت على شفتها ووجهت بصرها نحو السقف وأنا أحممها.

غسلت جسدها، شعرت كما لو أنني أصلي. ارتجفت يداي ووجدت مشقة في التنفس.

قالت: ألم تنجبي أطفالاً؟

قلت: نعم يا سيدتي.

قالت: كم طفلاً؟ ولا تقولي لي نعم يا سيدتي، لست عجوزاً.

قلت: ولدان.

سألتني: أين هما؟

قلت: لا أعلم.

نظرت نحوي مستظرفة جوابي.

قالت: أولادي مع جدتهم. يمكنها تحمّل الأطفال، كان عليّ أن أرحل.

سألتها: ألا تشتاقين إليهم؟

قالت: كلا، لا أشتاق أحداً.

عزيزي الله،

سألتُ شوغ إفري عمّا ترغب بتناوله على الفطور. قالت: ماذا لديكِ؟ قلت: لحم خنزير، وذرة مطحونة، وبيض، وبسكويت، وقهوة، وحليب محلّى أو حليب رائب وكعك. وهلام ومربى.

قالت: أهذا كل ما لديكِ؟ ماذا عن عصير البرتقال، والجريب فروت، والفراولة والكريمة. والشاي. ثم ضحكت.

قالت: لا أرغب بأيٍّ من طعامك اللعين. أعطني فقط فنجاناً من القهوة وناوليني سجائري.

لم أجادلها. أحضرت القهوة وأشعلت لها سيجارتها. كانت ترتدي ثوب نوم أبيض طويل بينما خرجت يدها النحيلة السوداء منه لتمسك السيجارة البيضاء مسرة للناظرين. ثمة ما يشيع شعوراً غامضاً، ربما بسبب الأوردة الناعمة الصغيرة التي أراها وتلك الكبيرة التي تخيفني وأشيح ببصري عنها. أشعر بأن شيئاً ما يستحثني. ما لم أتمالك نفسي فسأمسك بيدها، وأتذوق أصابعها بفمي.

سألتها: هل أستطيع أن أجلس هنا وآكل معك؟

هزت كتفيها غير مبالية. كانت مشغولة بتصفح مجلة. تظهر فيها نساء بيض ضاحكات، ملوحات بقلادت خرزية ملفوفة على إصبع واحدة، يرقصن من فوق سيارات. يتقافزن في النوافير. قلّبتِ الصفحات. بدت مستاءة. ذكرتني بطفل يريد اللعب بدمية لم تعمل بعد.

شربت قهوتها، ونفثت دخان سيجارتها. قضمت قطعة كبيرة من لحم الخنزير المنزلي الغض. يمكن شم رائحته من على مسافة ميل عند طبخه، وبالتالي ملأت الرائحة غرفتها الصغيرة بسهولة.

دهنتُ الكثير من الزبدة على البسكويت الساخن، ولوحت بها قليلاً. غمست لحم الخنزير بمرق اللحم وخلطت البيض مع الذرة المطحونة.

نفثتِ المزيد من الدخان. نظرت إلى قهوتها كما لو أن هناك شيئاً صلباً في القعر.

قالت أخيراً: سيلي أعتقد أن بإمكاني شرب كوب من الماء. والكوب الموجود هنا قرب السرير قديم.

أمسكتْ بكوبها.

وضعتُ طبق الطعام قرب السرير على الطاولة المخصصة للعب الورق. وذهبت لإحضار القليل من الماء. عدت، وأمسكت بطبقي. بدا وكأن فأرة صغيرة قد قضمت البسكويت، وجرذاً قضى على لحم الخنزير.

تظاهرتْ وكأنها لم تفعل شيئاً. وبدأت تتشكى تعبها. خلدت إلى النوم.

سألني السيد ـــــ كيف جعلتها تأكل؟

قلت: ما من أحد يمكنه مقاومة رائحة لحم الخنزير البيتي من دون تذوقه. قد يقاومه إن كان ميتاً.

ضحك السيد ـــــ.

لمحت نظرة مجنونة في عينيه.

قال: لقد تملكني الخوف. ذعرت. وغطى عينيه بيديه.

عزيزي الله:

نهضت اليوم شوغ إفري قليلاً في السرير. غسلتُ شعرها ومشطته. لم أر في حياتي شعراً مشعثاً وقصيراً ومجعداً مثل شعرها، لقد عشقتُ كل خصلة فيه. واحتفظتُ بالشعر الذي علق بمشطي. ربما صنعت شبكة منه، وقوّيت به شعري وجعلته كثيفاً أكثر.

كنت أدللها كما لو أنها دمية أو أوليفيا أو أنها أمي. أمشّط شعرها وأربّت عليه، أمشّط وأربّت. كانت تقول في بادئ الأمر: عجّلي. ثم إنها لانت أكثر وأسندت جسمها إلى ركبتي. وأردفت: إنه شعور رائع. يذكرني بما كانت تقوم به أمي. لا ليست أمي. ربما جدتي. تناولت سيجارة أخرى. وراحت تدندن لحناً قصيراً.

سألتها: ما هذه الأغنية؟ بدت لي فاحشة. إنها من الأغاني التي يعتبر أبونا سماعها خطيئة. ناهيك عن خطيئة الغناء.

واصلت دندنتها. قالت: عاودتني أغنية. كنت ألفتها. أنت من أحياها وأودعها رأسي.

عزيزي الله،

ظهر والد السيد ـــــ هذا المساء. إنه رجل قصير وضئيل وأصلع بنظارتين ذهبيتين. يتنحنح كثيراً، وكل ما يقوله بمثابة إعلان يتطلب تمهيداً. يتكلم ورأسه مائل.

مضى في حديثه بلا لف أو دوران.

قال وهو يصعد الدرج: لم يهدأ لك بال حتى جلبتها إلى منزلك، أليس كذلك؟

لم يقل السيد ـــــ شيئاً. رنا بنظره نحو صف أشجار السياج والبئر. واستقر ناظريه على أعلى بيت هاربو وصوفيا.

سألته: ألن تجلس؟ دفعت الكرسي نحوه. ما رأيك بكوب من الماء البارد؟

سمعت عبر النافذة صوت شوغ وهي تدندن وتدندن، تتمرن على أغنيتها القصيرة. تسللتُ عائدة إلى الغرفة وأغلقت النافذة.

قال السيد العجوز ـــــ للسيد ـــــ: ما المميز في هذه الشوغ إفري على أي حال. إنها سوداء مثل القطران، شعرها مجعد. قدماها مثل عصا البيسبول.

لم يتفوه السيد ـــــ بحرف. بصقتُ في كوب السيد العجوز ـــــ.

قال السيد العجوز ـــــ: لماذا؟ ليست نظيفة حتى. سمعت أنها مصابة بذلك المرض النسائي الشائن.

حركت البصقة بإصبعي. فكرت بالكأس الأملس، تساءلت كيف لي أن أطحنه. لكني لم أشعر بالغضب نهائياً. كنت مهتمة بما يجري فقط.

أدار السيد ـــــ رأسه ببطء، وراقب والده وهو يشرب. ثم قال بأسى عميق: لا يمكنك أن تفهم. أنا أحب شوغ إفري. لطالما أحببتها، وسأظل أحبها على الدوام. كان عليّ أن أتزوجها حين كانت الفرصة متاحة.

قال السيد العجوز ـــــ: أجل. وتبدد حياتك. (حينها شخر السيد ـــــ) وتبدد عليها من مالي. تنحنح السيد ـــــ العجوز. لا أحد يعرف على وجه التحديد من يكون والدها.

قال السيد ـــــ: لا يهمني.

وما زالت أمها تغسل ملابس البيض القذرة. كما أن جميع أطفالها من آباء مختلفين. إنه لأمر تافه ومحير للغاية.

قال السيد ـــــ: حسناً، وأدار وجهه بالكامل نحو والده، جميع أطفال شوغ إفري من أب واحد. أقسم على ذلك.

تنحنح السيد العجوز ـــــ حسناً، هذا بيتي. هذه أرضي. ابنك هاربو يقطن أحد بيوتي، على أرضي. أنا من يجزّ الأعشاب الضارة حين تغزوها. أنا من يحرق القمامة حين تغمرها. نهض ليمضي. ناولني كوب الماء. في المرة المقبلة سأضع قليلاً من بول شوغ إفري في كأسه. وسأرى كيف سيحبه.

قال: سيلي، إنني أتعاطف معك. لا توجد الكثير من النسوة اللائي يسمحن لأزواجهن باستضافة عاهراتهم في منازلهن.

لكنه لم يكن يوجه حديثه إليّ بل إلى السيد ـــــ.

نظر السيد ـــــ نحوي، والتقت نظراتنا. لم نشعر يوماً بالقرب كما كنا عليه في تلك اللحظة.

قال: أعطِ والدي قبعته يا سيلي.

وفعلت. لم يتزحزح السيد ـــــ عن كرسيه قرب السياج. وقفت عند الباب. راقبنا معاً السيد العجوز ـــــ وهو يتنحنح ويتنحنح نازلاً الطريق نحو بيته.

كان الزائر التالي هو شقيقه توبايس. كان بديناً وطويلاً، أشبه بدب أصفر كبير. كان السيد ـــــ ضئيلاً مثل والده، شقيقه أطول منه بكثير.

سألني مبتسماً: أين هي؟ أين الملكة «هني بي»؟ أحضرت شيئاً لها. وضع صندوقاً صغيراً من الشكولاته على الدرابزين.

قلت: إنها نائمة. لم تنم جيداً ليلة أمس.

قال: كيف هي أحوالك يا ألبرت، وجرّ كرسياً. مرر يده على شعره الأسود الحريري وحاول التأكد من عدم دخول بعوضة في أنفه. مسح يده بسرواله. ومسد ثنياته.

قال: سمعت أن شوغ إفري هنا. منذ متى تستضيفها؟

قال السيد ـــــ: منذ عدة أشهر.

قال توبايس: تباً، سمعت أنها كانت تحتضر، وهذا يؤكد، ضرورة عدم تصديق كل ما تسمعه، أليس كذلك. مسد شاربيه، ومرر لسانه على شفتيه.

قال: ما الذي تتقنين عمله يا آنسة[8] سيلي؟

قلت: ليس الكثير.

أنا وصوفيا نشبّك لحافاً آخر معاً. أنهيت قرابة خمسة مربعات، فرشته على الطاولة مستخدمة ركبتي. سلتي هنا على الأرض مليئة بالقصاصات.

قال: مشغولة دائماً. أتمنى لو أن مارغريت كانت مثلك. لكانت وفرت عليّ بعض المال.

توبايس ووالده دائماً ما يتحدثان عن المال كما لو أنه ما زال بحوزتهما الكثير منه. باع السيد العجوز ـــــ الكثير مما يملك ولهذا لم يبق سوى المنازل والحقول. حقلي وحقل هاربو ينتجان أكثر من باقي الحقول.

أشبك مربعاً قماشياً. وأنظر إلى الألوان.

ثم سمعت صوت كرسي توبايس يقع إلى الخلف وهو يقول: شوغ.

---

8 - تستخدم كلمة «آنسة» أحياناً في جنوب أميركا لمخاطبة النساء، بغض النظر عن حالتهن الاجتماعية. (المترجمة).

شوغ نصف مريضة نصف متعافية. نصف المسافة بين الخير والشر، أيضاً. تُظهر لي وللسيد ـــــ الآن الجانب الطيب منها. لكن جانبها الشرير يسودها كلياً اليوم؟ ابتسمت، مثل موس الحلاقة المفتوح. قالت: حسناً، حسناً، انظروا من زارنا اليوم.

كانت ترتدي قميصاً نسائياً قصيراً صنعته لها بنفسي ولا شيء آخر. بدت كما لو أنها في العاشرة بشعرها المضفور على شكل جدائل صغيرة. كانت نحيلة مثل الفاصولياء، ووجهها مليء بالأعين.

نظرت أنا والسيد ـــــ نحوها. وتحرك كلانا لمساعدتها على الجلوس. لم تنظر نحوه. جرت كرسياً وجلست إلى جواري.

انتقت عشوائياً قصاصة قماشية من السلة. أمسكتها ورفعتها باتجاه الضوء. قالت: كيف تخيطين هذا الشيء اللعين؟

ناولتها المربع الذي أخيطه، وبدأت مربعاً آخر. قامت بخياطة غرز مائلة، وذكرتني باللحن الصغير غير المنتظم الذي تغنيه.

قلت: هذا جيد حقاً، كمحاولة أولى. إنه بالفعل جميل ومدهش. نظرت نحوي وشخرت. قالت: كل شيء أقوم به جميل ومدهش بالنسبة لك يا آنسة سيلي. هذا لأنك تفتقرين إلى الذوق الرفيع. ضحكتُ. وطأطأتُ رأسي.

قال توبايس: لديها أكثر مما لدى مارغريت من الكراكيب. لو أخذت مارغريت الإبرة لخاطت فتحتي أنفك معاً.

قالت: النساء لسن متشابهات. صدّق أو لا تصدّق.

قال توبايس: آه، أنا أصدّق. ولكنني لا أستطيع إثبات ذلك للعالم.

فكّرت بالعالم للمرة الأولى.

وما علاقة العالم بهذا.

ثم رأيت نفسي جالسة بين شوغ إفري والسيد ـــــ أصنع لحافاً. نحن الثلاثة في مواجهة توبايس وصندوق الشوكولاته المغطى بمخلفات الذباب. شعرت بالرضا، للمرة الأولى في حياتي.

عزيزي الله،

نعمل أنا وصوفيا على صنع لحاف. نشرناه على الشرفة. تبرعت شوغ إفري بفستانها الأصفر القديم لنستخدمه كقصاصات، وأنا أشتغل على قطعة منه بين الحين والآخر. إنه موديل جميل معروف بـ «سيستر تشويس»[9] إن خلصت إلى لحاف مثالي، فإني سأهبه لها، إن لم يكن كذلك، فسأحتفظ به. أريده لنفسي، كرمى للقصاصات الصفراء الصغيرة، التي تبدو مثل النجوم. كان السيد ـــــ وشوغ يتمشيان أعلى الطريق إلى صندوق البريد. كان البيت هادئاً، يتخلله طنين الذباب يترنح هنا وهناك، ويغط على الطعام ويستمتع بالحر. طنّ بما يكفي لكي أشعر بالنعاس.

بدت صوفيا مشغولة البال، إلا أنها لم تدرك تماماً بماذا. انكبت على الطاولة، تخيط لفترة وجيزة، ثم أسندت ظهرها على كرسيها ونظرت إلى الفناء. وضعت إبرتها، وقالت: لماذا يأكل الناس يا آنسة سيلي، أخبريني لماذا.

قلت: ليواصلوا الحياة. هل من سبب آخر؟ بالطبع هناك أناس يأكلون لأن مذاق الطعام لذيذ. البعض نهمون. يحبون الشعور بأن فمهم يعمل.

سألت: هل هذه هي كل الأسباب التي تستطيعين التفكير فيها؟

قلت: حسناً، أحياناً قد يكون بسبب نقص التغذية.

فكرتْ وقالت: لا يعاني من نقص التغذية.

سألتها: من هو؟

قالت: هاربو.

---

9 - خيار الأخوات. (المترجمة).

هاربو؟

أكله يزداد كل يوم.

ربما لديه دودة شريطية؟

قطبت حاجبيها. قالت: كلا. لا أعتقد أنها الدودة الشريطية، فهي تجعلك تشعرين بالجوع. هاربو يأكل حتى عندما لا يكون جائعاً.

يجبر نفسه على الأكل؟ من الصعب تصديق هذا، أحياناً تسمعين أشياء جديدة كل يوم. لست أنا، كما تعرفين، ولكن بعض الناس يقولون ذلك.

أكل ليلة البارحة صينية كاملة من البسكويت لوحده.

قلت: لا.

نعم فعل ذلك. وتناول كوبين كبيرين من الحليب الرائب معها. كان هذا بعد فراغه من العشاء. كنت أحمّم الأولاد، وأجهزهم للنوم. كان من المفترض أن يغسل الصحون. عوضاً عن غسلها، نظّفها بفمه.

حسناً ربما كان جائعاً جداً. تقومان بأعمال شاقة.

قالت: لا نقوم بأعمال شاقة إلى هذا الحد. وصباح اليوم، على الفطور، اللعنة لقد أتى على ست بيضات على الأرجح. بعد التهام كل هذا الطعام يبدو متوعكاً لا يقوى على المشي. عندما ذهبنا إلى الحقل اعتقدت أنه سيقع مغشياً عليه.

إن قالت صوفيا اللعنة فثمة خطب ما. قلت: ربما لا يرغب بجلي الأطباق. والده لم يغسل صحناً واحداً طيلة حياته.

قالت: أهذا ما تعتقدينه؟ يبدو مغرماً جداً بغسيلها. في الحقيقة، إنه يحب ذلك الجزء من الأعمال المنزلية أكثر مني بأشواط. أفضّلُ أن أخرج إلى الحقول أو ألهو مع الحيوانات. حتى تقطيع الأخشاب. لكنه يحب الطهي والتنظيف والقيام بالأعمال الصغيرة حول المنزل.

قلت: إنه بالتأكيد طاهٍ جيد. من المفاجئ معرفته شيئاً عن الطبخ. لم يتعدَ طهيه حين كان يعيش معنا سلق بيضة واحدة.

قالت: أراهن أنه يرغب بذلك. يبدو الموضوع طبيعياً جداً بالنسبة إليه. لكن السيد ـــــ . تعرفين كيف هو.

قلت: إنه جيد.

سألتني صوفيا: هل أنتِ راضية عن نفسك يا آنسة سيلي؟

أقصد، إنه جيد في بعض الأمور، وليس كذلك في أمور أخرى.

قالت: آه، على أي حال، راقبي أكله حين يأتي إلى هنا.

راقبت ما يأكله. ومنذ اللحظة الأولى، أمعنت النظر به، وهو يصعد الدرج. ما زال نحيلاً، ربما حجمه نصف حجم صوفيا، إلا أن كرشاً صغيراً برز تحت سرواله الواسع.

قال: ماذا لديك للأكل يا آنسة سيلي؟ وهو يتجه مباشرة إلى السخان ونحو قطعة من الدجاج المقلي، ثم إلى الخزانة ليجلب قطعة من فطيرة التوت الأسود. وقف إلى جانب الطاولة ومضغ الطعام، ومضغ. سألني: هل لديكِ حليباً محلى؟

قلت: لدي لبن خاثر.

قال: حسناً، أحبه. وأخرجت له القليل من اللبن.

قلت: يبدو أن صوفيا لا تطعمك.

سألني وفمه مليء بالطعام: لماذا تقولين ذلك؟

لم يمضِ وقت طويل على الغداء وها أنت جائع مجدداً.

لم يقل شيئاً. أكل.

قلت: بالطبع، موعد العشاء ليس بعيداً جداً أيضاً.

قرابة ثلاث أربع ساعات.

فتش في الأدراج بحثاً عن ملعقة ليأكل بها اللبن. رأى شريحة من خبز الذرة على الرف الموجود خلف الموقد، اختطفها وفتتها في الكأس.

عدنا مجدداً إلى الشرفة ووضع قدميه على السياج. تناول اللبن وخبز الذرة والكأس قريباً من أنفه. ذكّرني بالخنزير فوق معلفه.

قلت وأنا أصغي لجرشه الطعام: يبدو الأكل شهياً لك هذه الأيام ها.

لم يقل شيئاً، أكل.

سرحت بنظري نحو الفناء. رأيت صوفيا وهي تجر سلماً ثم تسنده على المنزل. كانت ترتدي سروالاً قديماً لهاربو. وربطت رأسها بعصبة. تسلقت السلم وصعدت إلى السطح، وبدأت بطرق المسامير. وارتد صوت الطرق في الفناء كصوت إطلاق نار.

كان هاربو يأكل، ويراقبها.

ثم تجشأ. وقال، المعذرة يا آنسة سيلي. وأعاد الكأس والملعقة إلى المطبخ. خرج وقال وداعاً.

مهما يحدث. ومهما سيحدث. ومهما قيل أو حصل، فإن هاربو لن يتوقف عن الأكل. الطعام يشغل باله صباحاً وظهراً وعشيةً. نما كرشه واتسع، بينما باقي جسده على ما هو عليه، بدا أشبه بحامل.

سألنا: متى موعد العشاء؟

لم يقل هاربو شيئاً. ومد يده ليأخذ فطيرة أخرى.

عزيزي الله،

سيقضي هاربو عطلة نهاية الأسبوع معنا. ففي ليلة الجمعة وبعد أن خلد السيد ـــــ وشوغ وأنا إلى النوم، تناهى إلى سمعي صوت بكاء. كان هاربو يجلس على الدرج، يبكي يكاد قلبه أن ينفطر. أوه بووو هووو. واضعاً رأسه بين يديه، يسيل الدمع والمخاط على ذقنه. أعطيته منديلاً. امتخط ونظف أنفه، نظر نحوي بعينين مغمضتين مثل قبضتين.

سألته: ماذا حدث لعينيك؟

بحث عن قصة يختلقها، ثم آثر قول الحقيقة.

قال: صوفيا.

سألته: هل ما زلت تضايق صوفيا؟

قال: هي زوجتي.

قلت: هذا لا يعطيك الحق بمضايقتها طيلة الوقت. صوفيا تحبك، إنها زوجة صالحة معك ومع الأطفال، ومظهرها جميل. ومجدّة في العمل، وتخاف الله *ونظيفة*. لا أعرف ماذا تريد أكثر من ذلك.

زفر هاربو.

أريدها أن تفعل ما أطلبه منها، كما تنفذين أنت ما يطلبه أبي.

قلت: آه يا ربي.

قال: عندما يطلب أبي منك شيئاً، تنفذين ما يقوله. وعندما يطلب منك ألا تفعلي، تطيعين. إن لم تنصاعي لما يطلبه منك، يضربك.

قلت: أحياناً يضربني في كل الأحوال، سواء نفذت أوامره أم لم أفعل.

قال هاربو: هذا صحيح. ولكن هذا لا ينطبق على صوفيا. فهي تفعل

ما يحلو لها، ولا تكترث بي على الإطلاق. حاولت ضربها، فزرّقت عيني. أوه بووو هووو. أوه بووو هووو.

مضيت أستعيد منديلي. وددت أن أدفعه وعينيه المزرقتين. فكرت بصوفيا. أبهجني تذكرها. تقول: اعتدت لعبة الصيد بالقوس والنشاب.

قلت: بعض النساء لا يمكن ضربهن. صوفيا إحداهن. إضافة إلى أنها تحبك. قد تكون سعيدة بتنفيذ معظم ما تطلبه إن سألتها إياه بأسلوب صحيح. ليست لئيمة ولا خبيثة. ولا تضمر أي ضغينة.

قلت وأنا أهزّه: هاربو، صوفيا *تحبك*، وأنت *تحبها*.

نظر نحوي بقدر ما أتيح له فتح عينيه المنفوختين الصغيرتين.

قال: نعم يا سيدتي؟

السيد ـــــ تزوجني لأعتني بأولاده.

أنا تزوجته لأن أبي أرغمني على ذلك. أنا لا أحب السيد ـــــ وهو لا يحبني.

قال: لكنك زوجته، تماماً كما أن صوفيا زوجتي. من المفترض أن تكون الزوجة مطيعة.

سألته: هل تطيع شوغ إفري السيد ـــــ؟ إنها السيدة التي رغب بالزواج منها. إنها تناديه باسمه ألبرت، ولا تتردد في القول له إن رائحة سرواله نتنة. ونظراً لضآلة حجمه، فإنها ستجلس فوقه حين تستعيد وزنها إن هو حاول مضايقتها.

لماذا ذكرت الوزن. عاد هاربو للبكاء مجدداً.

ثم بدأ يتقيأ. استند على حافة الدرج وتقيأ وتقيأ. يبدو أنه أخرج كل الفطائر التي أكلها خلال السنة الأخيرة. وعندما فرغ وضعته في السرير جوار غرفة شوغ الصغيرة. غطّ سريعاً في النوم.

عزيزي الله،

قمت بزيارة صوفيا، لا تزال تعمل على السطح.

السطح اللعين يدلف. قالت

ذهبتُ إلى كومة الحطب لصنع الألواح. وضعت قطعة كبيرة مربعة من الخشب على لوح التقطيع وقطّعت، وقطّعت، وصنعت ألواحاً كبيرة مسطحة. رمت البلطة وسألتني إن كنت أرغب بالقليل من عصير الليمون.

أمعنت النظر فيها. ما ظهر خدش عليها، باستثناء كدمة على معصمها.

سألتها: كيف هي أحوالك مع هاربو؟

قالت: حسناً، توقف عن التهام الطعام. ربما هي استراحة.

قلت: ربما يحاول مضاهاتك حجماً.

أخذت نفساً عميقاً. قالت: توقعت ذلك. وزفرت ببطء شديد.

جاء جميع الأطفال راكضين، ماما، ماما، نريد القليل من عصير الليمون. سكبت خمس كؤوس لهم، وكأسين لنا. جلسنا على الأرجوحة الخشبية التي صنعتها الصيف الماضي وعلقتها على الحافة المظللة للشرفة.

قالت: تعبتُ من هاربو. إرغامي على طاعته هو كل ما يشغل باله. هو لا يريد زوجة، بل كلبة.

قلت: إنه زوجك. عليكِ أن تبقي معه، وإلا، ما الذي ستفعلينه؟

قالت: زوج أختي استدعي للتجنيد.

لا أطفال لديهما، وأوديسا تحب الأطفال. تركها في مزرعة صغيرة. قد أذهب أنا وأطفالي وأمكث معها لفترة.

أفكر بأختي نيتي. تجتاحني بحدة كما الألم. تواجد من يتيح الهرب إليه. أمر جميل بأكثر مما أحتمل.

تابعت صوفيا وهي عابسة تنظر إلى كأسها.

قالت: ما عدت أطيق مقاسمته السرير. كان عقلي يطير ما إن يلمسني. الآن كل ما أرغبه أن يدعني وشأني حين يلمسني. وما إن يعتليني حتى أفكر بأن هذا الموقع ما يريد أن يكون عليه دائماً. أخذتْ رشفة من عصير الليمون. واستفاضت: لطالما أحببت ذلك الجزء. اعتدت أن أطارده من الحقل إلى البيت. كنت أستثار بمجرد رؤيته يضع الأولاد في أسرّتهم. ولكني لم أعد كذلك. الآن لا يفارقني التعب. ولا رغبة لدي.

قلت: الآن، الآن، تناسي الأمر قليلاً، ربما تعاودك الرغبة. ما قلت ذلك إلا لمجرد التفوه بشيء. لا أعرف شيئاً عن الرغبة. يعتليني السيد ـــــ بصمت، ينهي عمله، وفي غضون عشر دقائق نغطّ في النوم. أُستثار فقط عندما أفكر بشوغ. هذا أشبه بالركض في الطريق نفسها جيئة وذهاباً.

قالت: أتعرفين ما هو الأسوأ؟ الأسوأ أنه لا يلاحظ. يعتليني ويمتّع نفسه كما كان يفعل دائماً. بصرف النظر عما أفكر فيه. ومهما كانت عليه مشاعري. يهتم لأمره فقط. لا يبدو أن المشاعر تندرج ضمن حساباته. مجرد التفكير بأنه قادر على القيام بذلك يدفعني لقتله.

نظرنا إلى الطريق المؤدية إلى البيت، رأينا شوغ والسيد ـــــ جالسين على الدرج. اقترب منها والتقط شيئاً عالقاً في شعرها.

قالت صوفيا: لا أعرف. قد لا أذهب. لا زلت في أعماقي أحب هاربو، لكن إنه يتعبني فعلاً. تثاءبت. ضحكت. أحتاج إجازة. ثم عادت إلى كومة الحطب، وبدأت بصنع المزيد من الألواح لتثبيتها على السطح.

عزيزي الله،

صوفيا على حق بما يخص شقيقاتها. جميعهن ضخمات وقويات ويتمتعن بصحة وافرة، يبدون مثل المقاتلات الأمازونيات. جئن في الصباح الباكر لأحد الأيام على متن عربتين لأخذ صوفيا. لم يكن عندها الكثير لأخذه، ملابسها وملابس الأولاد، وفرشة صنعتها في الشتاء الماضي، ومرآة وكرسي هزاز. والأولاد.

جلس هاربو على الدرج وكأن الأمر لا يعنيه. كان يصنع شبكة لصيد السمك. ينظر إلى الجدول من وقت لآخر ويصفر لحن أغنية بسيطة. لكن الأغنية ما كانت لتضاهي أبداً الطريقة التي يصفر فيها عادة. بدا صفيره البسيط مثل لحنٍ ضلَّ طريقه في إناء، والإناء في قعر الجدول.

قررت في نهاية المطاف أن أعطي صوفيا اللحاف. لا أعرف كيف سيكون الجو في منزل شقيقتها، لكنه أصبح بارداً للغاية منذ زمن.

سألتُ هاربو: هل ستدعها ترحل؟

نظر وكأن من هو أحمق يمكن له طرح هذا السؤال. تأفف، قال: لقد قررتِ الرحيل. كيف بوسعي إيقافها؟ دعيها ترحل. ونظر إلى عربات شقيقتها.

جلسنا على الدرج معاً. كل ما تناهى إلى سمعنا من الداخل كان مجرد خطوات، وخطوات، وخطوات أقدام سمينة وقوية. كانت شقيقات صوفيا يتحركن معاً في الوقت ذاته ما جعل المنزل يرتج.

سألت البنت الأكبر عمراً: إلى أين سنذهب؟

قالت صوفيا: سنذهب لزيارة الخالة أوديسا.

سألت الفتاة: هل بابا قادم معنا؟

قالت صوفيا: كلا.

سألت بنت أخرى: لماذا لا يأتي بابا معنا؟

بابا يحتاج للبقاء هنا والعناية بالمنزل. يعتني بديلزي وكوكو وبو.

وقف الطفل أمام والده وتمعن فيه جيداً.

قال: ألن تأتي؟

قال هاربو: كلا.

ذهب الطفل وهمس للطفلة التي كانت تحبو على الأرض، بابا لن يأتي معنا، ما رأيكِ بذلك؟

جلست الطفلة بجمود، تلوّت بشدة، وضرطت.

ضحكنا كلنا، ضحكنا ضحكة حزينة. حملها هاربو، وضع إصبعه في الحفاض، وجهزها ليغير حفاضها.

قالت صوفيا: لا أعتقد أنها مبللة، مجرد غازات.

ولكنه غيّر حفاضها بكل الأحوال. كان هو والطفلة في زاوية الشرفة الصغيرة بعيداً عن الضوضاء. استخدم الحفاض القديم الجاف ليمسح عينيه.

أعطى الطفلة إلى صوفيا في النهاية، فعلقتها أعلى وركها، علقت كيساً من الحفاضات والطعام على كتفها، وجمعت الصغار معاً، وطلبت منهم وداع أبيهم. ثم عانقتني واعتصرتني قدر استطاعتها وهي تحمل الطفلة وكل ما معها، ثم صعدت إلى العربة. وضعت كل أخت منهن طفلاً بين ركبتيها، باستثناء الأختين اللتين قادتا البغال، وكن جميعاً صامتات وهن يغادرن فناء صوفيا وهاربو ويخلفن المنزل وراءهن.

عزيزي الله،

رحلت صوفيا لستة أشهر. بدا هاربو رجلاً آخر. اعتاد تمضية جلّ وقته في البيت. الآن صار يمضي كل أوقاته في الخارج.

سألته: ما الذي يجري. قال: تعلمت أشياء جديدة يا آنسة سيلي.

تعلّم شيئاً واحداً وهو أنه لطيف. وتبين له أنه لمّاح أيضاً. إضافة لتمكّنه من جني المال. لم يقل من هو المعلم.

لم أسمع مثل هذا الطرق منذ غادرت صوفيا، وأمسى في كل مساء وبعد الانتهاء من العمل في الحقل، يطرق ويدق المسامير. كان صديقه سوين يأتي لمساعدته أحياناً. يعملان الليل بطوله. كان يتعين على السيد ـــــ النزول إلى هناك ليطلب منهما إيقاف الضجيج.

سألته: ما الذي تبنيه؟

قال: حانة.

في هذا المكان البعيد؟

ليس أبعد من أي حانة أخرى.

لا أعرف شيئاً عن الحانات الأخرى، أعرف فقط حانة «لاكي ستار».

قال هاربو: هذا النوع من الحانات من المفروض أن يكون في الغابة. لن ينزعج أحد من الصوت العالي. والرقص. والمشاجرات.

وأضاف سوين: القتل.

قال هاربو: والشرطة لا تعرف أين تبحث.

سألته: ماذا ستقول صوفيا عما فعلته بمنزلها؟ لنفرض أنها عادت مع الأولاد. أين سينامون.

قال هاربو وهو يقوم بتسمير الألواح معاً لتشكّل منضدة: لن يعودوا.
سألته: وما أدراك؟
لم يجبني. واصل العمل، منجزاً كل شيء بمساعدة سوين.

عزيزي الله،

في الأسبوع الأول، لم يأتِ أحد. في الأسبوع الثاني، أتى ثلاثة أو أربعة أشخاص. في الأسبوع الثالث، جاء شخص واحد. جلس هاربو إلى المنضدة الصغيرة يستمع إلى سوين وهو ينقر موسيقاه.

أحضر مشروبات باردة، ومشاوي، وسجق، وخزّن الخبز. وضع قرب البيت لافتة مكتوب عليها «حانة هاربو» ولافتة أخرى ثبّتها على الطريق. ولم يأت أحد.

سلكت الطريق إلى الفناء، وقفت هناك، ونظرت إلى داخل الحانة. نظر هاربو نحوي ولوّح بيده.

قال: تفضلي يا آنسة سيلي.

قلت: كلا، شكراً لك.

يأتي السيد ـــــ أحياناً، يحتسي مشروباً بارداً، ويستمع إلى سوين. كذلك تفعل بين الحين والآخر، الآنسة شوغ. لا تزال ترتدي الفساتين الصغيرة، وأضفر شعرها جدائل صغيرة، غير أنه أصبح أطول الآن وتقول إنه قريباً سيحتاج إلى تمليس.

حيّرت شوغ هاربو. وأحد أسباب ذلك قولها كل ما يتبادر إلى ذهنها، من دون أن تراعي الأدب. أراه أحياناً يحدق فيها بتمعن حين يحسب أنني لا أراه.

قال في أحد الأيام، لا أحد يتكبد مشقة القدوم إلى هنا ليستمع إلى سوين. أتساءل هل بإمكاني دعوة الملكة «هني بي»؟

قلت: لا أعرف. لقد تحسنت صحتها كثيراً الآن، ودائماً تدندن أو تغني شيئاً ما. ربما ستسعد إن عادت للعمل. لماذا لا تسألها؟

قالت شوغ إن حانته لا تقارن بالأماكن التي اعتادتها، غير أنها قد تبارك المكان بأغنية.

طلب هاربو وسوين من السيد ـــ إعطاءهما بعض إعلانات شوغ القديمة من صندوقه. قاما بشطب اسم «لاكي ستار» الموجود على طريق كولمان، ووضعا اسم حانة هاربو الموجودة في مزرعة ـــ علقا الإعلانات على الأشجار عند مفترق الطرق الموصل إلى طريقنا والبلدة. في ليلة السبت الأولى احتشد الكثير من الناس بما فاض عن المكان.

شوغ، شوغ حبيبتي، اعتقدنا أنك ميتة.

خمسة من بين كل عشرة أشخاص ألقوا التحية على شوغ قالوا ذلك.

وجئنا للتأكد من أنك أنتِ. وكانت تقابل ما يقولونه ببسمة كبيرة. أخيراً سأرى شوغ إفري وهي تغني. يجب أن أشاهدها وأسمعها.

لم يرغب السيد ـــ بمجيئي. قال: الزوجات لا يذهبن إلى هكذا أمكنة.

قالت شوغ بينما كنت أسرّح شعرها ليصبح أملس: نعم، لكن سيلي ستذهب. قالت: لنفرض أنني أصبت بوعكة صحية وأنا أغني. لنفرض أن فستاني تمزق؟ كانت ترتدي فستاناً ضيقاً أحمر وبدا الشريط المعلق على الكتفين مؤلفاً من خيطين فقط.

تأفف السيد ـــ وارتدى ملابسه. لا يمكن لزوجتي القيام بهذا. لا يمكن لزوجتي القيام بذلك. لا أقبل أن تذهب زوجتي... وواصل تأففه.

أنهت شوغ إفري حديثها بالقول: من الجيد أنني لست زوجتك اللعينة.

أسكتها. ونزلنا نحن الثلاثة إلى حانة هاربو. السيد ـــ وأنا جلسنا إلى الطاولة نفسها. شرب السيد ـــ الويسكي. وتناولت مشروباً بارداً.

في البداية غنت شوغ أغنية لمغنية اسمها بيسي سميث. قالت إنها تعرف بيسي. صديقة قديمة هي. الأغنية بعنوان «من الصعب العثور على

رجل طيب» «إيه جود مان إز هارد تو فايند». رنت بنظرها قليلاً نحو السيد ـــــ عندما غنت هذه الأغنية. ونظرتُ نحوه أيضاً. هذا الرجل الضئيل الذي تطغى عليه العجرفة. بدا أن كل ما يستطيع فعله هو البقاء على كرسيه. نظرت إلى شوغ أحسست بقلبي يتشنج. آلمني كثيراً، غطيته بيدي. وددت أن أتوارى تحت الطاولة، بسبب النظرات الفضولية. أكره مظهري، وطريقتي في اللبس. لا يوجد في خزانتي سوى الملابس التي أرتديها عند الذهاب إلى الكنيسة. والسيد ـــــ ينظر إلى بشرة شوغ السوداء المتألقة مرتدية فستانها الأحمر الضيق، وقدماها حشرتا بحذاء أنيق أحمر صغير. وشعرها يلمع متماوجاً.

قبل استيعابي ما حدث، تجمعت الدموع تحت ذقني.

وارتبكت.

إنه يعشق النظر إلى شوغ. وأنا أيضاً.

ولكن شوغ لا تحب النظر إلا إلى واحد منا. إليه.

أعرف أن الأمور تسير على هذا النحو. ولكن إن كان الأمر كذلك، لماذا يؤلمني قلبي كثيراً؟

تدلى رأسي لدرجة كاد يقترب فيها من كأسي.

ثم سمعت اسمي.

شوغ تقول سيلي. الآنسة سيلي. ونظرتُ إلى حيث هي واقفة.

قالت شوغ اسمي ثانية: الأغنية التي سأغنيها عنوانها «أغنية الآنسة سيلي». لأنها هي من ألهمتني إياها حين كنتُ مريضة.

بدأت بدندنتها قليلاً، كما تفعل في البيت. ثم غنت.

وكانت تحكي هذه الأغنية أيضاً عن رجل مجهول يسيء معاملتها. غير أنني لم أستمع لهذا الجزء. نظرت إليها ودندنت جزءاً من اللحن.

للمرة الأولى يصنع أحدهم شيئاً من أجلي ويسميه تيمناً بي.

عزيزي الله،

بعد زمن وجيز سيحين موعد رحيل شوغ. إنها تغني في عطلة نهاية كل أسبوع في حانة هاربو. وهو يجني الكثير من المال بسببها، وهي تجني البعض منه، إضافة إلى أنها أصبحت قوية وصلبة من جديد. في الليلة الأولى أو الثانية قدمت أغاني جيدة إلا أن صوتها كان ضعيفاً بعض الشيء، الآن بدأت تصدح بالغناء. يسمعها الناس الموجودون في الفناء من دون عناء. ثمة تناغم جيد بينها وبين سوين. هي تغني وهو يعزف. المكان جميل في حانة هاربو. هناك طاولات صغيرة في جميع أنحاء القاعة تعلوها شموع صنعتها بنفسي، ويوجد أيضاً الكثير من الطاولات الصغيرة خارجها، بمحاذاة الجدول. أنظر أحياناً إلى الطريق من منزلنا ويبدو أن سرباً من البق المضيء يغطي الطريق ومنزل صوفيا. وفي المساء لا تطيق شوغ صبراً حتى يحين موعد نزولها إلى الحانة.

قالت لي في أحد الأيام: حسناً يا آنسة سيلي، أزف موعد الرحيل.

سألتها: متى؟

قالت: مطلع الأسبوع المقبل. في شهر حزيران. إنه شهر جيد للانطلاق في العالم.

لم أقل شيئاً. انتابني الشعور نفسه الذي أحسست به عندما رحلت نيتي. اقتربت ووضعت يدها على كتفي.

قلت: إنه يضربني عندما لا تكونين هنا.

قالت: مَن، ألبرت؟

قلت: السيد ـــــ.

قالت: لا أصدق. هوت بقوة على المقعد إلى جواري، كما لو أنها سقطت.

سألتني: لماذا يضربك؟

لأنني سيلي ولستُ شوغ.

قالت: آه، يا آنسة سيلي، وطوقتني بذراعيها.

جلسنا على هذه الحال قرابة نصف ساعة. ثم قبلتني على الجزء المكشوف من كتفي ونهضت.

قالت: لن أرحل، حتى أتأكد من أن ألبرت سيكفّ تماماً عن ضربك.

عزيزي الله،

جميعنا يعرف الآن بأنها سترحل عما قريب، ينامان معاً في الليل. ليس في كل ليلة، بل في معظمها تقريباً، من الجمعة إلى الاثنين.

يتوجه إلى حانة هاربو ليشاهدها وهي تغني. ليمتّع ناظريه برؤيتها. ثم يعودان إلى المنزل في وقت متأخر. يضحكان ويتحدثان ويتنازعان حتى الصباح.

ثم يذهبان إلى السرير حتى يحين موعد تحضير نفسيهما للعمل من جديد.

حصل ذلك صدفةً في المرة الأولى. جرفتهما المشاعر فحسب. هذا ما قالته شوغ. هو لم يقل شيئاً.

سألتني: أصدقيني القول، هل تمانعين أن ينام ألبرت معي؟

أعتقد أنني لا أكترث مع من ينام ألبرت. لكنني لم أقل ذلك.

قلت: قد تحبلين مجدداً.

قالت، كلا، ليس بوجود الإسفنجة المانعة للحمل والأشياء الأخرى.

سألتها: ما زلتِ تحبينه.

قالت: أكنّ له ما يمكن اعتباره عاطفة. لو كنت سأتزوج من أحد يوماً لكان هو. لكنه ضعيف. لا يستطيع حزم أمره حول ما يريده. وبناء على الأمور التي تقولينها لي فهو متنمر. رغم ذلك هناك أشياء أحبها فيه. أحب رائحته. إنه ضئيل للغاية. إنه يجعلني أضحك.

سألتها: أتحبين أن تنامين معه؟

قالت: نعم يا سيلي، عليّ أن أعترف، أنا أحب ذلك وحسب. ألا تحبين ذلك؟

قلت: كلا، يمكن للسيد ـــــ أن يقول لك، لا أحب أنا أنام معه على الإطلاق. كيف طعم ذلك؟ يعتليك، يرفع ثوب نومك حول خصرك، ويقحمه. أتظاهر في أكثر الأحيان أنني غير موجودة. لم يعرف أبداً الفرق. لم يسألني أبداً عن شعوري، لا شيء. يقضي حاجته وحسب، يقذف، ويخلد إلى النوم.

بدأت تضحك. قالت: يقضي حاجته. يقضي حاجته. لماذا يا آنسة سيلي. تتحدثين كما لو أنه يبول عليكِ، ويقضي حاجته عليك كأنك دورة مياه.

قلت: هذا ما أشعر به.

توقفت عن الضحك.

سألتني: لمْ تستمتعي بالأمر أبداً؟ يا للغرابة. ولا حتى مع والد أطفالك؟

قلت: أبداً.

قالت: لماذا يا آنسة سيلي، أنت لا زلتِ عذراء.

سألتها: ماذا؟

قالت: اسمعي، في أسفل فرجك يوجد زر يصبح مثاراً أكثر وأكثر حين تفعلين ما تفعلينه مع أحدهم. يحمى ويحمى إلى أن يذوب. هذا هو الجزء اللذيذ. غير أن الأجزاء الأخرى لذيذة أيضاً. يحدث الكثير من المص، هنا وهناك. الكثير مما تتولاه الأصابع واللسان.

زر؟ الأصابع *واللسان*؟ وجهي متهيج بما يكفي ليذوب.

قالت: هنا، خذي هذه المرآة وانظري إلى الجزء السفلي منك، أراهن أنك لم تريه، هل رأيته؟

كلا.

وأراهن أنك لم تري الجزء السفلي من ألبرت أيضاً.

قلت: أتحسسه.

وقفت هناك والمرآة معي.

قالت: ماذا، هل أنت خجولة لدرجة لا تتجرئين فيها على النظر إلى نفسك؟ تبدين جذابة أيضاً. تتأنقين للذهاب إلى حانة هاربو، تتعطرين وكل شيء، لكنك تخافين من النظر إلى فرجك؟

قلت: تعالي معي عندما أنظر.

هرعنا إلى غرفتي مثل فتاتين لعوبتين.

قلت: احرسي أنتِ الباب.

قالت ضاحكة: حسناً. لا أحد قادم. الأمن مستتب.

استلقيت على ظهري في السرير ورفعت ثوبي. أنزلت سروالي. ثبت المرآة بين قدمي. آه. كل ذلك الشعر. ثم إن شفتي فرجي سوداوتان. وجوفه مثل وردة ندية.

قالت وهي واقفة على الباب: هو أجمل مما اعتقدتِ، أليس كذلك؟

قلت: إنه لي. أين الزر؟

قالت: فوق بالقرب من أعلاه. الجزء الذي يبرز قليلاً.

نظرت إليها ولمسته بإصبعي. سرت رعشة صغيرة في جسدي لا أكثر. كانت كافية لأشعر بأنه الزر الصحيح للمداعبة. ربما.

قالت: وأنت تنظرين انظري إلى نهديكِ أيضاً. رفعت ثوبي ونظرت إلى نهديّ. فكرت بطفلي يرضعانهما. تذكرت أيضاً الرعشة الصغيرة التي سرت فيّ حينها. أحياناً كانت رعشة كبيرة. أجمل ما في إنجاب الأطفال هو إرضاعهم.

قالت: ألبرت وهاربو قادمان. رفعت سروالي وأنزلت ثوبي. شعرت وكأننا نرتكب خطيئة.

قلت: لا يهمني إن كنتِ تنامين معه؟

صدقتني.

وأنا صدقت نفسي أيضاً.

ولكن عندما سمعتهما معاً كل ما استطعت فعله هو أن أسحب اللحاف ليغطي رأسي وداعبت زري وحلمتي والبكاء.

عزيزي الله،

في إحدى الليالي وبينما كانت شوغ تغني إحدى أغنياتها المثيرة، من كان ليدخل إلى حانة هاربو مختالاً سوى صوفيا.

كانت بصحبة رجل طويل وضخم بدا أشبه بملاكم محترف.

كانت كما عهدها دائماً صلبة ومعتدة بنفسها.

صرخت: آه يا آنسة سيلي. تسعدني رؤيتكِ مجدداً. تسعدني حتى رؤية السيد ـــــ. أمسكت بإحدى يديه. وأضافت: حتى لو كانت مصافحته واهنة بعض الشيء.

بدا سعيداً بالفعل لرؤيتها.

قال: تفضلي، وسحب كرسياً. احتسي شراباً بارداً.

قالت: أعطني قدحاً من ويسكي «وايت لايتنينغ».

سحب الملاكم المحترف كرسياً، وجلس عليها بشكل معاكس، وعانق صوفيا كما لو أنهما في المنزل.

أرى هاربو يعبر القاعة ومعه حبيبته الصغيرة ذات البشرة الصفراء. نظر إلى صوفيا كما لو أنها شبح.

قالت صوفيا: أقدم لكم هنري برودنكس. الجميع ينادونه باستر. صديق العائلة المقرّب.

قال: كيف حالكم جميعاً. ابتسم بدماثة بينما واصلنا الاستماع إلى الموسيقى. شوغ ترتدي فستاناً ذهبياً يظهر نهديها حتى الحلمتين تقريباً. الجميع يتمنى لو أن شيئاً ما يخرج من الفستان. إلا أنه كان متماسكاً.

قال باستر: يا رجل آه يا رجل. قسم الإطفاء لن يفي بالغرض. ليستدعي أحد ما الشرطة.

همس السيد ـــــ لصوفيا. أين أولادك؟

همست له، أولادي في المنزل، أين أولادك؟

لم يقل شيئاً.

الفتاتان حبلتا ورحلتا. بوب لا يخرج من السجن إلا ليعود إليه. لو لم يكن جده العم الملون للمأمور الذي يشبه بوب تماماً، لأعدم من دون محاكمة منذ زمن.

لا يمكنني التعبير عن النضارة التي بدت عليها صوفيا.

قلت لها على الطاولة بينما كانت شوغ تنهي أغنيتها: معظم النساء اللاتي أنجبن خمسة أولاد يبدين شاحبات. أما أنت فجاهزة لإنجاب خمسة آخرين.

قالت: آه، أصبح لدي ستة أولاد الآن يا آنسة سيلي.

ستة، صعقني ذلك.

هزت رأسها، ورنت نحو هاربو. الحياة لا تتوقف فقط لأنك تركتِ ديارك يا آنسة سيلي. أنت تعرفين ذلك.

حياتي توقفت عندما فارقتها، كما أعتقد. فكرت مجدداً. لقد توقفت مع السيد ـــــ لكنها بدأت من جديد مع شوغ.

جاءت شوغ وعانقت صوفيا.

قالت شوغ: يا صبية، يبدو أنك تستمتعين بوقتك، أليس كذلك؟

عندها لاحظت أن شوغ تتحدث وتتصرف أحياناً وكأنها رجل. يقول الرجال أشياء كهذه للنساء، يا صبية، يبدو أنك تستمتعين بوقتك. النساء دائماً يتحدثن عن الشعر والصحة. عدد الأطفال الأحياء والأموات، أو الأطفال الذين بزغت أسنانهم. وليس عن أن بعض النسوة اللواتي يعانقونهن يستمتعن بأوقاتهن.

تلتصق أعين الرجال بنهدي شوغ. أنا أثبت ناظري هناك أيضاً. أشعر بحلمتيَّ مشرئبتين تحت فستاني. وزري الصغير قد توقد أيضاً. شوغ، أقول في سري، يا صبية، يبدو أنك تستمتعين بوقتك، الله يعلم أنك تستمتعين.

سأل هاربو: ماذا تفعلين هنا؟

قالت صوفيا: جئت لأسمع شوغ إفري. لديك مكان جميل هنا يا هاربو. جالت بنظرها. أظهرت إعجابها بشيء هنا وآخر هناك.

قال هاربو: إنها لفضيحة، أم لخمسة أولاد تتسكع ليلاً في حانة.

ابتسمت عينا صوفيا. نظرت إليه من الأعلى إلى الأسفل.

منذ توقف عن حشو نفسه، اكتسب بعض الوزن، وجهه ورأسه وسائر جسده، بسبب شرب الخمر المنزلي وأكل المتبقي من المشاوي. أصبح الآن بحجمها تماماً.

قالت: تحتاج المرأة من وقت لآخر، لقليل من المرح.

قال: المرأة تحتاج أن تكون في المنزل.

قالت: هذا بيتي. رغم اعتقادي بأن المكان أصبح أفضل بعد أن تحول إلى حانة.

نظر هاربو إلى الملاكم المحترف. دفع الملاكم المحترف كرسيه نحو الخلف قليلاً، والتقط كأسه.

قال: لست هنا للعراك من أجل صوفيا. وظيفتي أن أحبها وأصحبها أين تشاء.

تنفس هاربو الصعداء.

قال: هيا نرقص.

ضحكت صوفيا. نهضت. وضعت كلتا يديها حول عنقه.

تنقلا بهدوء في أرجاء المكان.

حبيبة هاربو الصغيرة ذات البشرة الصفراء متجهمة، جلست هامدة

على المشرب. إنها فتاة لطيفة، ودودة وكل شيء، لكنها مثلي، تنفذ كل ما يقوله لها هاربو.

أطلق عليها لقباً صغيراً أيضاً، أسماها سكويك[10].

بعد فترة وجيزة استجمعت سكويك شجاعتها محاولة قطع الرقصة.

حاول هاربو أن يدير صوفيا كي لا تراها. لكن سكويك تابعت النقر بإلحاح على كتفه.

توقف هو وصوفيا عن الرقص. كانا على مبعدة قدمين تقريباً عن طاولتنا.

قالت شوغ: أوه، وأومأت بذقنها، هناك ما هو على وشك الانفجار.

قالت سكويك بصوتها الفتي الناعم: من هذه المرأة؟

قال هاربو: تعرفين من هي.

التفتت سكويك نحو صوفيا. قالت: من الأفضل أن تتركيه وشأنه.

قالت صوفيا: لا مانع لدي. استدارت لتهمّ بالمغادرة.

جذبها هاربو من ذراعها. قال: ما من ضرورة في أن تذهبي إلى أي مكان. هذا بيتك، بحق الجحيم.

قالت سكويك: ماذا تقصد، بأن هذا بيتها؟ لقد هجرتك. وتركتِ المنزل. قالت موجهة حديثها إلى صوفيا: لقد انتهى الأمر الآن.

قالت صوفيا: لا مانع لدي. حاولت التخلص من قبضة هاربو. أمسكها بقوة.

قال هاربو: اسمعيني يا سكويك، ألا يستطيع الرجل الرقص مع زوجته؟

قالت سكويك: إن كان رجلي أنا فلا. هل تسمعين هذا أيتها العاهرة، موجهة حديثها إلى صوفيا.

---

10 – Squeak صرير.(المترجمة).

بدأت صوفيا تتململ من سكويك، يمكنني معرفة ذلك من أذنيها. فقد تراجعتا قليلاً إلى الخلف. لكنها قالت مجدداً، كنوع من إنهاء الجدال: هيا، لا مانع لدي.

صفعتها سكويك على رأسها.

لماذا فعلت ذلك. صوفيا لا تتدخل حتى في الأمور النسائية التافهة مثل الصفعات. جهزت قبضة يدها، رفعتها للخلف وهوت بها على سكويك، وخلعت اثنين من أسنانها الجانبية. ارتطمت سكويك بالأرض. كان أحد أسنانها معلقاً بشفتها، الآخر يطفو على سطح كأس شرابي البارد.

ثم بدأت سكويك تخبط ساق هاربو بحذائها.

صرختْ: عليك إخراج هذه العاهرة من هنا، كان الدم واللعاب يسيل على ذقنها.

وقف هاربو وصوفيا متجاورين ينظران إلى الأسفل نحو سكويك، لكني لا أعتقد أنهما سمعا ما قالته. كان هاربو لا يزال ممسكاً بذراع صوفيا. مرت ربما نصف دقيقة. أخيراً حرر ذراعها، انحنى واحتضن سكويك المسكينة بذراعيه. همهم لها، وكأنها طفلة.

اقتربت صوفيا وأخذت الملاكم المحترف. خرجا من الباب ولم ينظرا وراءهما. ثم سمعنا صوت هدير محرك سيارة.

عزيزي الله،

هاربو حزين. يمسح المنضدة، يشعل سيجارة، ينظر خارجاً، يذرع المكان جيئة وذهاباً. سكويك الصغيرة تدور حوله محاولة لفت انتباهه. تقول: حبيبي هذا، حبيبي ذاك. يحدّق هاربو بها، وينفث الدخان.

جاءت سكويك إلى الزاوية حيث نجلس أنا والسيد ـــــ. أصبح لديها سنين ذهبيين على جانب فمها، وهي متجهمة طيلة الوقت. شرعت بالبكاء الآن. قالت: آنسة سيلي، ما الذي حدث لهاربو؟

قلت: صوفيا في السجن.

في السجن. بدت وكأنني قلت إن صوفيا على سطح القمر.

سألت: لماذا في السجن؟

قلت: ازدراء زوجة العمدة.

سحبت سكويك كرسياً. بدت غاضبة.

سألتها: ما اسمك الحقيقي؟ قالت: ماري أغنيس.

قلت: اطلبي من هاربو أن يناديكِ باسمك الحقيقي. حينها فقط سيراكِ حتى عندما يكون مهموماً.

نظرتْ نحوي بارتباك. صرفتُ النظر عن ذلك. أخبرتها ما قالته إحدى شقيقات صوفيا لي وللسيد ـــــ.

كانت صوفيا والملاكم المحترف وجميع الأولاد في سيارة الملاكم قاصدين البلدة. يتسكعون على الطريق وكأنهم أشخاص مهمين. حينها فقط مر العمدة وزوجته.

قالت زوجة العمدة، وهي تدخل يدها في حقيبتها: يا لهؤلاء الأولاد الظرفاء كأزرار الورود الصغيرة. توقفت، وضعت يدها على رأس أحد الأطفال. وأردفت: يا لها من أسنان بيضاء قوية.

لم تتفوه صوفيا والملاكم المحترف بحرف. انتظرا مرورها. العمدة انتظر أيضاً، تراجع للخلف ونقر بقدمه، راقبها مع ابتسامة طفيفة. قال: ميلي. دائماً تبالغ في اعتنائها بالملونين. واصلت الآنسة ميلي التربيت على رؤوس الأطفال، وألقت أخيراً نظرة على صوفيا والملاكم المحترف، ومن ثم إلى سيارتهما. وتمعنت بساعة صوفيا.

قالت لصوفيا: جميع أطفالك نظيفون للغاية، هل تودين العمل لدي، وتكونين خادمتي؟

أجابتها صوفيا: لا اللعنة.

قالت: ماذا تقولين؟

قالت صوفيا: لا اللعنة.

نظر العمدة إلى صوفيا، وأبعد زوجته جانباً. نفخ صدره. ماذا قلتِ للآنسة ميلي، يا بنت؟

قالت صوفيا: قلت، لا اللعنة.

صفعها.

اكتفيت بهذا القدر من القصة.

سكويك جالسة على حافة كرسيها. انتظرتْ. ازداد غضبها.

قال السيد ـــــ: لا ضرورة لقول المزيد. أنت تعرفين ما يحدث إن قام شخص بصفع صوفيا.

أصبح لون سكويك أبيض كملاءة. قالت: والآن.

قلت: لا شيء. أبرحت صوفيا الرجل ضرباً.

جاءت الشرطة، بدأت بإبعاد الأطفال عن العمدة، وبختهم. بدأت صوفيا بالقتال فعلاً. ألقوها أرضاً.

يبدو أنني لا أستطيع رواية المزيد. فاضتْ عيناي بالدموع وغصصتْ. انكمشت سكويك المسكينة على كرسيها، مرتجفة.

قال السيد ـــــ: ضربوا صوفيا.

طارت سكويك كما لو أنها قفزت، هرعت إلى المنضدة حيث كان هاربو، طوقته بذراعيها. تعانقا طويلاً، وبكيا.

سألت شقيقة صوفيا أوديسا: ماذا فعل الملاكم المحترف خلال كل ذلك؟

أراد التدخل، لكن صوفيا قالت له: لا، خذ الأطفال إلى المنزل.

كانت بنادق الشرطة مصوبة نحوه على أي حال. سيموت لو أتى بحركة واحدة. ستة من رجال الشرطة، كما تعرفين.

استجدى السيد ـــــ المأمور ليسمح لنا برؤية صوفيا. بوب في ورطة كبيرة، يشبه المأمور إلى حدٍّ كبير، تربطه مع السيد ـــــ صلة قرابة. لمجرد معرفة السيد ـــــ بأنه ملون.

قال المأمور: زوجة ابنك، مجنونة. أتعرف هذا؟

قال السيد ـــــ: نعم يا سيدي، نعرف ذلك. على مدار اثني عشر عاماً حاولنا إخبار هاربو أنها مجنونة. قبل فترة بعيدة من زواجهما. تنحدر صوفيا من أناس مجانين. الذنب ليس ذنبها بالكامل. كما أن المأمور يعرف النساء وأحوالهن، على أي حال.

فكر المأمور بالنسوة اللواتي يعرفهن وقال: نعم، أنت على حق في هذا.

قال السيد ـــــ: سنخبرها بدورنا أنها مجنونة، لو سنحت لنا الفرصة مجدداً لرؤيتها.

قال المأمور: حسناً، عليكم فعل ذلك. وأخبرها بأنها محظوظة لبقائها حية ترزق.

عندما رأيت صوفيا لم أعرف ما الذي أبقاها حية. أحدثوا شقاً في

جمجمتها، وكسروا ضلوعها. فصلوا جهة من إنفها. أصيبت إحدى عينيها بالعمى. كانت متورمة من رأسها حتى أخمص قدميها. لسانها بحجم ذراعي، عالق بين أسنانها مثل قطعة من المطاط.

لا تستطيع الكلام. وأصبحت تماماً بلون الباذنجان.

هالني منظرها لدرجة أني كنت سأوقع حقيبتي من يدي. لكني لم أفعل. وضعتها على أرضية الزنزانة، أخرجت مشطاً وفرشاة، وثوب نوم، وعشبة «الهيماميلس» والكحول وبدأت بتنظيفها. أحضر لي المستخدم الملون الماء لغسلها، وبدأت بغسل الشقوق الصغيرة حول عينيها.

عزيزي الله،

أرغموا صوفيا على العمل في غرفة الغسيل في السجن. تغسل الملابس طيلة اليوم من الخامسة إلى الثامنة. بدلات المساجين المتسخة، والملاءات والبطانيات القذرة المكوّمة فوق رأسها. نراها مرتين في الشهر لمدة نصف ساعة. وجهها أصفر وشاحب، وتبدو أصابعها مثل النقانق السمينة.

قالت: كل شيء قذر هنا، حتى الهواء. الطعام رديء لدرجة كافية لقتلك. الصراصير في كل مكان، والجرذان، والذباب، والقمل وهناك حية أو حيتان. إن فتحت فمك بحرف يجردونك من ثيابك، يرغمونك على النوم فوق الأرضية الإسمنتية الغارقة بالعتمة.

سألناها: كيف تتدبرين أمورك؟

في كل مرة يطلبون مني فعل شيء ما يا آنسة سيلي، أتصرف كما لو أنني أنتِ. أقفز وأنفذ ما يطلبونه مني.

بدت شرسة حين قالت ذلك، وجالت عينها المصابة حول الغرفة.

حبس السيد ـــــ أنفاسه. تأوه هاربو. صبت الآنسة شوغ اللعنات. جاءت من ممفيس خصيصاً لرؤية صوفيا.

لا أستطيع استعادة فمي للبوح بمشاعري.

قالت: أنا سجينة مطيعة. أفضل مدانة يمكن أن تقع أعينهم عليها. لا يستطيعون تصديق أنني المرأة نفسها التي أخرست زوجة العمدة، وأبرحت هذا الأخير ضرباً. ضحكت. وبدت ضحكتها مقطعاً من أغنية. الجزء الذي يعود فيه الجميع إلى المنزل إلاك.

قالت: اثنا عشر عاماً وقت طويل لأبقى فيه مطيعة.

قال هاربو: ربما تخرجين لحسن السلوك. قالت صوفيا: لا يكفيهم حسن السلوك. لن يلقوا بالاً ما لم ترتم منبطحاً أرضاً وتلعق أحذيتهم.
قالت: أحلم بجريمة،أحلم بجريمة في النوم واليقظة.

لم نتفوه بكلمة.

سألتْ: كيف حال الأطفال؟

قال هاربو: جميعهم بخير. يتدبرون أمورهم بين أوديسا وسكويك.

قالت: اشكر سكويك بالنيابة عني. قل لأوديسا إنني أفكر فيها.

عزيزي الله،

تحلقنا جميعاً حول المائدة بعد تناول العشاء. أنا وشوغ والسيد ـــــ وسكويك والملاكم المحترف وأوديسا واثنان من شقيقات صوفيا.

قال السيد ـــــ: صوفيا لن تصمد طويلاً.

قال هاربو: أجل، تبدو لي على شيء من الجنون.

قالت شوغ: وماذا كان عليها أن تقول. يا إلهي.

قال السيد ـــــ: علينا فعل شيء ما، وبسرعة.

سألت سكويك: ما الذي بوسعنا فعله؟ بدت منهكة بسبب أطفال صوفيا وهاربو الذين خرجوا عليها دفعة واحدة، لكنها واصلت الاعتناء بهم. شعرها مشعث، وحالتها مزرية، إلا أنها واصلت.

قال هاربو: نخرجها من السجن. نحضر بعض الديناميت من العصابة التي تبني ذلك الجسر الكبير على الطريق، ننسف السجن برمته مرة واحدة.

قال السيد ـــــ: اخرس يا هاربو، نحاول أن نفكر.

قال الملاكم المحترف: وجدتها. نهرب بندقية إلى داخل السجن. حسناً، مسد ذقنه، ربما نهرب مبرداً.

قالت أوديسا: لا. سيسعون خلفها إن غادرت السجن بتلك الطريقة.

لم نقل أنا وسكويك شيئاً. لا أعرف بماذا تفكر، لكنني أفكر بالملائكة، الله ينزل على متن عربة، يتأرجح على علوٍ منخفض للغاية ويحمل العجوز صوفيا إلى المنزل. أراهم بوضوح كعين الشمس.

الملائكة بالأبيض الكامل، شعر أبيض وعيون بيضاء، يبدون مثل المهق. الله كليّ البياض أيضاً، كما رجل أبيض بدين يعمل في بنك. دقت الملائكة صنجاتها، ونفخ أحدهم ببوقه، زفر الله نفساً عظيماً من النار وفجأة تحررت صوفيا.

قال السيد ـــــ: مَن أقرباء آمر السجن من السود؟

لم ينبس أحد ببنت شفة.

أخيراً تكلم الملاكم المحترف وسأل: ما اسمه؟

قال هاربو: هودجيز. بابر هودجيز.

قال السيد ـــــ: ابن العجوز هنري هودجيز؟ كان يسكن في منزل العجوز هودجيز.

سألت سكويك: هل لديه أخ اسمه جيمي؟

قال السيد ـــــ: أجل. أخوه اسمه جيمي.

متزوج من الفتاة الكويتمانية[11]. أبوها يمتلك محل المعدات. هل تعرفينهم؟

طأطأت سكويك رأسها. تمتمت بشيء ما.

سأل السيد ـــــ: ماذا قلتِ؟

احمرت وجنتا سكويك. تمتمت مجدداً.

سأل السيد ـــــ: ماذا يكون بالنسبة إليك؟

قالت: ابن عمي.

نظر السيد ـــــ نحوها.

قالت: من عائلة أبي. ورمقت هاربو بنظرة. ثم حدّقت بالأرض.

سأل السيد ـــــ: هل يعرف أي شيء عن الموضوع؟

قالت: نعم. لديه ثلاثة أبناء من أمي. اثنان منهم أصغر مني.

سأل السيد ـــــ: هل يعرف أخوه أي شيء عن الموضوع؟

---

11 – نسبة لمدينة كويتمان في تكساس. (المترجمة).

عرج ذات يوم على منزلنا وكان بصحبة السيد جيمي، أعطانا جميعاً نقوداً من فئة الربع دولار، قال إنه متأكد من أننا نشبه عائلة هودجيز.

استوى السيد ـــــ في جلسته على الكرسي، وألقى على سكويك نظرة من رأسها حتى أخمص قدميها. رفعت سكويك شعرها الدهني البني عن وجهها.

قال السيد ـــــ ألحظ الشبه. أمال كرسيه على الأرض.

حسناً، يبدو أنك الشخص المناسب للذهاب.

سألت سكويك: إلى أين؟

اذهبي وقابلي مأمور السجن. إنه عمك.

عزيزي الله،

ألبسناها كسيدة بيضاء، سوى أن ملابسها كانت مرقّعة. ارتدت فستاناً مكوياً ومنشّى، حذاءً بكعب عالٍ مفتوحاً من الخلف ووشاحاً، وقبعة عتيقة أهداها أحدهم إلى شوغ. أعطيناها حقيبة يد عتيقة بدت مثل لحاف وإنجيلاً أسودَ صغيراً. غسلنا شعرها وتخلصنا من كامل الدهن الذي يغطيه، ثم ضفرتُ شعرها إلى جديلتين تتصالبان فوق رأسها. حممناها جيداً وبدت رائحتها مثل أرض الغرفة النظيفة والزكية.

سألت: ماذا سأقول:

قولي إنك تعيشين مع زوج صوفيا الذي يقول بأنها لم تنل ما تستحقه من العقاب، وتستهزئ بحراس السجن، وتتأقلم بشكل جيد جداً مع المكان حيث هي الآن، حتى إنها سعيدة، طالما أنها ليست خادمة أي سيدة بيضاء.

قالت سكويك: رباه الرحيم، كيف سأدرب لساني على التفوه بكل تلك الأشياء؟

إن سألك من تكونين، ذكّريه. أخبريه كم يعني لك الربع دولار الذي أعطاكِ إياه.

قالت سكويك: كان هذا قبل خمسة عشر عاماً. لن يتذكر ذلك.

قالت أوديسا: دعيه يرى خصال آل هودجيز فيكِ. سيتذكر.

فقط قولي له إنك تؤمنين بضرورة إحقاق العدالة. قالت شوغ: لكن تأكدي من معرفته بأنك تعيشين مع زوج صوفيا. تأكدي من قول الجزء المتعلق بكونها سعيدة حيث هي، وأن أسوأ شيء قد يحدث لها هو أن تكون خادمة سيدة بيضاء.

قال الملاكم المحترف: لا أعرف. يبدو لي أن هذا انبطاحياً للغاية مثل عمنا توم[12] العجوز.

قالت شوغ مستاءة: حسناً، لم يأخذ العم توم لقب العم عبثاً.

12 - في إحالة إلى رواية «العم توم» وما تمثله شخصية توم من خنوع للأبيض. (المترجمة).

عزيزي الله،

عادت سكويك المسكينة إلى البيت وهي تعرج. فستانها ممزق. قبعتها ضائعة وقد خُلع كعب إحدى فردتي حذائها.

سألناها: ماذا جرى؟

قالت: رأى خصال آل هودجيز بي. ولم يستهوه شيئاً.

صعد هاربو الدرج بعد ترجله من السيارة. قال: زوجتي ضُربت، حبيبتي اغتُصبت. عليّ أن أعود إلى هناك مدججاً بالسلاح، لعلي سأضرم النار في المكان، وأحرق أولئك البيض السفلة.

قالت سكويك: اخرس يا هاربو. سأخبرهم بما حدث.

وهذا ما فعلته.

قالت: ما إن دخلت من الباب، حتى تذكرني.

سألناها: ماذا قال؟

قال: ماذا تريدين؟ قلت: جئت تدفعني رغبتي برؤية العدالة وقد تحققت. سأل مجدداً: ما الذي تقولين إنك تريديه؟

قلت ما طلبتم مني جميعاً قوله. عن صوفيا وعدم تلقيها القدر الكافي من العقاب. وأنها سعيدة في السجن، فتاة قوية مثلها ستكون سعيدة فيه. يتجسد خوفها الوحيد في فكرة أن تصبح في يوم ما خادمة سيدة بيضاء. وهذا ما أشعل فتيل الشجار، كما تعرف. فزوجة العمدة طلبت من صوفيا أن تكون خادمتها. صوفيا قالت إنها لن تكون يوماً خادمة لسيدة بيضاء، فما بالك بأن تكون خادمتها.

سألني: هكذا إذن. كان طوال الوقت يتملاني بنظراته.

قلت: نعم يا سيدي. السجن يلائمها تماماً. الضرب، وغسيل الثياب والكي طوال اليوم هو كل ما تفعله في المنزل. لديها ستة أطفال، كما تعرف.

جاء من خلف مكتبه، انحنى على الكرسي الذي أجلس عليه.

سألني: من هم أهلك؟

أخبرته عن اسم أمي وجدتي وجدي.

سألني: من هو والدك. من أين لك هاتين العينين؟

قلت: ليس لدي أب.

قال: بربكِ، ألم أركِ من قبل؟

قلت: نعم يا سيدي. مرة واحدة قبل عشر سنوات، عندما كنت فتاة صغيرة، أعطيتني ربع دولار. أقدّر ذلك بالتأكيد.

قال: لا أتذكر ذلك.

قلت: عرّجت على بيتنا مع صديق أمي، السيد جيمي.

جالت سكويك ببصرها علينا جميعاً. ثم أخذت نفساً عميقاً. وغمغمت.

سألتها أوديسا: ماذا قلتِ؟

قالت شوغ: أجل، إن لم تتمكني من إخبارنا، فمن ستخبرين إذاً، الله؟

قالت سكويك: أخذ قبعتي. وطلب مني أن أخلع فستاني. أحنت رأسها، وغطت وجهها بيديها.

قالت أوديسا: يا إلهي، إنه عمك.

قال إنه لو كان عمي ما كان ليفعلها معي. فهذا سيكون خطيئة. ولكن هذا مجرد زنا. الكل يزني.

أدارت وجهها نحو هاربو. قالت: هاربو، هل تحبني حقاً، أو أن السبب فقط هو لوني؟

قال هاربو: أنا أحبكِ يا سكويك. ركع وطوّق خصرها بذراعيه.

نهضت. وقالت: اسمي ماري أغنيس.

عزيزي الله،

أمست ماري أغنيس تغني بعد ستة أشهر من ذهابها لإطلاق سراح صوفيا. شرعت أولاً بأداء أغاني شوغ، ثم صارت تؤلف أغانيها الخاصة.

صوتها من النوع الذي لا يتيح لك التفكير بأن صاحبته ستغني أغنية واحدة. صوت محدود، وعالٍ، على شيء من المواء. لكن ماري أغنيس لا تكترث لذلك.

اعتدنا عليه، بعد فترة وجيزة. ثم أحببناه كثيراً على علاته.

لا يعرف هاربو ماذا يفعل به.

يقول لي وللسيد ـــــ: يبدو الأمر مضحكاً بالنسبة إلي. مفاجئ جداً. صوتها يذكرني بالغرامافون. يقبع في الزاوية لسنة صامتاً، تضع أسطوانة فيه، فتدب فيه الحياة.

قلت: أتساءل إن كانت لا تزال غاضبة لأن صوفيا خلعت لها سنّيها؟

أجل، إنها غاضبة. ولكن بماذا سيفيدها الغضب؟ ليست شريرة، تعرف أن حياة صوفيا شاقة في الوقت الحالي.

سأل السيد ـــــ: كيف تدبر أمرها مع الأطفال؟

قال هاربو: إنهم يحبونها. فهي تدعهم يفعلون ما يحلو لهم.

قلت: يا سلام.

قال: إضافة إلى ذلك، أوديسا وشقيقات صوفيا الأخريات مستعدات لمدّ يد العون لها دائماً. يربين الأطفال كما في الجيش.

سكويك تغني:

ينادونني صفراء

وكأن الأصفر اسمي

ينادونني صفراء

وكأن الأصفر اسمي

و إن كان الأصفر اسمي

لماذا لا يكون الأسود مثله

إن قلت مرحباً أيتها السوداء

رباه، فإنها ستسعى إلى تدمير لعبتي

عزيزي الله،

أخبرتني صوفيا اليوم: أعجز عن فهم ذلك.

سألتها: فهم ماذا؟

لماذا لم نقتلهم جميعاً لغاية الآن.

استعادت لونها ووزنها بعد ثلاث سنوات على ضربها في غرفة الغسيل، وها هي تعود إلى سابق عهدها، لكنها مسكونة بهاجس قتل أحدهم.

قلت: هناك الكثير لقتلهم. عددنا يفوق عددهم منذ البداية. وقد أقدمنا على قتل بعض منهم، هنا وهناك، على مر السنين.

جلسنا على قطعة من صندوق قديم بالقرب من حافة فناء الآنسة ميلي. برزت مسامير صدئة على طول قعر الصندوق، وكلما تحركنا أصدر الخشب صريراً.

تولّت صوفيا حينها مراقبة الطفلين وهما يلعبان الكرة. يرمي الولد الصغير الكرة للبنت الصغيرة، تحاول التقاطها بينما عيناها مغمضتان. تدحرجت الكرة تحت قدم صوفيا.

قال الولد الصغير ويداه على وركه: ارمي لي الكرة. تمتمت صوفيا العبارة ذاتها لنفسها ولي، ارمي لي الكرة. قالت: أنا هنا لأراقب، وليس لأرمي الكرة. لم تأتِ بأدنى حركة.

صرخ: ألا تسمعيني أكلمّك. كان ربما في السادسة من عمره، بشعر بني، وعينين زرقاوتين باردتين كالثلج. جاء حانقاً إلى حيث كنا جالستين، تراجع للخلف قليلاً وركل رجل صوفيا. أمالت رجلها إلى إحدى الجهتين فبدأ يصرخ.

سألتها: ما المشكلة؟

قالت صوفيا: لقد جرح قدمه بمسمارٍ صدئ.

هذا ما حدث بالتأكيد، ها هو الدم يتسرب من حذائه.

اقتربت أخته الصغيرة وصارت تراقبه وهو يبكي. امتقع لونه وأصبح أحمر أكثر فأكثر. ونادى على أمه.

جاءت الآنسة ميلي راكضة. صرخت في وجه صوفيا. في كل مرة تتصرف فيها على هذا النحو فإنها تتوقع الأسوأ. لا تقترب منها أيضاً. عندما أصبحت على بعد بضع ياردات من مكان جلوسنا، أومأت إلى بيلي بأن يتوجه إليها.

قال لها: قدمي.

سألت: هل صوفيا من فعلت بك ذلك؟

قالت الفتاة الصغيرة فجأة: بيلي فعل ذلك بنفسه. حاول ركل قدم صوفيا. تسترت الصغيرة على صوفيا، دائماً ما تدافع عنها. لم تلحظ صوفيا شيئاً من ذلك، فهي تصم أذنيها عما تقوله الصغيرة تماماً كما تصمهما عما يقوله أخوها.

نظرت الآنسة ميلي نحوها، وضعت إحدى ذراعيها على كتف بيلي وعرجا عائدين إلى المنزل. تبعتهما الصغيرة، ولوحت لنا مودعة.

قلت لصوفيا: يبدو أن الصغيرة لطيفة للغاية.

عبست: من هي؟

قلت: الفتاة الصغيرة. ما اسمها، إليانور جين؟

قالت صوفيا: نعم، وارتسمت على وجهها علامات الحيرة، أتساءل لماذا ولدت أصلاً.

قلت: حسناً، ليس علينا طرح هكذا سؤال حول السود.

قهقهت وقالت: يا آنسة سيلي، لا يمكنك أن تكوني معتوهة أكثر مما أنتِ عليه.

هذه أول قهقهة لها أسمعها منذ ثلاث سنوات.

عزيزي الله،

من شأن صوفيا أن تجعل الكلب يضحك، وهي تتحدث عن هؤلاء البشر الذين تعمل عندهم. قالت صوفيا: يمتلكون من الوقاحة ما يكفي للسعي إلى إقناعنا بأننا أفشلنا العبودية. ما كنا نمتلك الحس السليم للتعامل معها. نكسر مقابض المعاول على الدوام ونترك البغال سائبة في حقول القمح. أتساءل كيف لما يبنونه أن يصمد ليوم واحد. إنهم متخلفون وحمقى وتعساء.

اشترى العمدة ـــــ سيارة جديدة للآنسة ميلي، لأنها قالت إن كان الملونون يملكون سيارات فإن اقتنائها لسيارة هو أمر كان يجب أن يحدث منذ زمن. وهكذا اشتراها لها، لكنه رفض تعليمها القيادة. يعود في كل يوم من البلدة وينظر إلى سيارتها عبر النافذة، ويقول: هل تستمتعين بالسيارة يا آنسة ميلي؟ تنتفض من الأريكة في نوبة غضب، تصفع الباب وتذهب إلى الحمام.

ليس لديها أصدقاء.

قالت لي في يوم من الأيام: صوفيا، السيارة مركونة منذ شهرين، هل تعرفين قيادتها؟ ربما تذكرت المرة الأولى التي رأتني فيها وأنا وراء مقود سيارة باستر برودنكس.

قلت: أجل يا سيدتي. بينما كنت أشقى كعبدة في تنظيف صندوق البريد الكبير الذي وضعوه أسفل الدرج. إنهم يتصرفون بطرافة حيال البريد. يجب ألا يمسسه أحد على الإطلاق.

سألتني: هل تعتقدين أن بوسعك تعليمي؟

اقتحم المكان أحد أولاد صوفيا، الصبي الأكبر. طويل ووسيم، وجاد طوال الوقت. ونزق جداً.

قال: لا تقولي إنك تكدحين كالعبيد يا ماما.

قالت صوفيا: لِم لا؟ لقد وضعوني في مخزن صغير تحت البيت، بالكاد يماثل مساحة شرفة أوديسا، ويعوزها الدفء في الشتاء. أنا تحت تصرفهم ورهن إشارتهم ليل نهار. لا يسمحون لي برؤية أطفالي، ولا برؤية أي إنسان. حسناً، بعد خمس سنوات سمحوا لي برؤيتك مرة في السنة. أنا عبدة. ماذا تُسمِّي هذا إذاً؟

قال: أسيرة.

واصلت صوفيا سرد قصتها، وهي تنظر إليه سعيدة به.

وهكذا قلتْ: نعم يا سيدتي. يمكنني تعليمك، إن كانت السيارة التي تعلمت قيادتها من النوع نفسه.

الشيء التالي كما تعرفين أخذت أنا والآنسة ميلي نقطع الطريق صعوداً وهبوطاً. قمت أولاً بقيادة السيارة فيما هي تراقبني، ثم بدأت تحاول القيادة وأنا أراقبها. صعوداً وهبوطاً. حالما أنتهي من إعداد الفطور، وأضعه على الطاولة، وأغسل الأطباق وأكنس الأرضية - وقبل إخراج البريد من الصندوق الموجود بالقرب من الطريق - نذهب ونعطي الآنسة ميلي درس القيادة.

حسناً، بعد فترة تعلمت القيادة نوعاً ما. ثم أتقنتها بالفعل. ثم وفي أحد الأيام وبينما كنا عائدين إلى المنزل بعد جولة قيادة، قالت لي: سأوصلك بالسيارة إلى ديارك. هكذا ببساطة.

سألتها: دياري؟

قالت: نعم. ديارك. لم تذهبي إليها ولم تري أطفالك منذ زمن. أليس هذا صحيحاً؟

قلت: أجل يا سيدتي. منذ خمس سنوات.

قالت: هذا معيب. اذهبي وأحضري أغراضك في الحال. إنه عيد الميلاد. اذهبي وأحضري أغراضك. يمكنك تمضية النهار بطوله.

قلتُ: لا حاجة لي لأكثر مما أرتديه لتمضية نهار كامل.

جيد، قالت. جيّد. اركبي.

قالت صوفيا: حسناً. كنت معتادة على الجلوس على المقعد بجانبها لتعليمها قيادة السيارة، ولهذا فقد صعدت بشكل طبيعي إلى المقعد الأمامي.

وقفتْ خارج السيارة من جهتها وهي تتنحنح.

قالت مع ابتسامة طفيفة: صوفيا، هنا الجنوب.

قلت: أجل يا سيدتي.

تنحنحت، ابتسمت أكثر. قالت: انظري أين تجلسين.

قلت: أجلس حيث أجلس دائماً.

قالتْ: هذه هي المشكلة. هل رأيتِ يوماً شخصاً أبيض وشخصاً ملوناً يجلسان جنباً إلى جنب في سيارة، عندما لا يكون أحدهما يعلم الآخر قيادتها أو تنظيفها؟

ترجلتُ من السيارة، فتحتُ الباب الخلفي وصعدت. جلستْ في المقدمة. وبدأنا الرحلة، كان شعر الآنسة ميلي يطير من النافذة.

قالت ونحن نجتاز طريق مارشال الوعر، مقتربين من منزل أوديسا: يا لها من مناطق جميلة.

قلت: نعم يا سيدتي.

دخلنا بعدها إلى فناء البيت وتحلق جميع الأطفال حول السيارة. لم يخبرهم أحد بمجيئي، ولهذا لم يعرفوا من أكون. ما عدا الولدين الأكبر سناً. هرعا إلى معانقتي. ثم قام الصغار بمعانقتي أيضاً. لا أعتقد أنهم لاحظوا بأنني كنت في المقعد الخلفي من السيارة. فقد خرج كل من أوديسا وجاك بعد ترجّلي من السيارة، ولهذا لم يشاهدا أين كنت أجلس.

تحلقنا جميعاً حول بعضنا البعض وتعانقنا، اكتفت الآنسة ميلي بالمراقبة. أخيراً، أطلت من النافذة وقالت: صوفيا، لديكِ بقية النهار فقط. سأعود لأخذك عند الساعة الخامسة. كان جميع الأطفال يسحبونني إلى داخل المنزل، ولهذا التفت وقلتُ: أجل يا سيدتي، واعتقدت أنني سمعتها تقود مبتعدة.

لكن بعد خمس عشرة دقيقة، قالت ماريون: تلك السيدة البيضاء لا تزال في الخارج.

قال جاك: ربما ستنتظر حتى تعود بك.

قالت أوديسا: ربما كانت مريضة. لطالما أخبرتِنا كم هي مريضة.

قالت صوفيا: توجهتُ إلى السيارة، احذري ماذا كانت المشكلة؟ اكتشفت أنها لا تعرف إلا السير نحو الأمام، وفناء جاك وأوديسا مليء بالأشجار.

قالت: كيف ترجعين إلى الخلف بهذا الشيء يا صوفيا؟

دليت جسمي من شبّاك السيارة محاولة تعليمها كيف تحرك مبدّل السرعة للرجوع إلى الخلف. لكنها اضطربت بينما كان الأطفال وأوديسا وجاك مصطفين جميعاً على الشرفة يراقبونها.

استدرتُ إلى الجهة الأخرى. حاولت أن أشرح لها ورأسي مقحم عبر النافذة. أصبحت تحرك مبدّل السرعة حركات سريعة. احمّر أنفها واستبد بها الغضب والإحباط.

صعدتُ وجلستُ في المقعد الخلفي، انحنيت فوق ظهر الكرسي الأمامي، حاولت بإصرار تعليمها كيف يعمل المبدّل. لم يحدث شيء. همدت السيارة وما عاد يصدر عنها صوت. تعطل المحرك.

قلت: لا تقلقي. زوج أوديسا جاك سيوصلك إلى المنزل. هذه سيارته الـ «بيك آب».

قالت: آه، لا يمكنني أن أستقل سيارة «بيك آب» مع رجل غريب ملون.

قلتْ: سأطلب من أوديسا أن تركب معكما. فكرت أن هذا سيتيح لي الفرصة لتمضية بعض الوقت مع الأطفال. لكنها قالت: لا أعرفها أيضاً.

وهكذا انتهى بنا المطاف أنا وجاك وهي عائدين في سيارة الـ «بيك آب»، ثم توجهتُ أنا وجاك إلى البلدة لإحضار ميكانيكي، وعند الساعة الخامسة كنت أقود سيارة الآنسة ميلي عائدة بها إلى المنزل.

أمضيت خمس عشرة دقيقة مع أطفالي.

وهي أمضت خمسة أشهر تتحدث عن مدى جحودي.

قالت صوفيا: البيض يصنعون المعجزات في سبيل خلق المصائب.

عزيزي الله،

كتبت شوغ أنها تحمل مفاجأة كبيرة، وتنوي إحضارها إلى المنزل من أجل عيد الميلاد.

تساءلنا: ما هي يا ترى المفاجأة؟

اعتقد السيد ـــــ أنها جلبتْ له سيارة. إذ إن شوغ تجني الكثير من المال الآن، وترتدي الفرو دائماً. الحرير والساتان أيضاً، والقبعات المشغولة بالذهب.

صبيحة يوم الميلاد سمعنا هدير محرك سيارة في الخارج. ونظرنا إلى هناك.

قال السيد ـــــ: يا للهول. ارتدى سرواله بسرعة. اندفع نحو الباب. أمام المرآة أحاول تصفيف شعري. كان قصيراً جداً لجعله طويلاً، وطويلاً جداً لجعله قصيراً. متموجاً أكثر من اللازم لجعله ملفوفاً، وملفوفاً أكثر من اللازم لجعله متموجاً. لم يكن لونه موحداً أيضاً. تخليت عن الفكرة، ووضعت عصبة على رأسي.

سمعت شوغ تصرخ: آه يا ألبرت. قال: شوغ. عرفت أنهما يتعانقان. ثم لم أسمع شيئاً.

ركضت نحو الباب. قلت: شوغ، وطوقتها بذراعي. ولكن قبل أن أتبين أي شيء ظهر أمامي رجل نحيل بأسنان كبيرة ويرتدي سروالاً بحمّالات حمراء. وقبل أن تتاح لي فرصة التساؤل كلب من هذا، اندفع نحوي وعانقني.

قال: آنسة سيلي. آواه يا آنسة سيلي. لقد سمعت الكثير عنكِ. أشعر أننا صديقان قديمان.

وقفت شوغ في الخلف وعلى وجهها ابتسامة عريضة.

قالت: هذا غرادي. إنه زوجي.

في اللحظة التي فاهت فيها بذلك عرفتُ بأنه لا يروق لي.

لا يعجبني شكله. ولا أسنانه، ولا ثيابه. يبدو أن له رائحة مقززة.

قالت: لقد قدنا السيارة طوال الليل. لا مكان يمكننا التوقف فيه، كما تعرفان. ولكن ها نحن هنا. اقتربت من غرادي وطوقته بذراعيها، ورفعت ناظريها نحوه كما لو أنه ظريف فانحنى وقبّلها.

تفقدت السيد ـــــ بناظري. بدا وكأن نهاية العالم قد حلّت. وعرفتُ بأن حالتي ما كانت بأفضل من حالته.

قالت شوغ: وهذه هدية زواجنا. سيارة كبيرة بلون أزرق داكن في مقدمتها شعار «باكارد». سيارة جديدة كلياً. نظرت نحو السيد ـــــ تأبطتْ ذراعه، وضغطت عليها برقة. وأضافت: بما أننا هنا يا ألبرت، أود أن أعلّمك قيادة السيارة. ضحكت. يقود غرادي كالأخرق. حسبت أن الشرطة ستلقي القبض علينا حتماً.

انتبهت شوغ أخيراً لوجودي. اقتربت مني وعانقتني طويلاً. قالت: لقد أصبحنا سيدتين متزوجتين الآن. سيدتان متزوجتان. وجائعتان. ماذا سنأكل؟

عزيزي الله،

شرب السيد ـــــ طيلة عيد الميلاد. هو وغرادي. طهونا أنا وشوغ، وتحدثنا، نظفنا البيت، وتحدثنا، هيّأنا شجرة الميلاد، وتحدثنا، واستيقظنا صباحاً، وتحدثنا.

تغني في كافة أرجاء البلاد الآن. الجميع يعرف اسمها. هي تعرف الجميع أيضاً. تعرف صوفي تاكر، وديوك إلينغتون، وتعرف أشخاصاً لم أسمع بهم في حياتي. تجني الكثير من المال لدرجة لا تعرف ماذا تفعل به. لديها منزل جميل في ممفيس، وسيارة أخرى. لديها مائة فستان جميل. غرفة مليئة بالأحذية. تشتري لغرادي أي شيء يتبادر إلى ذهنه.

سألتها: أين وجدته؟

قالت: تحت سيارتي. السيارة التي في المنزل.

كنت أقودها بعد تسرب الزيت منها، فتعطل المحرك. هو من أصلحها. نظرة واحدة كانت كفيلة بكل شيء.

قلت: جرحتِ مشاعر السيد ـــــ . لم أذكر شيئاً عن مشاعري.

قالت: آه. لقد أصبح ذلك من الماضي. تبدوان أنت وألبرت كعائلة الآن. على أي حال، تغيرت مشاعري اتجاهه حين أخبرتِني بأنه يضربك ولا يعمل. لو كنتِ زوجتي، لكنت غمرتك بالقبل بدلاً عن ضربك، ولعملت جاهداً لأجلك.

قلت: لم يعد يضربني كثيراً منذ أجبرتِه على أن يقلع عن ذلك. مجرد صفعة هنا وأخرى هناك حين لا يكون لديه شيء آخر يفعله.

سألتني: هل تمارسان الحب على نحو أفضل؟

قلت: نحاول. يحاول مداعبة الزر لكنني أحس بأصابعه جافة. لم نتحسن كثيراً.

سألتني: لا زلتِ عذراء؟

قلت: أعتقد ذلك.

عزيزي الله،

ذهب السيد ـــــ وغرادي بالسيارة. سألتني شوغ إن كان بإمكانها النوم معي. كانت تشعر بالبرد لأنها أمست وحيدة في سريرها هي وغرادي. تحدثنا عن مواضيع مختلفة. وسرعان ما انتقلنا للحديث عن ممارسة الحب. لا تقول شوغ في الحقيقة ممارسة الحب. قالت شيئاً فاحشاً. قالت مضاجعة.

سألتني: كيف كانت عليها الأمور مع والد طفليكِ؟

قلت: كان للبنات غرفة منفصلة، تتصل بالمنزل من خلال ممشى خشبي صغير. لا أحد يأتي إلى هناك سوى أمي. لكن في يوم من الأيام كانت أمي غائبة عن المنزل، جاء. أخبرني أنه يريدني أن أقصّ شعره. جلب المقص والمشط والفرشاة والكرسي. وبينما كنت أشذّبُ شعره نظر إليّ بطريقة مضحكة. كان متوتراً قليلاً أيضاً، لم أعرف السبب، إلى أن أمسكني وحشرني بين رجليه.

استلقيت هناك ساكنة، أستمع إلى نفس شوغ.

قلت: لقد آلمني، كما تعرفين. كنت لم أتجاوز بعد الرابعة عشرة من عمري فقط. لم أكن أعرف أن للرجال شيئاً كبيراً هكذا في الأسفل. ذعرت لمجرد رؤيته، ومشاهدته ينبثق ويكبر.

سكنت شوغ لدرجة ظننتها فيها نائمة.

قلت: بعد أن قذف، تركني أنهي قصّ شعره.

اختلست النظر إلى شوغ.

قالت: آه يا آنسة سيلي. وطوقتني بذراعيها. كان ذراعاها سوداوين وناعمين ولامعين في ضوء المصباح.

هبطت عليّ نوبة بكاء عارمة. بكيت وبكيت وبكيت. وكل شيء عاودني من جديد، وأنا بين ذراعي شوغ. الألم الذي داهمني، الدهشة التي اعترتني. اللسعات التي سرت في جسدي بينما كنت أفرغ من شعره. كيف سال الدم من بين رجلي ولطّخ جوربي. كيف تحاشى النظر في عيني بعدئذٍ. ونيتي.

قالت شوغ: لا تبكي يا سيلي. لا تبكي. ومضت تقبّل الدموع المنسابة على وجهي.

قلت: تساءلت أمي بعد فترة لمَ شعره متواجد في غرفة البنات إن لم يدخلها قط كما يقول. عندها أخبرها بأن لدي عشيقاً. قال إنه شاب رآه يتسلل من الباب الخلفي. إنه شعر الشاب، وليس شعره. تعرفين كم تحب قص شعر أياً كان.

قلت لشوغ: أحب تشذيب الشعر منذ كنت صغيرة. كنت أهرع لجلب المقص متى رأيت شعره قد طال، وكنت أقص وأقص قدر ما أستطيع. ولهذا كنت أنا من يتولى ذلك. وكان على الدوام يقبل أن أقصه على الشرفة الأمامية. إلا أنني أصبحت أبكي في كل مرة أراه فيها قادماً ومعه المقص والمشط والكرسي.

قالت شوغ: السافل، وأنا التي ظننت أن البيض فقط من يقومون بأمور شائنة مثل هذه.

قلت لشوغ: أمي ماتت. أختي نيتي هربت. السيد ـــــ جاء وأخذني لأعتني بأولاده العفنين. لم يبالِ بي يوماً. اعتلاني وضاجعني وضاجعني، حين كان رأسي مضمّداً. لم يحبني أحد قط.

قالت: أنا أحبك يا آنسة سيلي. ثم جذبتني وقبلتني من فمي.

قالت: اممم، كما لو أنها تفاجأت. بادلتها القبلة، وقلت *اممم*. تبادلنا القبل إلى أن نفدت. لامسنا بعضنا البعض.

قلت لشوغ: لا أعرف شيئاً عن هذا.

قالت: لا أعرف الكثير.

ثم أحسست بشيء رطب مفرط النعومة على صدري، كما لو كان ثغر أحد طفلي المفقودين.

بعدئذ، أمسيت بدوري طفلة صغيرة تائهة.

عزيزي الله،

عاد غرادي والسيد ـــــ مع مطلع الفجر مترنحين. كنا أنا وشوغ نغط في نوم عميق. ظهرها نحوي، ذراعاي يطوقان خصرها. ما هذا الذي أنا فيه؟ أشبه بالنوم بجوار أمي، لا أتذكر أنني نمت بجوارها. أكثر شبهاً بالنوم مع نيتي، غير أن النوم معها ما كان يوماً بهذه اللذة. دافئ وهانئ هذا الهجوع، ونهدا شوغ الكبيران يفيضان على ذراعي كما الرغوة. كنت كمن في الجنة، وما من شيء مما أنا فيه يشبه النوم مع السيد ـــــ على الإطلاق.

قلت: استيقظي يا سكّرتي. لقد عادا. تقلّبت شوغ، عانقتني، ونهضت من السرير. مشت مترنحة نحو الغرفة الأخرى وارتمت على السرير بجانب غرادي. ارتمى السيد ـــــ بجواري، ثملاً، وعلا شخيره قبل أن يلامس رأسه الوسادة.

بذلت قصارى جهدي كي أحب غـرادي، رغم ارتدائه سروالاً بحمالات حمراء وربطة عنق على شكل فراشة. حتى وإن كان يبذر مال شوغ كما لو أنه له. ويسعى للحديث كواحد من أبناء الشمال. ممفيس وتينيسي ليستا في الشمال، حتى أنا أعرف ذلك. لكن شيئاً واحداً ما تحملته فيه يقيناً: الطريقة التي ينادي فيها شوغ ماما.

تقول شوغ: لست أمك اللعينة. ولا يهتم لذلك.

كما حدث حينما راح يتفحص سكويك بنظرات شهوانية، فنهرته شوغ بعض الشيء. قال حينها: آه يا ماما، لا أقصد أي سوء بذلك.

شوغ أحبت سكويك أيضاً، تحاول مساعدتها في الغناء. يجلسان في

غرفة أوديسا الأمامية المكتظة بجميع الأطفال ويغنيان ويغنيان. أحياناً يأتي سوين ومعه عدته الموسيقية، هاربو يعدّ الغداء، أنا والسيد ـــــ والملاكم المحترف نهيئ إعجابنا.

جميل.

تقول شوغ لسكويك، أقصد، ماري أغنيس، عليكِ الغناء أمام الجمهور.

تقول ماري أغنيس: لا . تعتقد بأن أحداً لن يرغب بسماعها لأنها لم تغنِ أمام جمهور عريض مثل شوغ. لكن شوغ تعتبرها مخطئة.

قالت شوغ: ماذا عن كل الأصوات المضحكة التي تسمعين غناءها في الكنيسة؟ ماذا عن تلك التي تبدو جيدة ولكنها ليست مما يحبونها؟ ماذا عن ذلك؟ ثم بدأت سكويك بالأنين. دنا الموت، وعجزت الملائكة عن إيقافه. اقشعرت الأبدان. إلا أن صوتها بدا مثل صوت النمور إن استطاعت الغناء.

قالت شوغ لماري أغنيس: سأخبركِ شيئاً آخر، لدى الاستماع إلى صوتك، سيفكر الناس بالمضاجعة الجيدة.

قالت ماري أغنيس ممتقعة: أوه يا آنسة شوغ.

قالت شوغ: ماذا، هل تخجلين من فكرة الجمع بين الغناء والرقص والمضاجعة؟ ضحكت. لهذا السبب يسمون ما نغنيه موسيقى الشيطان. الشيطان يحب المضاجعة. استمعي إليّ، دعينا نغني لليلة واحدة في حانة هاربو. سيكون هذا أشبه بالأيام الخوالي. وإن قدمتك إلى الجمهور، فإنهم سينصتون إليك باحترام. الزنوج لا يعرفون التلفيق، فإن أكملتِ النصف الأول من أغنية واحدة، فقد استحوذتِ عليهم.

قالت ماري أغنيس: أتظنين أن هذه هي الحقيقة. كان وجهها كله عبارة عن عينين كبيرتين ومبتهجتين.

قال هاربو: لا أعرف إن كنت أريدها أن تغني.

سألت شوغ: كيف ذلك؟ المرأة التي تغني في حانتك الآن لا تستطيع إخراج نفسها من *عباءة* الكنيسة. لا يعرف الناس إن كان عليهم الرقص أم التسلل إلى مقعد الحزانى. كما أنك ستنتقي لماري أغنيس ملابس مناسبة وستجني الكثير من المال. ولأنها صفراء، وشعرها حريري وعينيها غائمتان، فإن الرجال سيجنون بها. أليس هذا صحيحاً يا غرادي؟

قال غرادي وقد علت وجهه ابتسامة بلهاء: لا يفوتك شيء يا ماما.

قالت شوغ: وأنت لا تنسَ ذلك.

عزيزي الله،

هذه الرسالة بين يديّ.

عزيزتي سيلي:

أعرف أنك تظنين بأنني ميتة. لكنني لست كذلك. كتبت لك الكثير على مرّ السنين، لكن ألبرت قال إنك لن تسمعي كلمة مني، ولأنني لم أسمع منك طيلة ذلك الزمن، فقد كان على ما يبدو مصيباً. بتُّ أكتب الآن في أعياد الميلاد والفصح فقط على أمل أن تضيع رسائلي بين التهاني والمعايدات، أو أن يتحلى ألبرت بروح الأعياد ويشفق علينا.

هناك الكثير من الأشياء لأخبرك عنها ولا أعرف من أين أبدأ، ربما لن تصلك هذه الرسالة، هي الأخرى. أنا متأكدة من أن ألبرت لا يزال الوحيد الذي يأخذ البريد من الصندوق.

إن وجدت هذه الرسالة طريقها إليكِ، فإني أريدكِ أن تعرفي شيئاً واحداً، إنني أحبك، وأنا لست ميتة. وإن أوليفيا بحالٍ جيدة وكذلك ابنك.

جميعنا سنعود إلى أرض الوطن قبل نهاية العام المقبل.

أختك المحبة، نيتي

في إحدى الليالي ونحن في السرير طلبت مني شوغ أن أخبرها عن نيتي، كيف هو شكلها، أين هي؟

أخبرتها كيف حاول السيد ـــــ إغواءها. وكيف صدّته، وكيف قال إنه يتعين عليها الرحيل.

سألتني: أين ذهبت؟

قلت: لا أعرف. غادرت هذا المكان.

سألتني: ولم تسمعي منها شيئاً حتى الآن؟

قلت: كلا. كل يوم عندما يعود السيد ـــــ ومعه البريد آمل بأن يكون لديه أخبار. ولكن ما من أخبار. لقد ماتت.

قالت شوغ: قد تكون في مكان ما تشير إليه الطوابع البريدية، ألا تعتقدين ذلك؟ بدت كما لو أنها تتحرى شيئاً ما. وأردفت: أحياناً عندما نذهب أنا وألبرت لجلب البريد يكون هناك رسالة ذات طوابع غريبة. لا يورد شيئاً عنها، يكتفي بوضعها في جيبه. سألته مرة إن كان بإمكاني إلقاء نظرة على الطوابع لكنه قال إنه سيخرجها لاحقاً. لكنه لم يفعل ذلك مطلقاً.

قلت: توجهت إلى البلدة فقط. يفترض أن تكون الطوابع مثل التي هنا. رجال بيض بشعر طويل.

قالت: اممم، يبدو أن على إحداها صورة سيدة بيضاء بدينة بعض الشيء. ثم سألتني: كيف هي أختك نيتي. ذكية؟

قلت: نعم، رباه. ذكية جداً. كانت تقرأ الصحف وهي صغيرة أكثر مما تتكلم. تجري العمليات الحسابية بلمح البرق. وهي متحدثة جيدة أيضاً. وجميلة. لم يكن هناك أجمل منها قط. عيناها تملآن وجهها. إنها تحبني أيضاً.

سألتني شوغ: هل هي طويلة أم قصيرة؟ ما نوع الملابس التي تحب ارتداءها؟ متى عيد ميلادها؟ ما لونها المفضل؟ هل تعرف الطهو؟ الخياطة؟ ماذا عن شعرها؟

أرادت أن تعرف كل شيء عن نيتي.

تكلمت كثيراً حتى بحّ صوتي. سألتها: لماذا ترغبين بمعرفة كل هذه المعلومات عن نيتي؟

قالت: لأنها الشخص الوحيد الذي أحببته، غيري.

عزيزي الله،

فجأة عادت شوغ مجدداً إلى السيد ـــــ. يجلسان على الدرج، يترافقان إلى حانة هاربو. يمشيان نحو صندوق البريد.

شوغ تضحك وتضحك متى قال أي شيء. تُظهِر أسنانها ونهديها بسخاء.

حاولت أنا وغرادي أن نتصرف بتحضر. لكن كان الأمر شاقاً. عندما أسمع شوغ تضحك أود خنقها، كما أود صفع السيد ـــــ على وجهه.

عانيت الأمرَّين طيلة الأسبوع الحالي. شعرنا أنا وغرادي بالإحباط فلجأ هو إلى الحشيش، ولذت أنا بالصلاة.

صباح يوم السبت وضعت شوغ رسالة من نيتي في حضني. عليها طوابع تحمل صورة ملكة إنجلترا البدينة بعض الشيء، إضافة إلى طوابع تحمل صور الفول السوداني وجوز الهند وأشجار المطاط وقالت: أفريقيا. لا أعرف أين تقع إنجلترا. ولا أفريقيا أيضاً. ولهذا لا زلت أجهل أين هي نيتي.

قالت شوغ: لقد كان يخبئ رسائلك.

قلت: لا، السيد ـــــ لئيم أحياناً، لكن ليس لهذه الدرجة.

قالت: هراء، هو لئيم لهذه الدرجة.

سألتها: ولكن كيف فعل ذلك. يعرف أن نيتي تعني لي العالم بأسره.

قالت شوغ إنها لا تعرف، إلا أننا سنكتشف معاً الإجابة.

سرقنا الرسالة مجدداً وأعدناها إلى جيب السيد ـــــ.

وتجول طوال اليوم وهي في معطفه. لم يأتِ على ذكرها أبداً. اكتفى

بتبادل الحديث والضحكات مع غرادي وهاربو وسوين، وحاول تعلم قيادة سيارة شوغ.

راقبته عن كثب، بدأت أشعر بلمع في رأسي. وقبل تبيّن أي شيء كنت واقفة خلف كرسيه وموسى الحلاقة مفتوح.

ثم سمعت ضحكة شوغ، وكأن هناك شيئاً طريفاً للغاية. قالت لي: أعرف أنني أخبرتك بحاجتي لشيء ما أقص به الزائدة اللحمية على ظفري، لكن ألبرت يتصرف كزنجي صرف بخصوص موسه.

نظر السيد ـــــ خلفه. قال: ضعي هذا جانباً. النساء، دائماً ما يحتجن قص هذا وحلاقة ذاك، ودائماً ما يخربن الشفرة.

أصبحت يد شوغ على الموسى الآن. قالت: آه، يبدو ثلماً على أي حال. أخذته وأعادته إلى صندوق الحلاقة.

طوال اليوم كنت أتصرف مثل صوفيا تماماً. أتلعثم. أتمتم لنفسي. أهيم على وجهي في البيت طالبة دم السيد ـــــ. أتخيله صريعاً وأنوّع من طرق قتله. ومع حلول الليل، لم أعد قادرة على الكلام. في كل مرة أفتح فيها فمي يخرج كل ما هو خالٍ من الكلمات.

أخبرت شوغ الجميع بأنني مصابة بالحمى وأودعتني السرير. قالت للسيد ـــــ: قد تصاب بالعدوى. ربما من الأفضل أن تنام في مكان آخر. بقيتْ إلى جانبي طوال الليل. لم أنم. لم أبكِ. ما فعلت شيئاً. سكنني البرد. وبعدئذٍ حسبت نفسي على حافة الموت.

أبقتني شوغ قريبة منها وكانت تحادثني أحياناً.

قالت: السبب الوحيد الذي دفع أمي لكرهي هو شبقي. لم تحب يوماً الإتيان بأي شيء على اتصال بلمس أحد ما... حاولتُ تقبيلها، أشاحت بفهما عني. قالت: توقفي عن ذلك يا ليلي. ليلي هو اسم شوغ الحقيقي. وهي حلوة للغاية كالسكر فأطلقوا عليها اسم شوغ[13].

13 – شوغ من «شوغر» Suger أي سكّر. (المترجمة).

أحب أبي تقبيلي ومعانقتي، وهي ما كانت لتطيق رؤية ذلك. وهكذا حين قابلتُ ألبرت، وطوقني بذراعيه، ما كان لشيء أن ينتزعني منهما. قالت: كان الأمر ممتعاً، أيضاً. أنت تعرفين أنني أنجبت ثلاثة أطفال منه وهو ضعيف الآن، لابدّ أنه كان أمراً ممتعاً.

أنجبت جميع أولادي في المنزل، أيضاً. جاءت القابلة، وأبونا الواعظ، وجاءت جوقة من النساء المؤمنات من الكنيسة. وكنت كلما تألمت بما ينسيني اسمي، كانوا يجدون في ذلك الوقت المناسب للتوبة.

ضحكتْ. كنت منتفخة خرقاء تستعصي عليها التوبة. ثم أردفت: لقد أحببت ألبرت ـــــ.

لم أطق الحديث عن شيء. كنت مسكونة بالسلام والسكينة. لا مكان لألبرت، ولا شوغ، ولا شيء.

قالت شوغ: حين أنجبت آخر أطفالي، قاموا بطردي. وذهبت للعيش مع شقيقة أمي الجامحة في ممفيس. قالت أمي: إنها مثلي تماماً. تثمل، وتقاتل، ومتيمة بالرجال حدّ الموت. تعمل طاهية في نزُل على الطريق. تطعم خمسين رجلاً، وتضاجع خمسة وخمسين.

واستفاضت شوغ في الحديث والرقص. ما كان لأحد أن يرقص مثل ألبرت عندما كان شاباً. كنا نرقص أحياناً رقصة «الموتشي» لساعة كاملة، ولا يتبقى لنا سوى الذهاب إلى مكان والاستلقاء. وكم كان مرحاً. *خفيف الظل*. لا يفارقني الضحك معه. تساءلتْ: ما الذي حلّ بمرحه وخفة دمه؟ لماذا بالكاد تفترّ شفتاه عن ابتسامة؟ لماذا لا يرقص؟ يا إلهي الرحيم، ماذا جرى يا سيلي للرجل الذي أحببته؟

صمتتْ لبرهة. ثم أردفت: تفاجأت كثيراً عندما علمت بنيته الزواج من آني جوليا. كانت مفاجأة مؤلمة. لم أصدّق. على كلٍّ، كلانا كان يعرف أن على الحب أن يتخطى ما كنا عليه. كان يستحيل تحسين حبنا. هذا ما اعتقدته.

قالت: لكنه كان ضعيفاً. أخبره والده بأنني حثالة، كذا هي أمي أيضاً. وأخوه قال الشيء ذاته. سعى ألبرت للدفاع عن حبنا، لكنه أخفق. ومن أحد الأسباب التي ساقوها له وتحول دون الزواج مني هي أن لديّ أطفالاً.

قلت للسيد ـــــ العجوز: لكنهم *أطفاله*.

سألني: وكيف لنا أن نعرف؟

قالت شوغ: لم تحظَ آني جوليا المسكينة بفرصة قط. كنت لئيمة وجامحة جداً. يا إلهي. قلت لن أبالي بمن سيتزوج، سأواصل مضاجعته في كل الأحوال. التقطت أنفاسها وأضافت: وهذا ما فعلته. تضاجعنا كثيراً على الملأ وأحيطت المضاجعة بفحش عارم.

قالت: لكنه ضاجع آني جوليا أيضاً، وما نالها من مشاعره شيء. عائلتها نسيتها حالما تزوجت. ثم بدأ هاربو وبقية الأطفال بالقدوم. وصارت أخيراً تنام مع ذلك الرجل الذي أطلق النار عليها. ضربها ألبرت. أرهقها الأولاد. أتساءل أحياناً بماذا كانت تفكر عندما ماتت.

أنا أعرف بماذا أفكر، كما أظن. لا شيء. وأفكر باللاشيء قدر استطاعتي.

قالت شوغ: كانت آني جوليا معي في المدرسة. كانت جميلة بحق، سوداء، وبشرتها ناعمة للغاية، وعيناها كبيرتين تشبهان قمرين. ورقيقة أيضاً. اللعنة، أقسم بأنني أنا نفسي أحببتها. لماذا ألحقتُ بها كل هذا الأذى؟ عمدت أحياناً إلى إبعاد ألبرت عن المنزل لأسبوع. كانت تأتي وتستجديه المال لشراء البقالة من أجل الأطفال.

شعرت ببضع قطرات من الدمع فوق يدي.

قالت شوغ: وعندما جئت إلى هنا، تعاملت معك بلؤم شديد. كما لو كنت خادمة. وكل هذا لأن ألبرت تزوجك. وأنا لم أكن أريده حتى زوجاً لي. لم أتمنَ يوماً أن يكون زوجي. لكن كنت أريد أن يختارني

أنا دون سواي، كما تعرفين، لأن الطبيعة قد فعلت ذلك بالفعل. الطبيعة من جمعتكما، لأنكما مثال جيد عن المسار الطبيعي للأمور. لم أتمنَ أن يكون أي شيء قادراً على الوقوف في وجه ذلك. ولكن العلاقة الجيدة التي كانت بيننا لم تكن أكثر من علاقة جسدين. لأنني لا أعرف ألبرت الذي لا يرقص، وبالكاد يضحك، ولا يتحدث عن أي شيء، يضربك ويخفي رسائل أختك نيتي. من هو؟

لا أعرف شيئاً، كما أظن. وأنا سعيدة لذلك.

عزيزي الله،

الآن وقد عرفت بأن ألبرت يخفي رسائل نيتي، فإنني اكتشفت تحديداً أين يخبئها. إنها في صندوقه. كل شيء ذو قيمة بالنسبة إليه موجود فيه. يبقي الصندوق مقفلاً بإحكام، لكن بإمكان شوغ الحصول على المفتاح.

ذات ليلة وبعد ذهاب السيد ـــــ وغرادي، فتحنا الصندوق. وجدنا الكثير من ملابس شوغ الداخلية، بطاقات بريدية ذات صور فاحشة، وفي أسفل تبغه، رسائل نيتي. حزم وحزم منها. بعضها ثخين، وبعضها رفيع. بعضها مفتوحة، وأخرى غير مفتوحة.

سألت شوغ: كيف سنفعل ذلك؟

قالت: الأمر بسيط. نخرج الرسائل من المغلفات، ونتركها كما هي تماماً. لا أعتقد أنه يلقي بالاً لهذه الزاوية من الصندوق.

سخنت الموقد، ووضعت القدر. قمنا بتعريض الظروف للبخار إلى أن أصبحت جميع الرسائل مفروشة على الطاولة. ثم أعدنا الظروف إلى داخل الصندوق.

قالت شوغ: سأضعها لك وفق ترتيبها.

قلت: نعم، لكن دعينا لا نفعل هذا هنا، لنذهب إلى غرفتك.

دخلنا إلى الغرفة الصغيرة. جلست شوغ على الكرسي الموجود بالقرب من السرير وجميع رسائل نيتي مفروشة حولها، جلستُ على السرير والوسائد خلف ظهري.

قالت شوغ: هذه هي الرسائل الأولى. ختمها البريدي هنا.

تقول الرسالة الأولى،

عزيزتي سيلي،

عليكِ أن تسعي جاهدةً للهرب من ألبرت. ليس شخصاً صالحاً.

حين تركت منزلكم مشياً على القدمين، تبعني على حصانه. عندما أمسى البيت بعيداً عن الأنظار أمسكني وراح يحادثني. تعرفين طريقته، لا شك وأنك فاتنة، آنسة نيتي، وأشياء من هذا القبيل. حاولت تجاهله والإسراع من خطاي، لكن الحزم التي أحملها كانت ثقيلة والشمس حارقة. كان عليَّ بعدئذٍ أن أستريح، وحينها ترجّل عن حصانه وبدأ يسعى إلى تقبيلي، وجرّي إلى الغابة.

حسناً، قاومته، وبعون الله، آذيته بما يكفي ليدعني وشأني. كان غاضباً جداً. قال إن فعلتي هذه ستحرمني من سماع كلمة واحدة منك بعد الآن، ولن تسمعي مني أبداً.

كنتُ غاضبة جداً وأرتجف.

على كلٍّ، قام أحدهم بنقلي بعربته إلى البلدة. وهو الشخص نفسه الذي أرشدني إلى منزل السيد ـــــ الكاهن. ويا للمفاجأة حين فتحت الباب فتاة صغيرة لها نفس عينيك.

مع حبي،

نيتي

جاء في الرسالة الثانية،

عزيزتي سيلي،

أفكّر دائماً بأنه من المبكر جداً وصول رسالة منك. وأعرف كم أنت مشغولة مع أطفال السيد ـــــ. لكنني أفتقدكِ كثيراً. أرجوك اكتبي لي، متى أتيح لك. أفكر فيكِ كل يوم. كل دقيقة.

اسم السيدة التي قابلتها في البلدة كورين. اسم الطفلة الصغيرة أوليفيا. اسم الزوج صموئيل. اسم الصبي الصغير آدم. إنهم مؤمنون ومتدينون ويعاملونني بالحسنى. يعيشون في منزل جميل بجوار الكنيسة حيث يعظ صموئيل، ونمضي جلّ وقتنا في أعمال خاصة بالكنيسة. أقول «نحن» لأنهم يحاولون دائماً أن يشركونني في كل ما يفعلونه، ولهذا لا أشعر بأنني منبوذة أو وحيدة.

ولكن يا إلهي، اشتقت إليكِ يا سيلي. أفكّر بما ضحيتِ به من أجلي. أحبك من أعماق قلبي.

أختك،

نيتي

جاء في الرسالة التالية،

سيلي الأغلى،

أنا على حافة الجنون. أعتقد أن ألبرت أخبرك حقيقة أنه لن يعطيك أي رسالة. الشخص الوحيد الذي بمقدوره مساعدتنا هو بابا، ولكن لا أريده أن يعرف أين أنا.

سألت صموئيل إن كان بإمكانه زيارة السيد ـــــ، فقط للاطمئنان عليكِ. قال إنه لا يستطيع المجازفة في أن يحشر نفسه بين رجل وزوجته، لا سيما وأنه لا يعرفهما. هو وكورين يعاملانني بمنتهى اللطف. لكن قلبي يتمزق. يتمزق لأنني لا أستطيع العثور على أي عمل في هذه البلدة، ويتعين عليّ الرحيل. بعد رحيلي، ماذا سيحدث لنا؟ كيف لنا أن نعرف ما يحصل؟

كورين وصموئيل والطفلان جزء من مجموعة تطلق على نفسها اسم «المبشرون»، وينتمون إلى جمعية التبشير الأميركية الإفريقية. كانوا كهنة الهنود في الغرب وهم الآن كهنة فقراء هذه البلدة. وهم يستعدون لما يؤمنون بأنهم وجِدوا لأجله، ألا وهو العمل التبشيري في أفريقيا.

أخشى مفارقتهم ذلك أنهم أصبحوا في وقت قصير أشبه بعائلتي، وبأحسن ما تكون عليه العائلة.

مع حبي، نيتي

الرسالة التالية سميكة، وتاريخها يفصله شهرين عن سابقتها، وجاء فيها،

عزيزتي نيتي،

كتبتُ إليك رسالة في كل يوم تقريباً بينما كنا على متن السفينة المتجهة إلى أفريقيا. هيمن عليّ شعور بالإحباط ما إن رست السفينة، مزقت الرسائل ورميت القصاصات الصغيرة في المياه. لن يسمح لك ألبرت بتلقي رسائلي فما فائدة كتابتها. هذا ما شعرت به عندما مزقتها وأرسلتها لك عبر الأمواج. غير أن شعوري مختلف الآن.

أتذكر قولك في إحدى المرات إن حياتك تدفعك للشعور بالعار لدرجة تعجزين فيها عن مخاطبة الله بها، كان عليك أن تكتبيها، ولو بالرداءة التي تصفين فيها كتابتك. حسناً، الآن بت أدرك قصدك. وسواء كان الله سيقرؤها أم لا، فإنك ستواصلين كتابتها؛ وفيها ما يكفي من الهداية بالنسبة إليّ. على أي حال، عندما لا أكتب يراودني شعور سيئ يشبه إحساسي عندما لا أصلّي، حينها أنغلق على نفسي وينقبض قلبي. أنا *وحيدة* جداً يا سيلي.

يعود سبب تواجدي في أفريقيا إلى مبشّرة كان من المفترض أن ترافق كورين وصموئيل لمساعدة الأطفال وتجهيز إحدى المدارس إلا أنها تزوجت فجأة من رجل كان يخشى رحيلها، ورفض المجيء معها إلى أفريقيا. ووجدوا أنفسهم في موقف صعب، كل شيء معدّ، وها هي تذكرة سفر قد أصبحت فجأة متاحة وما من مبشر للسفر بها. في الوقت ذاته، لم أتمكّن من إيجاد عمل في أي مكان من البلدة. ولكني لم أحلم

يوماً بالذهاب إلى أفريقيا! حتى إنني لم أفكر فيها مطلقاً بوصفها مكاناً حقيقياً، رغم أن صموئيل وكورين وحتى الولدين يتحدثون عنها طيلة الوقت.

كانت الآنسة بيزلي تقول عنها إنها مكان يسوده المتوحشون العراة. حتى كورين وصموئيل اعتقدا ذلك لبعض الوقت، إلا أنهما يعرفان عنها أكثر بكثير مما تعرفة الآنسة بيزلي أو أي من الأساتذة الأربعة الذين درّسونا، وعلاوة على ذلك، فإنهما يتحدثان عن كافة الأعمال الصالحة التي يستطيعان فعلها للمضطهدين المتحدرين منهم. أولئك البشر المحتاجون للمسيح والمشورة الطبية السديدة.

في يوم من الأيام كنت بصحبة كورين في البلدة ورأينا زوجة العمدة وخادمتها. كانت زوجة العمدة تتسوّق - تدخل متجراً وتخرج من آخر - وكانت خادمتها تنتظرها في الشارع وتأخذ منها الأكياس. لا أعرف إن كنت قد رأيتِ زوجة العمدة من قبل. تبدو مثل قطة مبللة. فيما خادمتها كانت آخر شخص في العالم تتوقعين منه انتظار أحد، فما بالك إن كانت تنتظر شخصاً بهذه الهيئة.

حادثتها. إلا أن مجرد الحديث بدا أمراً محرجاً بالنسبة إليها وسرعان ما محت نفسها وتلاشت. كان هذا غريباً جداً يا سيلي! في دقيقة كنت أسأل سيدة حية كيف تسير الأمور معها. وفي الدقيقة التالية فارقها كل ما هو حي. أمست مجرد شبح.

فكرت طوال تلك الليلة بها. ثم أخبرني صموئيل وكورين عما تناهى إلى سمعهما حول إرغامها على أن تصبح خادمة العمدة. لقد تهجمت على العمدة، ومن ثم أخرجها هو وزوجته من السجن للعمل في منزلهما.

بدأت في الصباح بالتساؤل عن أفريقيا وشرعت بقراءة كتب صموئيل وكورين المتعلقة بهذا الموضوع.

هل تعرفين أن مدناً عظيمة كانت قبل آلاف السنوات في أفريقيا، أعظم من ميلدغفيل أو حتى أتلانتا؟ وأن المصريين الذين بنوا الأهرامات

واستعبدوا الإسرائيليين كانوا ملوتين؟ وأن مصر في أفريقيا؟ وأن إثيوبيا التي قرأنا عنها في الإنجيل تشمل كل أفريقيا؟

حسناً، قرأت وقرأت إلى أن أحسست بأن عينيَّ ستقعان. قرأت أين قام الأفارقة ببيعنا لأنهم أحبوا المال أكثر من أخواتهم وأخوتهم. وكيف جئنا إلى أميركا بالسفن. وكيف أُرغمنا على العمل.

لم أكن أعرف أنني كنت *جاهلة* إلى هذا الحد يا سيلي. النزر اليسير الذي أعرفه عن نفسي لا يملأ كشتباناً واحداً! أنا التي كانت الآنسة بيزلي تقول عني دائماً إنني أذكى طفلة علمتها في حياتها! ولكن ثمّة شيئاً واحداً أدين لها به، أنها علمتني كيف أعلّم نفسي بنفسي، عبر القراءة والدراسة والكتابة بصفاء. ولأنها أبقت جذوة الرغبة بالمعرفة حيّة في داخلي. ولهذا عندما سألني كلٌّ من كورين وصموئيل إن كنت أرغب بالذهاب معهم ومساعدتهم على بناء مدرسة في أواسط أفريقيا، وافقت. ولكن بشرط أن يعلماني كل شيء يعرفانه ويجعلا مني مبشّرة نافعة وشخصاً لن يخجلا من صداقته. وافقا على هذا الشرط، وحينها بدأ تعليمي الحقيقي.

التزما بتعهدهما. ودرست كل شيء ليلاً ونهاراً.

آه يا سيلي، هناك أناس ملونون في العالم يريدون لنا أن نعرف! وأن نكبر ونرى النور! ليسوا لؤماء مثل أبي وألبرت، أو مسحوقين مثل أمي. الحياة الزوجية لكورين وصموئيل رائعة. كان مصدر حزنهما الوحيد في بداية زواجهما آتٍ من عدم قدرتهما على الإنجاب. ومن ثم، صارا يقولان: أرسل «الله» إليهما أوليفيا وآدم.

أردت أن أقول «الله» أرسل لكما أختهما وخالتهما، ولكنني أحجمت عن ذلك. أجل، أطفالهما، اللذان أرسلهما «الله» هما طفلاك يا سيلي. وقد ترعرعا على الحب، والإحسان المسيحي، وتقوى الله. والآن أرسلني «الله» لأحيطهما بعنايتي، وأشملهما بالحماية والدلال. لأقدم لهما بسخاء كل الحب الذي أحمله في قلبي لكِ. إنها معجزة، أليست كذلك؟ من المستحيل أن تصدقي ذلك.

ولكن من ناحية أخرى، إن استطعتِ تصديق أنني في أفريقيا، حيث أنا الآن، فباستطاعتك تصديق أي شيء.

أختك، نيتي

الرسالة التي تلت السابقة جاء فيها،

عزيزتي سيلي،

بينما كنا في البلدة اشترت كورين قماشاً لتصنع لي مجموعتين من ملابس السفر. واحدة باللون الأخضر الزيتوني والأخرى بالرمادي. تنانير طويلة مكسرة وسترات لارتدائها مع بلوزات قطنية بيضاء وأحذية عالية. كما اشترت لي قبعات نسائية بشرائط من مربعات شطرنجية.

مع أنني أعمل لدى كورين وصموئيل وأعتني بالطفلين، إلا أنني لا أشعر بأنني خادمة. أعتقد أن مرد ذلك إلى أنهما يقومان بتعليمي، وأنا أعلّم الطفلين ولا توجد بداية أو نهاية للتعليم والتعلم والعمل، جميعهم يعملون معاً.

كان وداع مجموعتنا في الكنيسة قاسياً. إلا أنه سعيد أيضاً. جميعهم عقدوا آمالاً عريضة على ما سنقوم به في أفريقيا. كانت مقولة تعلو المنبر مفادها: *ستفتح إثيوبيا ذراعيها مرحبة بالله*. تذكري أن إثيوبيا تعني أفريقيا! جميع الإثيوبيين في الإنجيل كانوا ملونين. لم يتبادر هذا إلى ذهني قط، رغم أن هذا جليّ تماماً إذا قرأتِ الإنجيل متمعنة بكلماته. إنها الصور التي تخدعنا في الإنجيل. الصور التوضيحية. يظهر الجميع بيضاً فتعتقدين بأن كل البشر المذكورين فيه بيض أيضاً. ولكن في الحقيقة فإن الناس *البيض* كانوا يعيشون في مكان آخر في تلك الأزمنة. ولهذا يقول الإنجيل إن شعر يسوع المسيح كان كصوف الحمل. صوف الحمل ليس مسترسلاً يا سيلي. ولا بالأجعد.

ماذا بوسعي إخبارك عن نيويورك، أو حتى عن القطار الذي حملنا إلى

هناك! كان علينا أن نستقل القسم المتضمن المقاعد في القطار، ولكن يا سيلي، ثمّة أسرّة في القطار! ومطعم! ودورات مياه! تخرج الأسرّة من الجدران، فوق المقاعد، واسمها مراقد. وحدهم البيض من يحقّ لهم ركوب قسم الأسرّة واستخدام المطعم. ولديهم دورات مياه مختلفة عن دورات مياه الملونين.

سألنا رجل أبيض على رصيف محطة ساوث كارولاينا عن وجهتنا، كنا قد ترجلنا من القطار لاستنشاق بعض الهواء النقي ونفض الغبار والتراب عن ثيابنا. عندما قلنا له إلى أفريقيا بدا وكأن شيئاً ما أهانه ودغدغه في الوقت ذاته. قال لزوجته: زنوج يذهبون إلى أفريقيا. ها قد رأيت كل شيء.

عندما وصلنا إلى نيويورك كنا متعبين ومتسخين. ولكن كنا متشوقين للغاية! اسمعي يا سيلي، نيويورك مدينة *جميلة*. والملونون يقطنون حياً بأكمله، اسمه هارلم. هناك ملونون يركبون سيارات أكثر فخامة مما تصورت، ويعيشون في منازل أجمل من منزل أي شخص أبيض في نواحينا. هناك ما يزيد عن مائة كنيسة! وذهبنا إليها جميعها. ووقفت أمام كل حشد برفقة صموئيل وكورين والطفلين، وكانت أفواهنا تفغر أحياناً أمام كرم وطيبة قلب سكان هارلم. يعيشون بجمال وكرامة يا سيلي. ويبذلون العطاء إثر العطاء ثم يجذلونه من القليل المتبقي لديهم عند سماع اسم «أفريقيا».

إنهم *يحبون* أفريقيا. يدافعون عنها من دون تردد. وبالمناسبة، لو قمنا بتمرير قبعاتنا لوحدها لما كانت ستكفي لحمل جميع التبرعات التي قُدِّمت لمؤسستنا. حتى الصبية الصغار أخرجوا قروشهم. وقالوا نرجوكم أن تهبوها لأطفال أفريقيا. كانوا جميعهم يرتدون أزهى الحلل يا سيلي. أتمنى لو كان باستطاعتك رؤيتهم. هناك موضة للصبية رائجة في هارلم الآن يطلقون عليه اسم «نيكرز» – وهي سراويل قصيرة ومنفوخة، تضيق بشدة فوق الركبة بقليل – وبالنسبة للفتيات فإنهن يضعن أكاليل

من الأزهار على شعورهن. لا بد أنهم أجمل الأطفال على وجه الأرض، ولم يكونوا ليفارقوا ناظري آدم وأوليفيا.

وكان هناك أيضاً ولائم العشاء التي دعينا إليها، موائد الفطور والعشاء والغداء. لقد زاد وزني خمسة أرطال جراء تذوق الأطعمة. لقد كانت شهيتي مفتوحة للأكل فعلاً.

وجميع الناس لديهم دورات مياه داخل منازلهم يا سيلي. وأضواء تعمل على الغاز أو الكهرباء!

درسنا لمدة أسبوعين لهجة الأولينكا، التي يتحدثها الناس في المنطقة. ثم أخضعنا طبيب (ملون!) لفحوص طبية وقدم لنا اللوازم الطبية التي سنحتاجها وستحتاجها القرية المضيفة لجمعية نيويورك التبشيرية. يدير الجمعية أناس من البيض لم يقولوا شيئاً بخصوص حرصهم على أفريقيا، تحدثوا فقط عن الواجب. هناك بالفعل سيدة بيضاء مبشرة تعيش غير بعيدة عن قريتنا في أفريقيا التي عاشت فيها على مدار العشرين سنة الماضية. قالت إن السكان الأصليين أحبوها رغم اعتقادها بأنهم أجناس مختلفة كلياً عما تسميه الأوروبيين. الأوروبيون أناس بيض يعيشون في مكان اسمه أوروبا. ومن هنا جاء البيض المتواجدون في بلادنا. تقول إن الأقحوان الإفريقي والآخر الإنجليزي كلاهما من الزهور، ولكنهما نوعان مختلفان تماماً. يقول الرجل في الجمعية إنها ناجحة لأنها لا «تبالغ» في اهتمامها. وتتحدث لغتهم. كان رجلاً أبيض من يخاطبنا وينظر إلينا كما لو أننا لا نستطيع مضاهاة هذه السيدة في حسن تعاملها مع الأفارقة.

هبطت معنوياتي بعض الشيء بعد انضمامي إلى الجمعية. وعلى كل حائط صورة لرجل أبيض. شخص ما يدعى سبيك، وآخر اسمه ليفينجستون. وهناك من اسمه دالي. أم إنه ستانلي؟ بحثت عن صورة للسيدة البيضاء ولكني لم أعثر على واحدة. وبدا صموئيل محبطاً بعض الشيء أيضاً، ثم استرد معنوياته وذكّرنا بأن لدينا ميزة كبيرة. نحن لسنا من

البيض، ولا من الأوروبيين. نحن سود كما هم الأفارقة. وإننا سنعمل مع الأفارقة في سبيل تحقيق هدف مشترك: الارتقاء بالسود في كل مكان.

أختك، نيتي

العزيزة سيلي،

صموئيل رجل ضخم. وما عدا ياقته الكهنوتية البيضاء، فإنه غالباً ما يكون متشحاً بالسواد. وهو أسود البشرة. ما لم تري عينيه فإنك ستعتقدين أنه بائس، لا بل لئيم، إلا أن لديه عينين هما أعمق وأعذب عينين بنيتين. عندما يقول شيئاً ما يقنعك، فهو لا يتسرع في ما يقول، ولا يثبط العزيمة ولا يؤذي المشاعر. لا بد أن كورين امرأة محظوظة بهذا الزوج.

لكن دعيني أخبرك عن السفينة! اسمها مالاغا، ومكونة من ثلاثة طوابق! أخذنا فيها غرفاً (تسمى مقصورات) تشتمل على أسرّة. ما أجمل أن تستلقي يا سيلي على سرير في عرض المحيط! والمحيط يا سيلي، فيه من المياه أكثر مما تتخيلين وجوده في مكان واحد. استغرقنا أسبوعين لاجتيازه! ثم أصبحنا في إنجلترا، وهي بلد مليء بالبيض وبعضهم لطيف للغاية ولديهم جمعيتهم التبشيرية الخاصة المعادية للعبودية. كانت الكنائس في إنجلترا أيضاً متحمسة جداً لمساعدتنا وقام رجال ونساء بيض، يشبهون تماماً الرجال والنساء البيض في بلادنا، بدعوتنا لحضور اجتماعاتهم وزيارة بيوتهم لاحتساء الشاي، والحديث عن عملنا. «الشاي» بالنسبة للإنجليز أشبه بنزهة حقيقية داخل البيت. الكثير من الشطائر والحلويات والشاي الساخن بالتأكيد. استخدمنا جميعنا الفناجين والأطباق نفسها.

الجميع قال إنني أبدو صغيرة جداً لأكون مبشّرة، ولكن صموئيل قال إنني مصممة وعازمة على ذلك، وأن مهامي، ستكون على أي حال، متمحورة حول مساعدة الأطفال والتعليم في صف أو صفين في رياض الأطفال.

بدأ يتضح عملنا أكثر في إنجلترا لأن الإنجليز دأبوا منذ ما يزيد عن مائة عام، على إرسال البعثات التبشيرية إلى أفريقيا والهند والصين والله أعلم أين أيضاً. وعادوا بأشياء كثيرة منها! أمضينا صباح يوم كامل في أحد متاحفهم وكان ممتلئاً بالمجوهرات، والأثاث، والسجاد المصنوع من الفرو، والسيوف والملابس، وحتى *القبور*، من جميع البلدان التي كانوا فيها. ومن أفريقيا كان لديهم *آلاف* المزهريات، والجرار، والأقنعة، والأطباق، والسلال، والتماثيل، جميعها فاتنة ومن الصعب تخيل أن الناس الذين صنعوها ما عادوا متواجدين. وحتى الإنجليز أكدوا لنا ذلك.

ورغم أن الأفارقة احتكموا في ما مضى على حضارة تفوقت على الحضارة الأوروبية (رغم أن الإنجليز بداهةً لا يقرون بذلك: عرفت هذا من خلال قراءة رجل اسمه جاي إيه روجرز) لقرون مترامية مروا فيها بأوقات عصيبة. «أوقات عصيبة» عبارة يحب الإنجليز تداولها، لدى الحديث عن أفريقيا. ومن السهل تناسي أن الـ«أوقات عصيبة» التي مرت بها أفريقيا قد أصبحت أكثر صعوبة بسببهم. ملايين وملايين من الأفارقة سيقوا وبيعوا عبيداً. أنا وأنت يا سيلي! ننتمي لمن دمرت مدنهم على خلفية حروب تمّ خوضها في سبيل النخاسة واستعباد البشر. اليوم شعوب أفريقيا - التي قتّلت وبيعت عبيداً على يد الأقوى منهم - سحقهم المرض وغرقوا في اضطرابات روحية وجسدية. يؤمنون بالشيطان ويعبدون الموتى. ولا يمكنهم القراءة أو الكتابة.

لماذا باعونا؟ كيف استطاعوا فعل ذلك؟ ولماذا لا نزال نحبهم؟ هذا ما راودني من أفكار عندما تجولنا في شوارع لندن الباردة. درست إنجلترا على الخريطة، منظمة للغاية وهادئة، وغمرني الأمل رغماً عني بأن تعافي أفريقيا ممكن، بالجد والاجتهاد والتفكير السليم. ثم أبحرنا إلى أفريقيا. غادرنا ساوثمبتون في إنجلترا في الرابع والعشرين من تموز ووصلنا إلى مونروفيا في ليبيريا يوم الثاني عشر من أيلول. وعلى الطريق توقفنا في لشبونة في البرتغال، وداكار في السنغال.

كانت مونروفيا آخر مكان أحطنا فيه بأناس ألفناهم نوعاً ما، لأنها بلد إفريقي تمّ «تأسيسه» على يد عبيد سابقين من أميركا عادوا للعيش في أفريقيا. تساءلت ما إذا كان أي من ذويهم أو أجدادهم قد بيع من مونروفيا، وكيف كانت مشاعرهم، عندما بيعوا كعبيد، والآن وقد عادوا، فإن صلات وثيقة تربطهم مع البلاد التي اشترتهم، ليحكموا.

سيلي، يجب أن أتوقف الآن. الشمس ليست حارقة جداً، ويجب أن أستعد للصفوف المسائية والخدمة الليلية.

أتمنى لو أنك معي، أو أنني معك.

مع حبي،

أختك، نيتي

سيلي الأغلى،

كان التوقف في مونروفيا من أكثر الأمور طرافة بعد استراقي النظر إلى أفريقيا، في السنغال. داكار هي عاصمة السنغال ويتحدثون هناك لغتهم الخاصة، أعتقد أنهم يسمونها اللغة السنغالية، والفرنسية أيضاً. إنهم أشدّ من قابلتهم سواداً يا سيلي. إنهم بسواد من نقصدهم بقولنا «فلان أكثر سواداً من الأسود، إنه أسود مزرق» إنهم فاحمون يا سيلي، إنهم يلمعون. وهذا شيء مختلف تماماً عن اللون الذي يتحدث عنه الناس في بلادنا عندما يشيرون إلى أناس سود بحق. ولكن يا سيلي، حاولي تخيل مدينة مليئة بهؤلاء الناس اللامعين، أناس سود مزرقون يرتدون أثواباً زرقاء أنيقة بتصاميم تشبه نماذج الرسم بالأقمشة الفاخرة. طويلون، ونحيلون، بأعناق طويلة وظهور مستقيمة. هل يمكنك تخيل هذا بأي شكل من الأشكال يا سيلي؟ فقد شعرت كما لو أنني أرى أناساً سوداً للمرة الأولى. ويا سيلي، ثمّة شيء سحري في الأمر. لأن الأسود أسود للغاية والعين مبهورة ببساطة، ومن ثم هناك اللمعان الذي يبدو أنه مأخوذ، بحق، من ضوء القمر، إنه مشع جداً، لكن بشرتهم تتوهج حتى تحت الشمس.

لكنني لم أحب كثيراً السنغاليين الذين التقيتهم في السوق. لا يهمهم شيء سوى بيع منتجاتهم. ما لم نشتر، فإنهم ينظرون إلينا شذراً كما يفعلون مع الفرنسيين البيض الذين يعيشون هناك. لم أتوقع رؤية أناس بيض في أفريقيا، لكنهم هنا بأعداد كبيرة. وليسوا كلهم مبشرين.

هناك ثلة منهم في مونروفيا، أيضاً. والرئيس، واسمه الأخير هو توبمان، اختار بعضهم لمجلس وزرائه. كما لديه الكثير من الرجال

الملونين الأشبه بالبيض في المجلس ذاته. وفي مساء اليوم الثاني لوصولنا إلى مونروفيا احتسينا الشاي في القصر الرئاسي. يشبه إلى حد كبير البيت الأبيض (حيث يعيش رئيسنا) كما يقول صموئيل. تحدث الرئيس قليلاً حول مشاكله مع السكان الأصليين، الذين لا يرغبون بالعودة لإعمار البلاد. كانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها رجلاً أسود يستخدم تلك الكلمة. كنت أعرف أن جميع الملونين بالنسبة للبيض هم سكان أصليون. إلا أنه تنحنح قائلاً إنه قصد فقط «السكان الأصليين» في ليبيريا. لم أر أياً من هؤلاء «الأصليين» في مجلس وزرائه. ولا زوجة من زوجات أعضاء مجلس الوزراء تبدو من الأصليين. ومقارنة بهن وبملابسهن الحريرية واللؤلؤ الذي يرتدينه، بدت ثيابنا أنا وكورين متواضعة جداً، ناهيك عما يرتدينه في المناسبات. أعتقد أن من التقيتهن من نساء يخصصن وقتاً طويلاً لأناقتهن. ومع ذلك، بدَونَ غير راضيات. على خلاف معلمات المدرسة المرحات اللواتي رأيتهن بالصدفة يجمعن طلابهن للذهاب إلى الشاطئ للسباحة.

قبل مغادرتنا زرنا إحدى أكبر مزارع الكاكاو لديهم. لا شيء سوى أشجار الكاكاو على مدّ النظر، والقرى برمتها مبنية وسط الحقول. راقبنا العائلات المرهقة العائدة إلى منازلها بعد يوم عمل شاق، لا تزال في أيديهم دلاء بذور الكاكاو (ويستخدمون هذه الدلاء لحمل الغذاء في اليوم التالي)، وأحياناً - إن كن نساء - يحملن أطفالهن على ظهورهن. وفوق تعبهن، يغنين! تماماً كما نفعل في بلادنا، يا سيلي. سألت كورين: لماذا يغني الناس المتعبون؟ قالت: لأنهم متعبون لدرجة لا يستطيعون معها فعل أي شيء آخر. إضافة إلى أنهم لا يملكون حقول الكاكاو يا سيلي، حتى الرئيس توبمان لا يملكها. أناس متواجدون في مكان اسمه هولندا يملكونها. إنهم من يصنعون الشوكولاتة الهولندية. ويوجد مراقبون للتأكد من أن الناس يعملون بجد، وهم يعيشون في بيوت حجرية في زوايا الحقول.

مجدداً يتعين عليّ الذهاب. الجميع نيام وأنا أكتب لك على ضوء المصباح. لكن الضوء يجذب الكثير من البق الذي ينهشني حية. لقد لسعت في كل مكان، حتى في فروة رأسي وأخمص قدمي.

ولكن ـــــ

هل سبق وحدثتك عن المرة الأولى التي رأيت فيها الساحل الإفريقي. شيء قُرِع في داخلي، في روحي، يا سيلي، مثل ناقوس كبير، وهزني. كورين وصموئيل انتابهما الشعور ذاته. ركعنا على الرصيف وشكرنا الله على رؤية الأرض التي بكت من أجلها أمهاتنا وآباؤنا - وعاشوا وماتوا - وهم يتطلعون إلى رؤيتها مجدداً.

أواه يا سيلي! هل سأستطيع يوماً إخبارك كل شيء؟

لا أجرؤ على السؤال. أعرف. ولكن سلّمي أمرك لله.

أختك المحبة دائماً، نيتي

عزيزي الله،

استغرقنا وقتاً طويلاً في قراءة أول رسالتين أو ثلاث، رفقة الصدمة، والنحيب، وسيلان الأنف، وسعينا لاستخلاص معاني كلمات نجهلها. وما إن وصلنا إلى أنها بخير ومستقرة في أفريقيا، عاد السيد ـــــ وغرادي إلى المنزل.

سألت شوغ: هل بإمكانك تدبر الأمر؟

قلت: كيف سأمنع نفسي من قتله.

قالت: لا تقتليه. ستعود نيتي إلى البلاد عما قريب. لا تجعليها تنظر إليكِ كما ننظر إلى صوفيا.

قلت: لكن هذا صعب للغاية. بينما كانت شوغ تفرغ حقيبتها وتضع الرسائل فيها.

قالت شوغ: من الصعب أن تكوني المسيح. لكنه أفلح في تجنب ذلك. تذكري أنه قال: لا تقتل. ولربما أراد أن يضيف إلى ذلك: ابتداءً مني. فقد عرف الحمقى الذين كان يتعامل معهم.

قلت: لكن السيد ـــــ ليس المسيح. أنا لست المسيح.

قالت: نيتي تكترث لأمرك. وستغضب إن تصرفت بطريقة مختلفة وهي في طريقها إلى البلاد.

سمعنا غرادي والسيد ـــــ في المطبخ. أطباق ترن، وباب الخزانة يفتح ويغلق.

قلت: كلا، أعتقد أنني سأشعر بتحسن إن قتلته. أشعر الآن بالإعياء والخدر.

كلا لن تشعري بتحسن. لا أحد يشعر بتحسن بعد قتل أي شيء. يبدو كما لو أنه شيء طاغ يختزل كل شيء.

هذا أفضل من لا شيء.

قالت: يا سيلي، نيتي ليست الوحيدة التي يتعين عليكِ القلق عليها.

سألت: مَنْ مثلاً؟

أنا يا سيلي، فكري بي قليلاً. يا آنسة سيلي، إن قتلتِ ألبرت، سيكون غرادي هو كل من تبقى لي. لا أطيق حتى مجرد التفكير في ذلك.

ضحكتُ، وأنا أفكر بأسنان غرادي الكبيرة.

قلت: أقنعي ألبرت بأن يسمح لي بالنوم معك من الآن فصاعداً، طالما أنك هنا.

وبطريقة أو بأخرى، أقنعته.

عزيزي الله،

ننام أنا وشوغ كأختين. عيناي تعشقان النظر إليها بقدر رغبتي المتقدة بألا أفارقها. حلمتاي هامدتان، وزري لا ينتصب قط. الآن أعرف أنني ميتة. قالت: لا، أنت فقط حانقة، وحزينة، رغبتك بالقتل تولّد هذا الشعور. لا تقلقي. سوف تستيقظ الحلمتان، وينتصب زرك من جديد.

قالت: أحب العناق، نقطة انتهى. نتعانق. لا يعوزنا شيء آخر.

قلت: أجل. العناق جيد. الاحتضان. كل هذا جيد.

قالت: في هكذا أوقات، أوقات السكون، يتوجب علينا فعل شيء مختلف.

سألتها: مثل ماذا؟

قالت وهي تتفحصني من رأسي إلى قدمي: حسناً، دعينا نصنع لك بعض السراويل.

قلت: وما حاجتي بها؟ لست رجلاً.

قالت: لا تكوني متكبّرة. بالكاد لديك فستان واحد لا يصلح لشيء. أثوابك لا شكل لها.

قلت: لا أعرف. السيد ـــــ لن يسمح لزوجته بارتداء السراويل.

قالت شوغ: ولمَ لا. تقومين بكل الأعمال هنا. كيف تحرثين الأرض وأنت ترتدين فستاناً، ولا تتعثرين به أو يعلق بالمحراث؟ هذا يفوق قدرتي على الفهم.

قلت: حقاً؟

نعم. وثمة شيء آخر، كنت أرتدي سراويل ألبرت كنوع من الغزل. وارتدى هو في إحدى المرات فستاني.

كلا لم يفعل.

بلى فعل. كان مرحاً للغاية. على خلاف حاله الآن. لكنه كان يحب رؤيتي وأنا أرتدي سروالاً. كان هذا أشبه بتلويح راية حمراء أمام ثور.

قلت: أف. تخيلت الأمر. ولم يعجبني ذلك على الإطلاق.

قالت شوغ: حسناً، تعرفين الرجال.

قلت: مَمَ سنصنعهم؟

قالت شوغ: يجب أن نستولي على زي عسكري. قماشها متين وجيد ومجاني.

قلت: جاك، زوج أوديسا.

قالت: حسناً. وسنقرأ في كل يوم رسائل نيتي ونخيط الثياب.

فكرت، الإبرة في يدي حلّت مكان الموسى.

لم تقل شيئاً آخر، دنت مني وعانقتني.

عزيزي الله،

الآن وقد عرفت أن نيتي حية ترزق بدأت بالتبختر. ورحت أفكر، متى عادت سنغادر هذا المكان. هي وأنا وطفلانا. كيف شكلهما؟. ولكن من الصعب التفكير بهما. لأكن صريحة، أشعر بالخزي. أكثر من شعوري بالحب. على أي حال، هل هما بخير؟ يتمتعون بفطرة سليمة وكل شيء؟ شوغ تقول إن الأطفال الذين جاؤوا نتاج سفاح القربى يتحولون إلى مغفلين. السفاح جزء من خطة الشيطان.

لكنني أفكر بنيتي.

كتبت لي: إن الطقس حار هنا يا سيلي. أحر من شهر تموز. أحر من شهري آب وتموز معاً. حار مثل طهي الغداء على موقد كبير في مطبخ صغير في شهري آب وتموز. حار.

عزيزتي سيلي،

قابلنا على متن السفينة أفريقياً من القرية التي سنستقر فيها. اسمه المسيحي هو جوزيف. قصير وسمين، تبدو يداه وكأنهما خاليتان من العظام. عندما صافح يدي شعرت وكأن شيئاً ناعماً ونادياً يسقط وكنت على وشك التقاطه. يتحدث القليل من الإنجليزية، تلك هي ما يُطلق عليها الإنجليزية الوسيطة. إنها مختلفة جداً عن إنجليزيتنا، ولكنها مألوفة بعض الشيء. ساعدنا في إنزال أمتعتنا من السفينة إلى القوارب التي جاءت لأخذنا. هذه القوارب هي فعلاً زوارق شجرية، كتلك التي كان الهنود يستخدمونها، الزوارق التي رأيتها في الصور. وبوجود كل المتعلقات التي بحوذتنا ملأنا ثلاثة منها، بينما حمل الزورق الرابع لوازمنا الطبية والتعليمية.

استمتعنا بأغاني المجدفين وهم يخوضون سباقاً في التجديف فيما بينهم للوصول إلى الشاطئ. لم يكترثوا كثيراً بنا ولا بحمولتنا. وحين وصلنا الشاطئ لم يكلفوا أنفسهم عناء مساعدتنا للترجل من القارب، وفي الحقيقة أوقعوا بعض مؤننا في المياه. وحالما حصلوا من صموئيل المسكين على إكرامية وهم يتوعدونه ويهددونه، قال جوزيف بأنها سخية جداً، انصرفوا منادين على مجموعة أخرى من الناس الذين كانوا ينتظرون نقلهم إلى السفينة.

الميناء جميل، إلا أن مياهه ضحلة جداً لترسو فيه السفن الضخمة. وهذا ما يوفر عملاً مزدهراً للمجدفين، أثناء موسم عبور السفن. هؤلاء المجدفين كانوا أضخم بشكل ملحوظ من جوزيف بعضلات مفتولة أكثر، على الرغم من أن لونهم جميعاً، ومعهم جوزيف، أسمر بلون

الشوكولاتة. ليسوا سوداً، مثل السنيغاليين. وجميعهم يا سيلي يحتكمون على أقوى وأنظف وأبيض أسنان رأيتها في حياتي! فكّرت كثيراً بالأسنان أثناء الرحلة، لأنني عانيت من آلامها طوال الوقت تقريباً. تعرفين مدى عفونة أسناني الخلفية. وفي إنجلترا صعقت من أسنان الناس هناك. معوجة، عادةً، ومائلة إلى السواد ومسوسة. وتساءلت إن كانت المياه الإنجليزية هي السبب. ولكن أسنان الإفريقيين ذكرتني بأسنان الخيول، فهي متراصة بشكل كامل ومستقيمة وقوية.

يماثل ميناء «البلدة» بحجمه مخزن الأدوات المنزلية في بلدتنا. في داخله أكشاك مليئة بالأقمشة والمصابيح والزيوت، والناموسيات وفرش التخييم وأراجيح شبكية وفؤوس ومعاول ومناجل وأدوات أخرى. يدير كامل المكان رجل أبيض. يشغل الأفارقة بعض الأكشاك التي تبيع الغلال. وأطلعنا جوزيف على أشياء نحتاج شراءها. إناء حديدي كبير لغلي المياه وملابسنا، حوض من الزنك. وناموسيات. ومسامير. ومطرقة، ومنشار ومعول. زيت ومصابيح.

ونظراً لعدم وجود مكان للمبيت في الميناء، استأجر جوزيف بعض الحمّالين المتواجدين بين الشبان المتسكعين حول المحطة التجارية وغادرنا المكان فوراً نحو أولينكا، ومشينا في الأدغال قرابة أربعة أيام. وهي الغابة بالنسبة إليك. أو ربما ليست كذلك. هل تعرفين ما هي الأدغال؟ حسناً. أشجار وأشجار والمزيد من الأشجار فوقها. وكبيرة. كبيرة جداً كما لو تمّ بناؤها. وكروم. وسراخس. وحيوانات صغيرة. وضفادع. وأفاعٍ أيضاً، حسب ما يقول جوزيف. ولكن الشكر لله لم نر أياً منها، فقطّ سحالي حدباء حجمها بحجم ذراعك ويقوم الناس هنا بالتقاطها وأكلها.

جميع من في هذه القرية يحبون اللحوم. إن عجزت بشتى السبل عن حثهم على القيام بشيء، ما عليك إلا ذكر اللحوم، إن تصادف وجود قطعة صغيرة منها، أو رغبتِ بأن يقوموا بشيء أكبر، تحدثي عن الشواء. أجل، الشواء. يذكروننني بالناس في بلادنا.

ها قد وصلنا إلى هنا. وحسبت بأنني لن أتخلص من تشنجات وركيّ جراء حملي بواسطة الأرجوحة طيلة الطريق. تجمهر سكان القرية حولنا. خرجوا من أكواخ صغيرة مستديرة حسبتها مسقوفة قشاً إلا أنها كانت في الحقيقة مكسوة بنوع من أوراق الشجر الذي ينمو في كل مكان. يقطفونها ويجففونها ويبسطونها فتتداخل وتصبح أسقفاً واقية من المطر. العمل من نصيب النساء في هذا الجزء.

الرجال يجلبون الأوتاد إلى الكوخ وأحياناً يساعدون في بناء الجدران باستخدام الطين والصخور التي يجلبونها من الجداول.

لا يمكن أن تكوني قد رأيت وجوهاً فضولية كتلك التي أحاطونا بها سكان تلك القرية.اكتفوا بداية بالنظر. ثم لمست امرأة أو اثنتان فستاني وفستان كورين. كانت حاشية فستاني متسخة جداً بسبب جرّه على الأرض لثلاث ليالٍ أمضيتها في الطهو على نار المخيم، وكنت خجلة من نفسي. ثم ألقيت نظرة على الفساتين التي كن يرتدينها. بدت معظمها كما لو أنها مسحت زريبة خنازير. ومقاساتها غير ملائمة. ثم رفعن أيديهن قليلاً – لم تتفوه أي منهن بحرف حتى الآن – ولمسن شعرنا. ثم نظرن نحو الأسفل إلى أحذيتنا. نظرنا إلى جوزيف. فقال لنا إنهن يتصرفن على هذا النحو لأن المبشرين الذين جاؤوا قبلنا كانوا من البيض، والعكس صحيح.

سبق لبعض الرجال أن قصدوا الميناء من قبل، ورأوا التجار البيض، لذلك فإنهم يعرفون أن الرجال البيض مختلفين أيضاً. ولكن النسوة لم يذهبن أبداً إلى الميناء والشخص الأبيض الوحيد الذي شاهدنه كان المبشر الذي دفنوه قبل سنة.

سأل صموئيل إذا ما كانوا قد شاهدوا المبشرة البيضاء المتواجدة على بعد عشرين ميلاً، وأجاب جوزيف نافياً. عشرون ميلاً في الأدغال رحلة طويلة جداً. قد يمضي الرجال للصيد مسافة عشرة أميال من القرية، ولكن النسوة يبقين ملاصقات لأكواخهن وحقولهن.

ثم طرحت إحدى النسوة سؤالاً. نظرنا إلى جوزيف. قال إن المرأة تريد أن تعرف إن كان الولدان ولداي أم ولدا كورين أم كلينا معاً. قال جوزيف إنهما ولدا كورين. نظرت المرأة إلى كلتينا، وقالت شيئاً آخر. نظرنا إلى جوزيف. ترجم لنا أن المرأة قالت إن الولدين يشبهانني. ضحكنا بوجل.

ثم طرحت سيدة أخرى سؤالاً. أرادت أن تعرف إن كنت أيضاً زوجة صموئيل.

قال جوزيف: لا، وأشار إلى أنني مبشرة مثل صموئيل وكورين. ثم قال أحدهم إنهم لم يعتقدوا يوماً بأن للمبشرين أطفالاً. ثم قال آخر بأنه ما حلم بيوم يكون فيه المبشرون من السود.

وقال أحدهم إن كون المبشرين الجدد من السود واثنين منهم من النساء، كان حلماً راوده ليلة أمس فقط.

حينها ساد الكثير من الصخب. بدأت رؤوس صغيرة بالبروز من خلف تنانير الأمهات وفوق أكتاف الشقيقات. وتجولنا في القرية، بين قرابة الثلاثمائة من سكانها، جرفونا معهم إلى مكان من دون جدران ولكن بسقف مصنوع من أوراق الشجر، حيث جلسنا جميعاً على الأرض، الرجال في المقدمة، والنساء والأطفال خلفهم. ثم علا صوت تمتمات بين الرجال العجائز الذين بدوا أشبه برجال الكنيسة في بلادنا - يرتدون سراويلهم المنفوخة ومعاطفهم اللامعة التي لا تناسب مقاساتهم - هل يشرب المبشرون السود نبيذ النخيل؟

تبادلت كورين وصموئيل النظرات. لكنني أنا والأطفال كنا قد بدأنا بشربه بالفعل، لأن أحدهم كان قد وضع الكؤوس البنية المصنوعة من الطين في أيدينا وكنا من التوتر بحيث لم نستطع مقاومة أخذ رشفة منها.

وصلنا إلى هناك قرابة الساعة الرابعة، وجلسنا تحت مظلة مصنوعة من أوراق الشجر لغاية التاسعة. تناولنا أولى وجبات طعامنا وكانت مؤلفة من يخنة الدجاج والفستق (الفول السوداني) الذي احتسيناه

بأصابعنا. وأمضينا أغلب الوقت في الاستماع إلى الأغاني ومشاهدة الرقصات التي أثارت الكثير من الغبار.

تركز الجزء الأكبر من الحديث في حفل الاستقبال حول «الرووفليف» أوراق نبات الأسطح، والتي شرحها لنا جوزيف بينما كان أحد القرويين يقص علينا الحكاية المتمحورة حولها. يعتقد سكان هذه القرية أن هذا النبات لطالما نما فوق هذه البقعة من الأرض التي عليها بُنيت قريتهم. وأنها جلبت لهم الخير. زرعوا حقول الكاسافا والفول السوداني وكانت محاصليهما وافرة. زرعوا البطاطا والقطن والذرة البيضاء. زرعوا جميع أنواع النباتات. ولكن في قديم الأزمان، أراد أحد رجال القرية الحصول على أكثر من حصته من الأرض لزراعتها. أراد المزيد من المحاصيل لاستخدام الفائض في التجارة مع البيض المتواجدين على الساحل. كان زعيماً حينها، وبدأ تدريجياً يأخذ المزيد والمزيد من الأرض المشاع، وتزوج المزيد والمزيد من النساء للعمل فيها. ومع ازدياد جشعه بدأ أيضاً بزرع الأرض التي ينمو فوقها «الرووفليف» نبات أوراق الأسطح. حتى نساؤه غضبن من هذا وحاولن التذمر، لكن كن نسوة كسولات ولم يكترث لهن أحد. لا يتذكر أحد زمناً كان فيه «الرووفليف» لا ينمو بكميات وافرة. وفي نهاية المطاف، أخذ الزعيم الجشع الكثير من هذه الأرض حتى إن العجائز ضاقوا ذرعاً. ولهذا قام ببساطة بشرائها لقاء فؤوس وملابس وأواني طهي حصل عليها من تجار الساحل.

بيد أن عاصفة كبيرة هبت خلال موسم الأمطار ودمرت أسطح جميع الأكواخ في القرية، واكتشف الناس مذعورين اختفاء «الرووفليف». ولم يعثروا على أي من هذا النبات رغم نموه منذ سالف الأزمان، وكان هناك كاسافا. وذرة بيضاء. وفول سوداني.

على مدار ستة أشهر ألحقت السماء والرياح الأذى بسكان أولينكا. هطل المطر كالرماح، كشط الطين عن جدرانهم كالسكين. كانت الريح عاتية لدرجة خلخلت صخور الجدران وألقت بها في أواني الطبخ.

ثم انهمرت من السماء حجارة متجمدة، أشبه بحبوب الذرة البيضاء، ولم تستثنِ أحداً، الرجال والنساء والأطفال على حدٍّ سواء، وأصابتهم بالحمى. سقط الأطفال أولاً ضحايا المرض، ثم ذووهم. وسرعان ما بدأت القرية تلفظ أنفاسها الأخيرة. ومع نهاية موسم الأمطار، اندثر نصف القرية.

صلى الناس لآلهتهم وانتظروا بنفاد صبر تبدّل الموسم. وحالما توقف المطر عن الهطول اندفعوا إلى أسرّة «الرووفليف» وحاولوا العثور على الجذور القديمة. ولكن العدد اللامتناهي الذي لطالما نما هناك، لم يتبق منه سوى قلة قليلة. مضت خمس سنوات قبل أن يصبح النبات وافراً مجدداً. أعداد كبيرة منهم رحلوا، ولم يعودوا قط. كثيرون منهم التهمتهم الحيوانات. والعديد العديد سقطوا صرعى المرض. أُعطي الزعيم الأواني التي اشتراها من المتاجر وأجبر على الرحيل عن القرية للأبد. وأُعطيت زوجاته لرجال آخرين.

وفي يوم أصبحت فيه جميع أسطح الأكـواخ مغطاة مجدداً بـ«الرووفليف»، احتفل القرويون بالغناء والرقص ورواية حكاية هذا النبات، فأصبح مما يعبدون.

مع انتهاء الحكاية نظرت من فوق رؤوس الأطفال، رأيته يتقدم ببطء نحونا، شيء بني شائك ضخم بحجم غرفة، بدزينة من الأرجل تمشي ببطء وحذر تحته. عندما وصل إلى حيث كنا، ركع الناس له، وأهدي إلينا، لقد كان سطحنا.

قال جوزيف: المبشرون البيض الذين جاؤوا قبلكم لم يسمحوا لنا بإقامة هذه الطقوس. لكن سكان أولينكا يحبونها كثيراً. نعلم أن النبات الذي نصنع منه الأسقف ليس يسوع المسيح، ولكن بتواضعه الخاص، أليس له أن يكون رباً؟

وهكذا جلسنا هناك يا سيلي، وجهاً لوجه مع إله أولينكا. وكنت متعبة جداً يا سيلي وأشعر بالنعاس الشديد وممتلئة بيخنة الدجاج والفول

السوداني، كانت أذني تطن بأغنية، واكتسى كل ما قاله جوزيف لي بالمعنى.

أتساءل ما الذي سيعنيه لك كل ذلك؟

مع حبي،

أختك،

نيتي

عزيزتي سيلي:

مضى وقت طويل منذ أتيح لي الوقت للكتابة. ولكني دائماً، ومهما كنت أفعل، فأنا أكتب إليك. عزيزتي سيلي، أقول في خلدي في منتصف صلاة المساء، في منتصف الليل، وأنا أطهو، غاليتي، عزيزتي سيلي. وأتخيل أن رسائلي تصلك بالفعل وأنك تراسليني أيضاً. عزيزتي نيتي، هذا ما تبدو عليه الحياة بالنسبة إليّ.

نستيقظ في الخامسة فجراً ونتناول فطوراً خفيفاً مكوناً من عصيدة الذرة البيضاء والفاكهة، وتبدأ الصفوف الصباحية. نعلّم الأطفال اللغة الإنجليزية، والقراءة، والكتابة، والتاريخ، والجغرافيا، والحساب، وقصص الإنجيل. وعند الساعة الحادية عشرة نأخذ استراحة الغداء ونقوم بالأعمال المنزلية. ومن الساعة الواحدة حتى الساعة الرابعة تصعب الحركة إذ يكون القيظ شديداً جداً، ورغم ذلك فإن بعض الأمهات يجلسن خلف أكواخهن ويقمن بأعمال الخياطة. في الساعة الرابعة نعلم الأطفال الأكبر سناً وفي الليل نصبح متوفرين للراشدين. بعض الأطفال الأكبر سناً معتادون على مدرسة البعثات التبشيرية، ولكن الأصغر ليسوا كذلك. تقوم أمهاتهم أحياناً بجرِّهم إلى هنا، يصرخون ويركلون. جميعهم من الصبيان. أوليفيا هي الفتاة الوحيدة.

لا يؤمن سكان أولينكا بضرورة تعليم الفتيات. وعندما سألت إحدى الأمهات لماذا تعتقد ذلك، قالت: الفتاة لا شيء بذاتها، وحده زوجها من يصيّرها شيئاً ذا بال.

سألتها: ما الذي ستصير إليه؟

قالت: ماذا! أم أطفاله.

قلت: ولكني لست أماً. وأحظى بمكانة ما.

قالت: ليست لك تلك المكانة. أنت مجرد عاملة سخرة في البعثة التبشيرية.

صحيح أنني أقوم بأعمال شاقة تفوق توقعاتي، وأكنس المدرسة، وأتولى الترتيب بعد الصلاة، إلا أنني لم أشعر بأنني عاملة سخرة. أدهشتني الطريقة التي تراني بها هذه السيدة، واسمها المسيحي هو كاثرين.

لديها فتاة صغيرة اسمها تاشي، تلعب مع أوليفيا بعد المدرسة. آدم هو الصبي الوحيد الذي يتحدث مع أوليفيا في المدرسة. ليسوا أشراراً معها، هكذا هو الحال، ما هو هذا الحال؟ إنها في مكان يقومون فيه بأمور «خاصة بالصبيان» وبالتالي لا يرونها. لكن لا تجزعي يا سيلي، أوليفيا أخذت منك الصلابة ونفاذ البصيرة، وهي أذكى منهم جميعاً، بمن فيهم آدم.

سألتني: لماذا لا تستطيع تاشي القدوم إلى المدرسة؟ عندما أخبرتها أن سكّان أولينكا لا يؤمنون بتعليم الفتيات قالت، بلمح البصر، إنهم مثل البيض في بلادنا لا يريدون للملونين أن يتعلموا.

آه يا سيلي، إنها لمّاحة. وعندما تنجح تاشي وفي نهاية اليوم، في الهرب من كل الأعمال المنزلية التي تفرضها عليها أمها، تنزوي هي وأوليفيا في كوخي وكل ما تتعلمه تتشاركه مع تاشي. تاشي تمثل كل أفريقيا بالنسبة لأوليفيا. أفريقيا التي عبرت المحيط مفعمة بأمل العثور عليها. وما عدا ذلك فإنه شاق بالنسبة إليها.

مثلاً جميع لدغات الحشرات التي تتعرض لها، تتحول لسبب ما إلى قروح عميقة نازفة، وتعاني من مشاكل في النوم ليلاً بسبب الأصوات المخيفة التي تأتيها من الغابة. تستغرق وقتاً طويلاً حتى تعتاد الطعام، المغذي، إلا أن معظمه جرى إعداده كيفما اتفق. تتناوب نساء القرية على

الطهو لنا، وبعضهن أكثر اهتماماً بالنظافة ويعملن بضمير حي. أصيبت أوليفيا بوعكة صحية بسبب الطعام الذي حضّرته زوجات الزعيم. صموئيل يعتقد أن السبب يعود إلى الماء الذي يستخدمنه، يجلبنه من نبع منفصل يجري صافياً حتى في موسم الجفاف، لكن نحن البقية لا نعاني من آثار مرضية. يبدو أن أوليفيا تخشى الطعام الذي تعده النسوة لأنهن جميعاً يبدون تعيسات وشقيات. وكلما رأينها يحدثنها عن اليوم الذي ستصبح فيه شقيقتهم الصغرى زوجة. إنها مجرد دعابة، وهي تروق لهن، ولكن أتمنى لو أنهن لا يقلن هذا. رغم أنهن بائسات ويعملن كالحمير إلا أنهن ما زلن يعتقدن أنه لشرف أن يكنّ من زوجات الزعيم. إنه يتجول طوال اليوم محيطاً كرشه بيديه ويتحدث مع المداوي ويشرب نبيذ النخيل.

تسأل أوليفيا: لماذا يقلن إنني سأصبح زوجة الزعيم؟

أخبرتها بأن هذا أقصى ما يستطعن التفكير فيه.

إنه بدين وبأسنان كبيرة مثالية. تعتقد أن الكوابيس التي تراودها على اتصال به.

أقول لها: ستكبرين لتصبحي امرأة مسيحية قوية. ستكونين ممن يساعدون شعوبهم على التقدم. ستصبحين معلمة أو ممرضة. ستسافرين. ستتعرفين على أناس كثر أكثر أهمية من الزعيم.

هل سيتاح لتاشي أن تصبح كذلك؟ أرادت أن تعرف.

أقول لها: أجل. وتاشي أيضاً.

قالت لي كورين هذا الصباح، علينا يا نيتي التوقف عن إرباك عقول هؤلاء الناس، علينا أن نتخاطب دائماً مع بعضنا البعض بالأخ والأخت.

يصعب على بعض الرؤوس السميكة فهم أنكِ لست زوجة صموئيل الثانية. لا يروقني الأمر.

لاحظت منذ اليوم الأول لوصولنا أن تغيراً طرأ على كورين. لم تكن

معتلة. تعمل بجد أكثر من أي وقت مضى. لا تزال لطيفة وسهلة المراس. لكن أحياناً أستشعر أن شيئاً مسّ روحها وثمة ما يقضّ مضجعها.

قلت: موافقة. أنا سعيدة لأنك طرحتِ الموضوع عليّ.

قالت: ولا تدعي الطفلين ينادونك بأمي يا نيتي، حتى أثناء اللعب.

ضايقني الموضوع قليلاً، لكنني صمتّ عنه. يناديني الطفلان ماما نيتي أحياناً لأنني أولي لهما عناية كبيرة. لكنني لم أحاول قط أن أحلّ مكان كورين.

قالت، وثمّة شيء آخر. أعتقد أنه من غير المفروض أن نستعير ثياب بعضنا.

حسناً، لم يسبق لها أن استعارت أي شيء مني لأني لا أملك الكثير. لكنني مواظبة على الاستعارة منها.

سألتها: هل أنت مدركة لما تفعلينه؟

قالت: أجل.

أتمنى لو تستطيعين رؤية كوخي يا سيلي. *أحبه كثيراً*. بخلاف مدرستنا المربّعة، وكنيستنا التي تعوزها الجدران - على الأقل خلال موسم الجفاف - كوخي دائري، له جدران، وسطحه مغطى بـ «الرووفليف». قطره عشرون خطوة ويلائمني تماماً. وفوق الجدران الطينية علّقتُ الأطباق والحصر الأولينكية وقطعاً من الملابس القبلية. يعرف سكان أولينكا بأقمشتهم القطنية الجميلة التي يحيكونها يدوياً ويصبغونها بالتوت والطين والنيلة ولحاء الشجر. هناك في الوسط موقدي الذي يعمل على البارافين، وعلى الجانب سرير الأسفار المغطى بناموسية كما لو أنه سرير عروس.

عندي طاولة كتابة صغيرة حيث أكتبُ لك، ومصباح، وكرسي بلا ظهر. هناك حصائر رائعة على الأرض. جميعها ملونة ودافئة ومريحة. رغبتي الوحيدة بأن يكون هناك نافذة! لا يوجد بيت واحد في القرية

بنوافذ، وعندما أتحدث للنساء عن النوافذ يغرقن بالضحك. يبدو أن موسم الأمطار يجعل من فكرة النافذة أمراً سخيفاً، إلا أنني مصممة على أن يكون لكوخي واحدة، حتى لو تجمعت المياه فيضاناً يومياً على أرضية كوخي.

أنا على استعداد لتقديم أي شيء لقاء صورة لك يا سيلي. لدي صور في صندوقي تبرعت لنا بها الجمعيات التبشرية في إنجلترا وأميركا. صور للمسيح، ولحوارييه، ولمريم العذراء، ولمشهد الصلب. سبيك، وليفينجستون، وستانلي وشوايتزر. قدّ أعلّقها يوماً، لكنني حين علقتهم في مرة من المرات على الجدران المكسوة بالحصر والأقمشة أحسست بالتعاسة والضآلة، ولهذا نزعتهم. حتى صورة المسيح التي تبدو جميلة في كل مكان بدت غريبة هنا. هذه الصور معلقة في المدرسة والكثير من صور المسيح خلف المذبح في الكنيسة. هذا كافٍ، كما أعتقد، على الرغم من أن صموئيل وكورين لديهما صور وتذكارات دينية (صلبان) في كوخهما أيضاً.

أختك،

نيتي

عزيزتي سيلي،

والدا تاشي كانا هنا منذ قليل. إنهما منزعجان لأنها تقضي وقتاً طويلاً مع أوليفيا. قالا إنها تتغير، أصبحت أكثر هدوءاً وتفكر كل الوقت. إنها تتحول إلى شخص آخر؛ وقد بدأت تتلامح على وجهها سمات إحدى عمّاتها التي تمّ بيعها إلى التاجر لأنها لم تتأقلم مع حياة القرية. رفضت هذه العمة الزواج من الرجل الذي اختير لها. ورفضت الانحناء للزعيم. لم تكن تفعل شيئاً سوى الاستلقاء وطقطقة جوزة الكولا بين أسنانها والضحك.

يريدون معرفة ماذا تفعل أوليفيا وتاشي في الكوخ عندما تكون الفتيات الأخريات منشغلات في مساعدة أمهاتهن.

سألت: هل تاشي كسولة في المنزل؟

نظر الأب إلى الأم. قالت: كلا، على النقيض، تثابر تاشي على العمل أكثر من معظم الفتيات في عمرها. وهي أسرع منهن في الفراغ من العمل. ولكن هذا فقط لأنها تتمنى قضاء العصرية مع أوليفيا. تتعلم كل شيء أعلمها إياه كما لو أنها تعرفه مسبقاً، إلا أن هذه المعلومات لا تجد سبيلاً إلى روحها.

بدت الأم محتارة ومتوجسة.

أما الأب فقد كان غاضباً.

فكرت: أها. تعرف تاشي جيداً بأنها تتعلم نمط حياة لن تعيشه أبداً. لكني ما بحت بذلك.

قلت: العالم يتغير. لم يعد حكراً على الصبية والرجال فقط.

قال الأب: نساؤنا يحظين بالاحترام هنا. لن نسمح لهن أبداً بالتنقل في العالم كما تفعل النساء الأميركيات. هناك دائماً شخص يعتني بالنساء الأولنكيات. أب أو عم. أخ أو ابن أخ. أرجو ألا تشعري بالإهانة يا أخت نيتي، لكن شعبنا يشفق على سيدة منبوذة مثلك، لا نعرف من أين طُرِدت، وجاءت عالماً مجهولاً، حيث يتوجب عليك النضال بمفردك.

إذاً أنا مصدر شفقة وازدراء، بالنسبة للرجال والنساء على حدٍّ سواء.

علاوة على ذلك، قال والد تاشي، لسنا سذجاً. نفهم أن هناك أماكن في العالم تعيش النساء فيها بطريقة مختلفة عن طريقة عيش نسائنا، ولكننا لا نرضى بأن تعيش بناتنا وفقاً لهذه الطريقة المختلفة.

قلت: لكن الحياة تتغير، حتى في أولينكا. نحن هنا.

بصق على الأرض. من أنتم؟ ثلاثة راشدين، وطفلان. من الوارد أن يموت أحدكم في موسم الأمطار. أنتم أناس لا تعمّرون طويلاً في مناخنا. إن لم تموتوا، فسيقضي عليكم المرض. آه، نعم. لقد رأينا هذا كله من قبل. أنتم المسيحيون تأتون إلى هنا، تبذلون قصارى جهدكم لتغييرنا، تمرضون وتعودون إلى إنجلترا، أو إلى أي مكان جئتم منه. وحده التاجر من بقي على الساحل، حتى هو ما عاد الرجل الأبيض نفسه، سنة يأتي وسنة يغيب. نحن نعرف لأننا نرسل له النساء.

قلت: تاشي ذكية جداً. قد تصبح معلمة، أو ممرضة، قد تساعد الناس في القرية.

قال: لا مكان هنا لامرأة تقوم بمثل هذه الأشياء.

قلت: علينا الرحيل إذن. أنا والأخت كورين.

قال: لا، لا.

سألتْ: هل نعلّم الصبية فقط؟

قال: نعم. كما لو أن سؤالي كان اتفاقاً.

هناك طريقة يخاطب فيها الرجال النساء تذكرني كثيراً بأبي. يستمعون

بالقدر الكافي فقط لإصدار التعليمات. لا ينظرون إليهن عندما يتحدثن. يطرقون أرضاً. النساء أيضاً لا «ينظرن إلى وجوه الرجال» كما يقلن، فهذا يندرج ضمن الوقاحة. ينظرن عوضاً عن ذلك إلى قدميه أو ركبتيه. ماذا عساني أقول عن هذا؟ ها هو السلوك ذاته الذي يفرضه وجود أبي يطالعني من جديد.

قال والدها: في المرة المقبلة التي تزوركم فيها تاشي لن تفتحوا بوابتكم لها، سترسلونها مباشرة إلى البيت. ثم ابتسم.

يمكن لابنتكم أوليفيا أن تزورها، وتتعلم لأي غرض وجدت النساء.

ابتسمت أيضاً. فكّرت، يجب على أوليفيا أن تتعلم كيف تتلقى معارفها حول الحياة في أي مكان. عرضه سيشكل فرصة مذهلة.

وداعاً عزيزتي سيلي لحين الرسالة المقبلة، وداع سيدة مثيرة للشفقة ومنبوذة قد تتلاشى أثناء موسم الأمطار.

أختك المحبّة،

نيتي

عزيزتي سيلي،

بدا بداية صوتاً طفيفاً جداً لحركة في الغابة. نوع من الهمهمة الخفيفة. فإذا بها تصير صوت تقطيع وسحل. تلتها في مقبل الأيام، رائحة دخان. الآن، وبعد مرور شهرين، كنا خلالها إما أنا أو الأطفال أو كورين مرضى، باتت أصوات التقطيع والكشط والسحل كل ما نسمعه. أما الدخان فنتنشقه يومياً.

اليوم صرخ أحد الصبية وهو يخطو إلى صفي فترة العصر: الطريق تقترب! الطريق تقترب! رآها بينما كان في الغابة يصطاد مع والده.

يجتمع القرويون يومياً الآن على مشارف القرية بالقرب من حقول الكاسافا، ويراقبون شقّ الطريق. منهم من يجلس على كرسي، ومنهم من يراقب مقرفصاً، وجميعهم يمضغون حبوب الكولا ويرسمون أشكالاً في التراب، يعمر قلبي بحب كبير لهم، فهم منذ أن رأوا الطريق تقترب، لم يقتربوا من عمّال الطريق إلا ومعهم شيء، وقاموا بحشيهم بلحم الجدي، وعصيدة الذرة البيضاء، والبطاطا المخبوزة، والكاسافا، وحبوب الكولا، ونبيذ النخيل. كل يوم هو نزهة، وكثيرة هي الصداقات التي نشأت، رغم أن منشئي الطريق من قبيلة بعيدة في الشمال قريبة من الساحل، ولغتهم مختلفة بعض الشيء. أنا لا أفهمها، ورغم أن سكان أولينكا يبدون فاهمين لها. إلا أنهم يستوعبون الأشياء الجديدة بسرعة فائقة، فهم أذكياء في الغالب.

من الصعب تصديق أننا أمضينا هنا خمس سنوات. يمضي الوقت ببطء، إلا أنه يمر بسرعة. آدم وأوليفيا أصبحا بطولي تقريباً ويبليان بلاء حسناً في دراستهما. يحتكم آدم على براعة في الأرقام والحساب، ويشعر

صموئيل بالقلق كونه استنفذ كل معارفه في هذا المجال، ولم يتبق الكثير ليعلمه إياه.

عندما كنا في إنجلترا التقينا مبشرين أرسلوا أطفالهم إلى بلادهم عندما لم يعد متاحاً تعليمهم في الأدغال. ولكن من الصعب تخيل الحياة هنا من دون الأطفال. يحبون إحساس الحرية الذي تهبه القرية، والعيش في الأكواخ. تثير حماستهم خبرات الصيد لدى الرجال ورضى النساء جراء جني المحاصيل. بصرف النظر عن الإحباط الذي قد ينتابني، فهو أحياناً يداهمني بحق، لكن عناق أوليفيا وآدم سرعان ما يعيد إليّ كامل طاقتي وأصبح منتجة، هذا ما لم أتوخَ ذلك. والدتهما وأنا لم نعد قريبتين كما في السابق، إلا أنني أحس بأنني خالتهما أكثر من أي وقت مضى. ويتزايد يومياً الشبه بيننا نحن الثلاثة.

طلبت مني كورين قبل شهر ألا أدعو صموئيل إلى كوخي ما لم تكن حاضرة. قالت إن هذا يعطي القرويين فكرة خاطئة. كانت هذه صفعة حقيقية لي لأنني أقدّر رفقته. ولأن كورين لم تعد تزورني قط وبالتالي ما بقي لدي أحد لأتبادل معه الحديث كصديقين. ما زال الطفلان يزوراني وأحياناً يمضيان ليلتهم معي عندما يريد أبواهما الاختلاء ببعضهما البعض. أحب تلك الأوقات. نحمّص الفول السوداني على موقدي، نجلس على الأرض ونتحرى خرائط جميع البلدان في العالم. أحياناً تأتي تاشي وتروي لنا حكايات أطفال الأولينكا الرائجة. وأشجعها وأشجع أوليفيا على تدوينها باللغتين الأولنكية والإنجليزية. هذا تمرين جيد لهما. تشعر أوليفيا، مقارنة بتاشي، بأنها لا تعرف حكايا جيدة لترويها. بدأت يوماً بقصة من قصص «العم ريموس»[14] فاكتشفت أن تاشي لديها النسخة الأصلية منها! تهدّل وجهها الصغير. حينها خضنا في نقاش حول الشكل الذي تصل فيه حكايا شعب تاشي إلى أميركا،

14 – قصص من الفلكلور الإفريقي، عمل على تجميعها ونشرها عام 1881 في الولايات المتحدة جويل شاندلير هاريس.(المترجمة).

ما سحر تاشي. وبكت حين أخبرتها أوليفيا كيف أن جدتها قد عُوملت كعبدة.

ما من شخص آخر في هذه القرية يرغب بسماع أي شيء عن العبودية. لا يعترفون بأي مسؤولية من أي نوع. هذا أحد الأشياء التي لا تعجبني بهم بالتأكيد.

خسرنا والد تاشي خلال موسم الأمطار الأخير. أصيب بالملاريا ولم تتمكن أي من خزعبلات المداوي بالأعشاب إنقاذه. امتنع عن تناول الدواء الذي نستخدمه لعلاج الملاريا، ورفض أن يزوره صموئيل رفضاً قاطعاً. كانت هذه أول جنازة أحضرها في أولينكا. صبغت النسوة وجوههن بالأبيض وارتدين ملابس بيضاء كالقبر وبكين بصوت عالٍ أشبه بالعويل. لفوا الجثمان بملابس مصنوعة من لحاء الشجر ودفنوه تحت شجرة كبيرة في الغابة. كانت تاشي محطمة الفؤاد. أمضت صباها وهي تحاول إرضاء والدها، ولم تدرك قط أن كونها فتاة سيعوقها لا محالة عن تحقيق ذلك. لكن الوفاة قرّبتها من والدتها أكثر، وتشعر كاثرين الآن بأنها أصبحت واحدة منا. أقصد بأنها أصبحت واحدة مني ومن الولدين وأحياناً صموئيل. ما زالت في فترة الحداد لا تبارح كوخها، وتقول إنها لن تتزوج مجدداً (لديها خمسة صبية تستطيع فعل ما يحلو لها. فقد أصبحت رجلاً فخرياً) وحين ذهبتُ لزيارتها أشارت بوضوح إلى أن على تاشي أن تكمل دراستها. إنها الأكثر إنتاجية من بين الأرامل اللواتي تركهن والد تاشي، وحقولها تحظى بالثناء بسبب نظافتها، وإنتاجيتها، وجاذبيتها العامة. ربما أستطيع مساعدتها في عملها. فمن خلال العمل تتعرف النسوة على بعضهن البعض ويتبادلن الاهتمام. العمل صيّر كاثرين صديقة أرامل زوجها الأخريات.

غالباً ما يتحدث صموئيل عن الصداقة بين النساء. فالنساء يتشاركن زوجاً واحداً إلا أن الزوج لا يشاركهن صداقتهن، وهذا ما يسوء صموئيل. إنه أمر محير، كما أظن. وتجسدت مهمة صموئيل ككاهن

مسيحي في الوعظ بتعاليم الإنجيل التي تحرّم تعدد الزوجات. لا يخلو صموئيل من حيرة، طالما أن النساء صديقات وسيفعلن غالباً أي شيء من أجل بعضهن البعض، ولكن بأكثر مما يتوقعه أي شخص في أميركا، ولأن النساء يضحكن ويثرثرن ويعتنين بأطفال بعضهن البعض، فإذاً يتعين عليهن أن يكن سعداء بأحوالهن كما هي. أيضاً فإن الكثير من النساء نادراً ما يمضين الوقت مع أزواجهن. بعضهن كُتِب عليهن منذ ولادتهن الزواج من عجائز أو رجال في منتصف العمر. وغالباً ما تتمحور حياة تلك النسوة حول العمل وأطفالهن والنساء الأخريات (لأن المرأة لا تستطيع أن تتخذ من رجل صديقاً لها من دون أن ينالها القيل والقال والإقصاء). يدللن أزواجهن، على أقل تقدير. عليكِ فقط أن تشاهدي كيف يعبرن عن إعجابهن بهم. يثنين على أصغر إنجازاتهم. يتخمن أزواجهن بنبيذ النخيل والحلويات. لا عجب بأن الرجال غالباً ما يكونون أطفالاً. والطفل الناضج هو شيء خطير، لا سيما وأن الزوج في أولينكا، يتمتع بسلطة على زوجته في حياته ومماته. إن اتهم إحدى زوجاته بالسحر أو الخيانة، فقد تقتل.

شكراً لله (وأحياناً لتدخل صموئيل) لم يحدث هذا منذ مجيئنا إلى هنا. لكن القصص التي ترويها تاشي غالباً ما تكون حول أحداث بشعة وقعت في الماضي القريب. ولا قدّر الله أن يحدث ويصاب طفل الزوجة المفضلة بالمرض. هذه هي النقطة التي تتحطم فيها حتى صداقة النساء، حيث تخشى كل امرأة من أن تتهمها الأخرى بالشعوذة، أو أن يتهمها الزوج بذلك.

ميلاد مجيد لك ولأحبائك عزيزتي سيلي. نحتفل بعيد الميلاد هنا في القارة «المظلمة» بالصلاة والغناء والنزهات الطويلة التي يكللها أكل البطيخ وشرب عصائر الفاكهة الطازجة والشواء!

ليباركك الله...

نيتي

سيلي الأغلى،

كنت أنوي أن أكتب إليك في عيد الفصح، إلا أن الوقت لم يكن مناسباً لي ولم أرغب بإزعاجك بأي أخبار مقلقة. وهكذا يكون قدّ مرّ عام كامل. الشيء الأول الذي عليّ إخبارك به هو الطريق. وصل الطريق أخيراً إلى حقول الكاسافا قبل قرابة تسعة أشهر، وسكان أولينكا الذين لا يضاهي حبهم الاحتفال أي شيء آخر، تفوقوا على أنفسهم في التحضير لوليمة على شرف منجزي الطريق الذين جاؤوا وتجاذبوا أطراف الحديث وضحكوا ولم تفارق أعينهم نساء أولينكا طيلة اليوم. مساءً تمت دعوتهم إلى القرية نفسها واستمر اللهو حتى آخر الليل.

أعتقد أن الإفريقيين يشبهون إلى حدٍّ كبير البيض في بلادنا، إذ يعتقدون أنهم مركز الكون وأن كل شيء يحدث لأجلهم. يملك سكان أولينكا بلا ريب هذه المقاربة ولهذا فإنهم يفكرون بشكل طبيعي بأن الطريق أنجزت لصالحهم. والحقيقة أن من أنجزوا الطريق تحدثوا عن مدى السرعة التي سيتمكن بها سكّان الأولينكا من بلوغ الساحل، وأن طريقاً معبداً بالإسفلت سيتيح ذلك في غضون ثلاثة أيام. وباستخدام الدراجة الهوائية فسيستغرق ذلك وقتاً أقصر. طبعاً لا أحد في أولينكا يملك دراجة هوائية وجميع رجالها توّاقون إليها ويتحدثون عن يوم قريب سيشترون فيه دراجاتهم الخاصة.

حسناً، في صباح اليوم الذي تلا «إنجاز» الطريق كما خلص سكّان أولينكا (ففي نهاية المطاف، وصل الطريق إلى قريتهم)، كان علينا اكتشاف أن عمّال الطريق عادوا للعمل مجدداً. وردتهم تعليمات بضرورة إكمال الطريق وشق ثلاثين ميلاً أخرى! وبالتالي كان على مساره أن يمرّ

تماماً عبر قرية أولينكا. وحين فارقنا أسرّتنا، كان الطريق بالفعل قد حُفر في حقل البطاطا الجديد الذي تملكه كاثرين. أشهر سكّان تولينكا أسلحتهم. إلا أن عمّال الطريق سبقوهم إلى ذلك. كان بحوذتهم بنادق يا سيلي، وأوامر بإطلاق النار!

كان الأمر مثيراً للشفقة يا سيلي. شعر الناس بأنهم تعرضوا لخيانة مريرة! تأهبوا يائسين - هم لا يعرفون بالفعل كيف يقاتلون، ونادراً ما فكروا بالقتال منذ ما مضى من حروب القبائل - إذ دمرت محاصيلهم ومنازلهم. أجل. لم يحد عمّال الطريق قيد أنملة عن الخطة التي كان يتبعها الرؤساء. كل كوخ يقع في مسار الطريق المفترض سوّي بالأرض. وكنيستنا يا سيلي، ومدرستنا، وكوخنا، كلها انهارت في غضون ساعات. ولحسن الحظ، استطعنا إنقاذ جميع متعلقاتنا، ولكن مع مرور الطريق الإسفلتي في منتصف القرية، بدت القرية نفسها كما لو أنها لفظت أحشاءها.

بعد فهم نوايا من أنجزوا الطريق، انطلق الزعيم في الحال باتجاه الساحل، ملتمساً الإيضاح والتعويض. وبعد مرور أسبوعين عاد بأخبار مقلقة أكثر. المنطقة برمتها، بما في ذلك قرية أولينكا، أصبحت الآن ملكاً لمصنّع مطاط في إنجلترا. ومع اقترابه من الساحل، ذهل لرؤية مئات ومئات من القرويين الشبيهين بسكان أولينكا يقومون بقطع أشجار الغابة على جانبي الطريق، ويزرعون أشجار المطاط. أزيلت كل أشجار الماهوجني العتيقة العملاقة، وكل الأشجار الأخرى، وأبيد كل ما في الغابة، واستحالت جرداء وعارية ومنبسطة كراحة يده.

في بادئ الأمر اعتقد أن من أخبروه عن شركة المطاط الإنجليزية كانوا على خطأ، على الأقل فيما يتعلق بحدودها التي تشمل أولينكا. إلا أنه في نهاية المطاف سار إلى قصر الحاكم، وكان مبنى أبيض كبيراً، والرايات ترفرف في فنائه، وكان هناك جمع من الناس ومسؤول أبيض. كان هذا الرجل هو من أعطى عمّال الطريق الأوامر، وما عرف أولينكا إلا من الخريطة. تحدث بالإنجليزية، وحاول زعيمنا بدوره تحدثها.

لا بدَّ من أنه كان حواراً مثيراً للشفقة. فزعيمنا لم يتعلم الإنجليزية على الإطلاق باستثناء بعض العبارات الغريبة الخاصة بالمناسبات التي تلقطّها من جوزيف، هو الذي يلفظ كلمة «إنجليش» «يانجلاش».

الأسوأ ما كان قد قيل بعد. ونظراً لكون سكان أولينكا ما عادوا يملكون قريتهم، فعليهم دفع إيجارها، ولاستخدام المياه التي ما عادت ملكاً لهم، فقد صار يتعين عليهم دفع الضرائب لقاء الماء.

أثار ذلك ضحك الناس. بدا أمراً جنونياً. لقد كانوا هنا منذ الأزل. وحده الزعيم لم يضحك.

قالوا: سنقاتل الرجل الأبيض.

قال الزعيم: لكن الرجل الأبيض ليس وحيداً. لقد أحضر معه جيشه.

مضت أشهر عديدة على ذلك، وحتى الآن لم يحدث شيء. يعيش الناس كالأنعام، أحجموا عن أن تطأ أقدامهم تلك الطريق الجديدة لو استطاعوا إليها سبيلاً، ولم يولوا وجوههم شطر الساحل. بنينا كنيسة ومدرسة جديدتين. ولدي الآن كوخ آخر. وعلى هذا المنوال بات انتظارنا.

في تلك الأثناء، ألمّ مرض شديد بكورين فهي تعاني من الحمى الإفريقية. سبق أن مات العديد من المبشرين بسببها.

لكن الطفلين بصحة وعافية. بات الصبية الآن يتقبلون أوليفيا وتاشي في الصف والأمهات يرسلن بناتهن إلى المدرسة أكثر من السابق. لم يرق للرجال هذا الأمر: من يرغب بزوجة تعرف ما يعرفه زوجها؟ تصاعد الدخان من رؤوسهم. إلا أن للنساء طرقهن الخاصة، ويعشقن أولادهن، وحتى بناتهن.

سأكتب لك أكثر متى تحسنت الظروف. كلي ثقة بقدرة الله على جعلها أفضل.

أختك،

نيتي

الأغلى سيلي،

كانت سنة عصيبة، تلك التي تلت عيد الفصح. ومنذ مرض كورين، وقع على كاهلي القيام بكل مهامها، كما يتعين علي الاعتناء بها أيضاً، وهذا ما تمقته.

ذات يوم عندما كنت أغيِّر ثيابها نظراً إلى أنها لا تفارق السرير، رمقتني طويلاً، وأثارت شفقتي وهي تسألني بلؤم: لماذا يشبهك الطفلان؟

قلت: هل تعتقدين حقاً أنهما يشبهانني كثيراً؟

قالت: كما لو أنك بصقتهما من فمك.

قلت: مردّ ذلك ربما لأننا عشنا معاً، ومن تحبينهم يشبهونك. تعرفين كم يشبه المتزوجون منذ زمن بعضهم البعض.

قالت: حتى النسوة هنا لاحظن الشبه منذ اليوم الأول لوصولنا.

وهذا ما كان يثير قلقك كل هذه الفترة؟ حاولت إضحاكها.

لكنها اكتفت بالنظر إليّ.

متى قابلتِ زوجي للمرة الأولى؟ أرادت أن تعرف.

وحينها عرفتُ ما الذي يدور في خلدها. تعتقد أن آدم وأوليفيا ولداي، وأن صموئيل والدهما!

آه يا سيلي، كان هذا الظن ينهشها كل هذه السنين!

قلت: قابلت صموئيل في اليوم نفسه الذي قابلتك فيه يا كورين.

(لا زلت لا أفهم مغزى مناداتها بـ «الأخت» كل الوقت.) ليشهد الله عليّ أن هذه هي الحقيقة.

قالت: أحضري الإنجيل.

أحضرت الإنجيل، ووضعت يدي فوقه، وأقسمت.

قلت: تعرفين أن الكذب ليس من شيمي على الإطلاق يا كورين. أرجوك صدقي أنني لا أكذب الآن.

ثم استدعت صموئيل، وجعلته يقسم أن اليوم الذي التقتني فيه هو اليوم نفسه الذي التقيته فيه.

قال: أعتذر عن هذا يا أخت نيتي، أرجوك سامحينا.

حالما غادر صموئيل الغرفة طلبت مني أن أرفع فستاني وأجلس على سرير مرضها لفحص بطني.

أشفقت عليها، وشعرت بالإهانة الشديدة يا سيلي. والطريقة التي عاملت فيها الطفلين كانت الجزء الأقسى. لا تريدهما إلى جوارها، وهذا ما لا يفهمانه. وكيف لهما ذلك. فهما لا يعرفان أنه تمّ تبنيهما أصلاً.

من المقرر زراعة القرية بأشجار المطاط في الموسم المقبل. وقد تمّ تدمير منطقة الصيد في أولينكا، ويتعين على الرجال الذهاب لمسافات أبعد للصيد. أمضت النساء جلّ أوقاتهن في الحقول، يعتنين بمحاصيلهن ويصلين. يغنين للأرض والسماء وحقول الكاسافا والفول السوداني. أغاني حب وفراق.

جميعنا حزانى هنا يا سيلي، أتمنى أن تكون حياتك أسعد.

أختك،

نيتي

عزيزتي سيلي،

خمنّي ما حصل؟ أعتقد صموئيل أيضاً أن الطفلين من صلبي! ولهذا السبب حثني على المجيء إلى أفريقيا معهم. وعندما ظهرت في منزلهم ظن أنني ألحق بطفلي، ولشدة طيبته، لم يطاوعه قلبه أن يردني خائبة.

قال: إن لم يكونا ابني، فابنا من هما إذاً؟

كان لدي بعض الأسئلة لأطرحها عليه أولاً.

سألته: من أين جلبتهما؟ أخبرني يا سيلي قصة وقف لها شعر رأسي. أتمنى، أيتها المسكينة، أن تكوني مستعدة لها.

كان يا ما كان، مزارع ثري يمتلك مزرعته الخاصة بالقرب من بلدة. بلدتنا يا سيلي. ونظراً إلى أنه يقوم بعمله على أكمل وجه وكل ما يفعله يزدهر وينمو، قرر فتح حانوت، وجرب حظه في بيع السلع أيضاً. حسناً، أبلى حانوته بلاء حسناً فتحدث مع اثنين من أخوته لمساعدته في إدارته، ومع مرور الأشهر، تحسنت أمورهم أكثر فأكثر. ثم اجتمع التجار البيض على الشكوى من أن حانوته يستحوذ على كل أعمال السود ويأخذها منهم، ومحل الحدادة الذي افتتحه خلف حانوته، اجتذب بعض البيض. ما كانت الأمور لتستقيم على هذا النحو. ولهذا، وفي ليلة من الليالي، تعرض حانوت الرجل لحريق، ودُمِّر محل الحدادة، وأُخرج الرجل وشقيقاه من منازلهم في منتصف الليل وشنقوا.

كان للرجل زوجة يحبها حباً جمّاً، وقد رزقا بطفلة صغيرة، بالكاد أكملت العامين من عمرها. كانت أيضاً حاملاً بطفل آخر. وعندما أحضر الجيران جثمان زوجها إلى المنزل، مشوهاً ومحروقاً، كاد المشهد أن

يقتلها، وليولد في تلك الأوقات مولودها الثاني، وكانت بنتاً. ورغم استعادة جسد الأرملة عافيته، إلا أن عقلها ما تعافى قط. ظلت تجلب طبق زوجها إلى مائدة الطعام تماماً كما تعوّدت وكانت دائماً ما تكثر الحديث عن الخطط التي رسمتها هي وزوجها. وبدأ الجيران، من دون قصد، بتجنبها أكثر فأكثر، من جهة لأن الخطط التي تتحدث عنها كانت هائلة لدرجة لم يقتنعوا أن أناساً ملونين يستطيعون تنفيذها، ومن جهة أخرى لأن ارتباطها بالماضي كان مثيراً للشفقة إلى أبعد الحدود. كانت سيدة جميلة، ولا تزال تملك أرضاً، من دون وجود من يعمل فيها، ولم تكن تعرف كيف تديرها بنفسها؛ إضافة إلى أنها ظلت تنتظر زوجها لإنهاء وجبة طعامه التي طهتها له حين مضى إلى الحقول. ولم يتبق شيء يؤكل مما أحضره الجيران، فجالت هي وطفلتاها يبحثن عن الطعام في الفناء.

ونظراً إلى أن الطفلة الثانية كانت لا تزال رضيعة، ظهر غريب في الحي، وصرف كل اهتمامه على الأرملة وطفلتيها؛ وفي وقت قصير، تزوجا. سرعان ما حملت للمرة الثالثة، رغم أن صحتها العقلية لم تكن قد تحسنت بعد. ثم أمست تحبل في كل عام، وتزداد ضعفاً واضطراباً عاماً بعد عام، إلى أن فارقت الحياة، بعد مضي سنوات عدة على زواجها من الغريب.

وقبل عامين من وفاتها رزقت بطفلة لم تقو على تربيتها من شدة مرضها. ثم رزقت بصبي. هذان الطفلان هما أوليفيا وآدم.

هذه قصة صموئيل حرفياً.

الغريب الذي تزوج الأرملة كان يرافق صموئيل دائماً قبل فترة طويلة من هدايته وتقواه. عندما قصد ذاك الرجل بيت صموئيل ومعه أوليفيا وآدم، أحس صموئيل بأنه عاجز عن رفض الطفلين، ليس هذا فحسب، بل وشعر أن الله استجاب لدعائه هو وكورين.

لم يخبر كورين قط عن الرجل أو عن «والدة» الطفلين لأنه لم يرغب بأن يتسبب بأي حزن لها ولا أن يعكّر صفو سعادتها.

لاحقاً، ظهرتُ أنا، من حيث لا يدري. أعمل فكره بالأمر، وتذكر أن صديقه القديم الذي كان يخرج برفقته أيام اللهو والطيش لطالما كان نذلاً، فقبلني من دون أن يسألني سؤالاً واحداً. وهذا كان على الدوام مصدر حيرتي، لكنني أعزيته للإحسان المسيحي. سألتني كورين ذات مرة ما إذا كنت هاربة من موطني. شرحت لها أنني أصبحت فتاة كبيرة الآن، وأن عائلتي في بلادي كبيرة جداً وفقيرة، وقد آن الأوان لأن أخرج وأكسب رزقي معتمدة على نفسي.

ما إن فرغ صموئيل مما رواه عليّ حتى كانت سترتي قد ابتلت تماماً بدموعي. لم أقو، حينها، على إخباره الحقيقة. ولكن يا سيلي، يمكنني إخبارك أنتِ. وأدعو الله من أعماق قلبي أن تصلك هذه الرسالة، دوناً عن غيرها من الرسائل.

بابا ليس أبانا!

أختك المخلصة،

نيتي

عزيزي الله،

قالت شوغ: طفح الكيل. احزمي أمتعتك. ستعودين معي إلى تينيسي. ولكنني أشعر بالدوار.

أبي قتل أمي المجنونة. جميع إخوتي وأخواتي غير الأشقاء لا يمتون لي بصلة قرابة. طفلاي ليسا أختي وأخي. أبي ليس أبي.

لا بد أنكَ نائم.

عزيزتي نيتي،

للمرة الأولى في حياتي تنتابني رغبة برؤية أبي. ولهذا الغرض ارتدينا أنا وشوغ سروالين زرقاوين متماثلين عليهما نقش زهور، وقبعتين كبيرتين متماثلتين أيضاً، سوى أن زهورها حمراء، وزهوري صفراء، وركبنا سيارة «الباكارد» وانطلقنا إلى هناك. لقد أصبحت الطرقات معبدّة طول المقاطعة وعرضها وأضحى السفر لعشرين ميلاً لا شيء.

رأيت أبي لمرة واحدة منذ غادرت المنزل. كنت أنا والسيد ـــــ نودع في العربة ما اشتريناه من المتجر. كان أبي بصحبة ماي إلين، وكانت هذه الأخيرة تصلح جوربها، منكبة على رجلها تلف الجورب نحو عقدة فوق ركبتها، وكان يقف منتصباً ينكأ الحصى بعكازه، كما لو أنه يفكّر بضربها.

اتجه السيد ـــــ نحوهما بمنتهى الود، ذراعاه مفتوحتان، بينما أكملت أنا تحميل العربة وأنا أعاين الأشكال المرسومة على الأكياس. ما تبادر إلى ذهني بأنني سأرغب برؤيته مجدداً.

حسناً، كان أحد أيام الربيع المشرقة، من تلك التي يكون مبتداها بارداً، كما في أيام الفصح، وأول ما أثار انتباهنا بينما نعبر الدرب الضيق، كانت تلك الخضرة التي سادت كل شيء، ولم يكن للبرودة التي هيمنت على أماكن أخرى من مكان لها في أرض أبي، فقد كانت أرضه دافئة وجاهزة للرزع. وكانت زنابق عيد الفصح والنرجس الأسلي والبري وكل أنواع الزهور البرية التي تزهر باكراً متفتحة طيلة الطريق. ثم تبدّت لنا الطيور مغردة وقد فارقت سجونها الصغيرة، محتلة أعلى وأسفل السياج، الذي نمت فوقه أزهار صفراء صغيرة عبيرها مثل عطر زهرة الفرجينيا المتسلقة. كان ذلك مغايراً تماماً لبقية المناطق التي عبرناها.

أعرف أن هذا يبدو مضحكاً يا نيتي، لكن الشمس نفسها سطعت فوق رؤوسنا لزمن أطول.

قالت شوغ: يا له من جمال. لم تخبريني قط كم هو جميل.

قلتُ: لم يكن يوماً بهذا الجمال. كان ينال منه الفيضان كل فصح، وكنا أطفالاً يسكننا البرد. على أي حال، سنبقى قريبتين من المنزل وبالتأكيد لن يكون الطقس حاراً جداً.

سألت: هذا ليس بطقس حار؟ بينما كانت السيارة تتمايل بنا صاعدة أعلى تلة لا أتذكر وجودها، متجهين مباشرة نحو منزل أصفر كبير مؤلف من طابقين، له مصاريع خضراء، بلون السقف الخشبي المائل.

ضحكت. لا بد أننا اتخذنا وجهة خاطئة. هذا بيت رجل أبيض.

كان جميلاً لدرجة أننا أوقفنا السيارة ورحنا نملّي ناظرينا به.

سألت شوغ: ما هي الأشجار التي تزهر معاً؟

قلت: لا أعرف. يبدو أنها أشجار الخوخ، والنخيل، والتفاح، ربما الكرز. ولكن مهما تكن، فإنها بالتأكيد جميلة.

حوّطت الأشجار المزهرة المنزل من كل الجهات، لا شيء سواها. ثم المزيد من الزنابق وأزهار النرجس الأسلي والورد الجوري المعرش على كل شيء. بينما حطّت العصافير القادمة من بقية أرجاء البلاد على هذه الأشجار قبل توجهها إلى البلدة.

أخيراً، وبعد أن راقبنا البيت لفترة، قلت: إنه هادئ للغاية، لا أحد في البيت كما أعتقد.

قالت شوغ: في يوم أحد لطيف ومشرق مثل هذا، لابد أنه في الكنيسة. قلت: من الأفضل أن نغادر إذاً، قبل أن يعود أياً كان من يسكن هنا. وما إن قلت ذلك حتى استقرت عيناي على شجرة تين أعرفها، وسمعنا فجأة هدير محرك سيارة مسرعة. ومن يكون في السيارة سوى أبي وفتاة شابة تبدو مثل ابنته.

ترجل من السيارة، ثم استدار ليفتح لها الباب. كان كل ما ترتديه زهرياً، ثيابها الفاتنة، وقبعتها الكبيرة وحذاءها، وحقيبتها الصغيرة معلقة على ذراعها. نظرا إلى لوحة تسجيل السيارة ومن ثم اقتربا منّا واضعةً يدها في ذراعه.

قال: صباح الخير. حين صار عند شباك شوغ.

قالت متلكئة: صباح الخير، ويمكنني الجزم بأنه ما بدا لها كما توقعت.

ماذا يمكنني أن أخدمك؟ لم يلاحظني والأغلب بأنه لن يعرفني حتى لو نظر إليّ.

قالت شوغ، بصوت خافت، هل هذا هو؟

قلت: نعم.

ما صدمني أنا وشوغ مظهره مفرط الشباب. يبدو أكبر من الطفلة التي معه، حتى لو عمدت إلى ارتداء ملابس السيدات، إلا أنه شاب تماماً بالنسبة لمن ربّى أولاداً وأحفاداً. ثم تذكرت بأنه ليس أبي، بل هو أب طفليّ.

سألت شوغ: ما الذي كانت عليه أمك، هل تزوجت من غلام؟

لكنه ليس شاباً لهذا الحد.

قالت شوغ: لقد جلبت سيلي. ابنتك سيلي. رغبت بزيارتك. لديها بعض الأسئلة.

استدرك للحظة، وقال: *سيلي*؟ كما لو أنه قال: ومن سيلي؟ ثم خاطبنا قائلاً: انزلا وتعالا إلى الشرفة.

قال مخاطباً السيدة الصغيرة التي معه: ديزي، اذهبي واطلبي من هيتي إعداد الغداء. شدّت على ذراعه، تطاولت وقبلته، وشيّعها بناظريه وهي تمضي عابرة الطريق، صاعدة الدرج، مجتازة الباب الأمامي. تبعنا ونحن نصعد الدرج، وساعدنا في سحب الكراسي الهزازة حين أصبحنا على الشرفة، ثم قال: وماذا تريدان مني الآن؟

سألتُه: الأولاد هنا؟

قال: أي أولاد؟ ثم ضحك. آه، ذهبوا مع أمهم. لقد هجرتني، كما تعرفين. عادت إلى أهلها. نعم لقد فعلت ذلك، هل تتذكري ماي إلين؟

سألتُ: لماذا رحلت؟

زاد من ضحكه. لقد أصبحت عجوزاً بالنسبة إليّ.

ثم عادت السيدة الصغيرة وجلست على مسند ذراع كرسيه. تحدث إلينا وهو يداعب يدها.

قال: هذه ديزي، زوجتي الجديدة.

قالت شوغ: تبدين كما لو في الخامسة عشرة.

قالت ديزي: لست كذلك.

أردفت شوغ قائلة: يدهشني سماح أهلك لك بالزواج.

هزت كتفيها بلا مبالاة، ونظرت إلى أبي. قالت: إنهم يعملون لديه. يعيشون على أرضه.

قال: لقد أصبحت أهلها الآن.

شعرت بالاشمئزاز وكدت أضحك. قلت: نيتي في أفريقيا. ضمن بعثة تبشيرية. كتبت لي تقول إنك لست أبانا الحقيقي.

قال: بتّا تعرفان الآن إذاً.

نظرت ديزي إليّ مشفقة. قالت: أن يخفي عنكما الأمر فهذه هي خصاله. أخبرني كيف قام بتربية فتاتين صغيرتين ليستا من صلبه. وأنا لم أصدق ذلك، حتى هذه اللحظة.

قالت شوغ: لم يخبرهما قط بذلك.

قالت ديزي وهي تقبّل يافوخه: يا لك من فطيرة حلوة عجوز. واصل مداعبة يدها أكثر فأكثر. ونظر نحوي مكشراً.

قال: لم يتدبر والدك أمره. أعدموه البيض من دون محاكمة. وأضاف:

لقد كانت قصة حزينة جداً تصعب روايتها لفتاتين صغيرتين مسكينتين. وما كان لرجل آخر أن يفعل إلا ما فعلته.

قالت شوغ: وربما لا.

نظر إليها، ثم إليّ. بدا مدركاً بأنها تعرف. لكن وما همّه؟

قال: اعتبريني مثالاً، أعرف معدنهم. مفتاحهم هو المال. مشكلة شعبنا بأنه لا يريد أن يعطي البيض أي شيء، بعد أن تخلص من العبودية. وللحقيقة فإن عليك أن تعطيهم شيئاً، سواء مالك، أو أرضك، أو امرأتك أو طيزك. ولهذا فإن ما فعلته كان بأن أعطيتهم مباشرة المال. تأكدت قبل بذر البذار، من أن هذا وذاك يعرفان بأن بذرة من بين كل ثلاث بذور قد زرعت من *أجله*. قبل أن أضع حبة قمح واحدة في الأرض، فعلت الشيء ذاته. وعندما افتتحت حانوت والدك القديم في البلدة، اشتريت لي فتى أبيض يديره. والجيد في الأمر، أنني اشتريته بمال البيض.

قالت شوغ: اطرحي على الرجل كثير المشاغل أسئلتك يا سيلي. أعتقد أن غداءه بدأ يبرد.

سألته: أين دفن والدي؟ هذا كل ما أود معرفته.

قال: إلى جوار أمك.

سألت: وهل هناك من علامة ما.

نظر نحوي كما لو أنني مجنونة. الأشخاص الذين يعدمون من دون محاكمة لا توجد علامات على قبورهم. هذا معروف لدى الجميع.

سألته: وهل هناك علامة على قبر أمي؟

قال: لا.

غادرنا والطيور تغرد بروعة كما كانت عليه حين قدومنا، ولتتوقف تماماً ما إن أخذنا الطريق الرئيسة، ومع الوقت الذي استغرقنا في وصولنا إلى المقبرة، أمست السماء رمادية.

بحثنا عن أمي وأبي. علنا نقع على قطعة خشب كُتِب عليها أي شيء،

إلا أننا ما عثرنا إلا على الأعشاب والعليق وأوراق الأزهار الذابلة فوق بعض القبور. التقطت شوغ حدوة حصان قديمة ضاعت من حصان أحدهم، ومضينا ندور ندور وندور وندور بها إلى أن ألمّ بنا دوار كفيل بطرحنا أرضاً، فغرزنا حدوة الحصان بالأرض حيث كنا سنقع.

قالت شوغ: لقد أصبحتِ الآن كل أهلي وأصبحتُ أنا كل أهلك، وقبلتني.

عزيزتي سيلي:

استيقظت هذا الصباح عازمة على إخبار كورين وصموئيل كل شيء. ذهبت إلى كوخهما وسحبت كرسياً إلى جوار سرير كورين. لقد زادها المرض وهناً وكل ما تستطيع فعله هو توزيع نظرات غير ودودة، وكنت أعرف بأنني غير مرحب بي.

قلت: يا كورين، أنا هنا لأخبرك أنت وصموئيل الحقيقة.

قالت: أخبرني صموئيل الحقيقة بالفعل. إن كان الولدان ابنيك، لماذا لا تقولين هذا؟

قال صموئيل: كلا يا حبيبتي.

قالت: لا تناديني حبيبتك. أقسمت نيتي على الإنجيل بأن تقول الحقيقة. أن تخبر الله الحقيقة، وكذبت.

قلت: لم أكذب يا كورين. أدرت ظهري بشكل أكبر نحو صموئيل. وهمست: لقد رأيتِ بطني.

قالت: وماذا أعرف أنا عن الحمل. لم أحبل يوماً. كل ما أعرفه، أن النساء قادرات على محو جميع الآثار.

قلت: لا يستطعن محو تشققات الحمل، فهي تتغلغل في الجلد، وبطن المرأة يتمدد بالقدر الكافي ولهذا يترك آثار ترهل، كما هي كل النساء هنا.

أشاحت بوجهها نحو الجدار.

قلت: أنا خالة الولدين يا كورين. والدتهما هي أختي الكبرى، سيلي.

ثم أخبرتهما القصة بأكملها. لكن كورين لم تكن مقتنعة بعد.

أنت وصموئيل تكذبان كثيراً، ومن يصدق ما تقولانه؟

قال صموئيل: عليك أن تصدّقي نيتي. رغم كون الجزء المتعلق بك وبأبي كان صدمة حقيقية بالنسبة إليه.

ثم تذكرت ما أخبرتني به حول رؤية كورين وصموئيل وأوليفيا في البلدة، عندما كانت تشتري قماشاً لتخيط فساتين لأوليفيا، وكيف قمت بإرسالي إليها لأنها كانت السيدة الثرية الوحيدة التي رأيتها على الإطلاق. حاولت جعل كورين تتذكر ذلك اليوم، لكنها لم تستطع التذكر.

أصبحت أضعف وأضعف، ولم تستطع تصديقنا واستعادة مشاعرها إزاء ولديها، أخشى أننا سنخسرها.

آه يا سيلي، النكران أمر رهيب. وكذلك الأذى الذي نلحقه بالآخرين من دون أن ندري.

صلّي من أجلنا...

نيتي

الأغلى سيلي،

كنت على مدار الأسبوع الماضي أحاول يومياً حثّ كورين على تذكر لقياك في البلدة. أعلم أنها لو استطاعت تذكر وجهك، فستصدق أن أوليفيا (إن لم يكن آدم) هي ابنتك. يعتقدان أن أوليفيا تشبهني، وهذا فقط لأنني أشبهك. لأوليفيا وجهك وعيناك. يذهلني أن كورين لم تر ذلك الشبه.

سألتها: هل تتذكرين الطريق الرئيسة في البلدة. هل تتذكرين صندوق البريد المثبت أمام حانوت فينلي للأقمشة؟ هل تتذكرين رائحته التي تشبه رائحة قشور الفول السوداني؟

قالت إنها تتذكر كل هذا، ولكن ما من أحد تحدث إليها.ثم تذكرت اللحافات. يبدع رجال أولينكا في الرسم بالأقمشة ويصنعون لحافات مطرزة بالحيوانات والطيور والبشر. وحالما رأتها كورين، بدأت بصنع لحافات تستبدل فيها مربعاً واحداً من الأشكال المطرزة بمربع مكون من تسع رقع، مستخدمة ملابس الولدين التي صغرت عليهما، وبعض فساتينها العتيقة.

ذهبت إلى صندوقها وبدأت بإخراج اللحافات.

قالت كورين: لا تلمسي أشيائي، لم أمت بعد.

أمسكت أول لحاف ومن ثم لحافاً ثانياً ورفعتهما نحو الضوء، محاولة العثور على اللحاف الأول الذي صنعته كما أتذكر. وحاولت في الوقت نفسه تذكر الفساتين التي ارتدتها هي وأوليفيا خلال الأشهر الأولى من إقامتي معهم.

قلت أها، عندما عثرت عما أبحث عنه، ونشرت اللحاف على السرير.

سألتها: هل تتذكرين شراء هذا القماش؟ وأنا أشير إلى مربع مطرز بالزهور. وماذا عن مربعات العصافير هذه؟

مسدت التطريز بإصبعها، ورويداً رويداً فاضت عيناها بالدمع.

قالت: كانت تشبه أوليفيا كثيراً! وكنت أخشى أن تطالب باستعادتها. ولهذا تناسيتها بأسرع ما أمكنني. كل ما سمحت لنفسي التفكير به هو كيف عاملني ذلك الموظف! كنت أختال كما لو أنني ذات شأن لكوني زوجة صموئيل، وخريجة «سبيلمان»، عاملني مثل أي زنجية عادية. آه، لقد جرح مشاعري! وكنت غاضبة! هذا ما راودني حينها، حتى إنني أخبرت صموئيل عنه، ونحن في طريقنا إلى المنزل. ولم أحدثه عن أختك - ماذا كان اسمها؟ - سيلي؟ لم أقل شيئاً عنها.

انفجرت بالبكاء بحرقة. أمسكت أنا وصموئيل يديها.

قلت: لا تبكِ، لا تبكِ. سعدت أختي برؤية أوليفيا معك. أسعدتها رؤيتها حية ترزق. ظنت أن كلا ولديها قد ماتا.

قال صموئيل: المسكينة. وجلسنا هناك نتجاذب أطراف الحديث ونشدّ من إزر بعضنا البعض إلى أن غفت كورين.

لكنها استيقظت يا سيلي، في منتصف الليل، والتفت إلى صموئيل قائلة: لقد صدقت. وماتت.

أختك الحزينة،

نيتي

سيلي الأغلى:

ما إن حسبت أنني تعلمت التأقلم مع القيظ، والدبق الدائم، والبخار الذي تلفظه ثيابي، والرطوبة الأشبه برطوبة المستنقعات في إبطي وبين رجلي، حتى داهمتني وجاءت معها التشنجات والأوجاع والآلام، وكان عليّ العمل كأن شيئاً لم يحدث، وإلا كنت مصدر إحراج لصموئيل، وللولدين، ولنفسي. ناهيك عن القرويين الذين يعتقدون أن على النساء أن يتوارين حين يحضن.

جاءت *صديقة* أوليفيا بعد وفاة والدتها مباشرة،؛ تدبرت هي وتاشي أمريهما. لم يقلن شيئاً على اتصال بالموضوع لا من قريب ولا من بعيد، ولم أعرف كيف أفاتحها بالأمر. يا له من خطأ جسيم؛ ولكن إن كلّمت فتاة من أولينكا عن أعضائها الحميمة، سيُغضب هذا أمها وأباها، ومن المهم جداً بالنسبة إلى أوليفيا ألا تكون غريبة. رغم أن طقوسهم الاحتفالية ببلوغ المرأة دموية ومؤلمة للغاية، أمنع أوليفيا عن مجرد التفكير بالموضوع.

هل تتذكرين هلعي حين حضت للمرة الأولى؟ حسبت أنني جرحت نفسي. شكراً لله أنك كنت إلى جانبي لتطميني.

دفنا كورين على الطريقة الأولنكية، لُفت في قماش لحاء الشجر وأودعت تحت شجرة كبيرة. رحل معها كل ما احتكمت عليه من لطف. وكل ما تعلمته وتلك النوايا الصادقة في فعل الخير. لقد علّمتني الكثير! سأفتقدها على الدوام. ذُهِل الطفلان عند موت والدتهما. كانا يعرفان أنها مريضة جداً، إلا أن الموت ما كان ليتبادر إليهما عند التفكير بأمر متعلق بوالديهما أو بنفسيهما. كان موكباً غريباً ومنمنماً. ارتدينا جميعاً

أثواباً بيضاء فيما وجوهنا مصبوغة بالأبيض. كان صموئيل تائهاً. لا أعتقد أنهما افترقا ليلة واحدة منذ زواجهما.

وكيف حالك أنت؟ يا أختي العزيزة. لقد مرت السنين من دون سماع كلمة واحدة منك. وحدها السماء تجمع بيننا. أنظر إليها غالباً كما لو أني، ومن خلال انعكاس أبعادها الهائلة، سأجد نفسي يوماً أحدق في عينيك. عيناك الغاليتان الكبيرتان الصافيتان الجميلتان. آه يا سيلي! حياتي هنا فارغة من أي شيء سوى العمل والعمل والعمل، والقلق. صباي أمسى من الماضي. وليس لدي شيء خاص بي. لا رجل، ولا أطفال، ولا صديق، باستثناء صموئيل. ولكن *لدي* طفلين، آدم وأوليفيا. كما *لدي* صديقتان، تاشي وكاثرين. لا بل عندي عائلة، إنها هذه القرية، التي ترزح تحت وطأة أوقات عصيبة.

جاء المهندسون ليعاينوا المنطقة عن كثب. جاء رجلان أبيضان البارحة وأمضيا بضع ساعات يتجولان في القرية، يتفحصان الآبار على وجه الخصوص. وسكان أولينكا المفطورون على التهذيب اندفعوا لتحضير الطعام لهما، على الرغم من أنه لم يتبق إلا النزر اليسير، فالعديد من البساتين التي تثمر في هذا الوقت من العام قد دُمرت. جلس الرجلان الأبيضان يتناولان الطعام وكأنه أمر مفروغ منه.

من المفهوم بالنسبة لسكان أولينكا أن الخير لن يأتي على الأرجح من الأشخاصُ نفسهم الذين دمروا منازلهم، ولكن العادات لا تموت بسهولة. لم أتحدث إلى الرجلين بنفسي لكن صموئيل فعل. قال إن جلّ حديثهما كان حول العمال وكيلومترات من الأراضي، وهطول المطر، والشجيرات الصغيرة، والآلات، ومواضيع ثانوية. بدا أحدهما غير مبالٍ على الإطلاق بالناس الموجودين حوله - اكتفى بتناول الطعام والتدخين ومراقبة ما حوله البعيد - والآخر، الأصغر عمراً، بدا متحمساً لتعلم اللغة. قبل، أن يقول، إنها تندثر.

لم ترقني مشاهدة صموئيل يحادثهما. سواء الرجل الذي يعلّق على كل كلمة، أو ذاك الذي ينظر إلى صموئيل وكأنه لا يراه.

أعطاني صموئيل جميع ملابس كورين، وكنت أحتاجها، طالما أن ملابسنا لا تناسب المناخ هنا. هذا يصح أيضاً على ملابس الأفارقة. اعتادوا ارتداء ملابس خفيفة، ولتعرّفهم سيدات إنجلترا على فستان «الأم هابرد»، وهو فستان طويل وثقيل بمقاسات غير مناسبة، وبلا شكل محدد، ومن المحال تجنب تعرضه للنار، ما تسبب في كثير من الحروق. لم أتقبل مطلقاً ارتداء أي من هذه الفساتين، وقد بدا أنها صنعت وفي ذهن المصممين أشخاص بمقاسات عملاقة، ولهذا كنت سعيدة بملابس كورين، إلا أنني لم أتجرأ على ارتدائها. أتذكرها وهي تقول يجب أن نتوقف عن ارتداء ملابس بعضنا البعض. آلمتني تلك الذكرى.

سألت صموئيل: هل أنت متأكد من أن الأخت كورين أرادت هذا؟

قال: أجل يا أخت نيتي. حاولي ألا تستخدمي خوفها ضدها. فقد تفهمت في النهاية، وصدّقت. وغفرت، غفرت كل ما يستحق الغفران.

قلت: كان عليّ أن أفصح مبكراً عن ما عرفته.

طلب مني أن أحدّثه عنكِ، فسالت الكلمات كالمياه. كنت أتحرق لأن أحادث أحداً ما عني وعنك. أخبرته عن رسائلي إليك في كل عيد ميلاد وعيد فصح، وكم كان سيعني لنا لو أنه ذهب لرؤيتك بعد رحيلي. كان يشعر بالأسف لتردده في التدخل.

قال: لو أنني فهمت حينها ما أعرفه الآن!

ولكن كيف كان ليفهم؟ هناك الكثير من الأشياء التي لا نفهمها. والكثير من المآسي تحدث بسبب ذلك.

مع حبي وأمنياتي بميلاد مجيد لك...

أختك، نيتي

عزيزتي نيتي،

ما عدت أكتب إلى الله. أكتب إليكِ.

سألتني شوغ: ما الذي حلّ بالله؟

قلت: ومن هو؟

رمقتني بنظرة جدية.

قلت: شيطان كبير مثلك، لا يشغله الله، لا يشغل بالك، بالتأكيد.

قالت: مهلاً. على رسلك. إن كنت لا أذكره كما يفعل بعض من نعرفهم جيداً فهذا لا يعني أنني لست مؤمنة.

سألتها: وماذا فعل الله لي؟

قالت: سيلي! كما لو أنها صُدِمت. وهبك الحياة، والصحة، والعافية، وسيدة طيبة تموت في حبك.

قلت: نعم، وأعطاني أباً مشنوقاً، وأماً مجنونة، وزوج أم منحط وكلب، وأختاً قد لا أراها ثانية. على أي حال، الله الذي كنت أصلي له وأكتب إليه ليس إلا رجلاً. وعاملني كما جميع الرجال الذين عرفتهم. رجال تافهون ومنحطون ومخادعون.

قالت: الأفضل أن تصمتي، يا آنسة سيلي. قد يسمعك الله.

قلت: فليسمعني. لو أنه استمع لمرة واحدة لما تقوله النساء الملونات المسكينات لكان العالم مكاناً مختلفاً، أؤكد لك.

تحدثتْ وتحدثتْ، محاولة ثنيي عن التجديف. لكني جدفت قدر ما شئت.

لم أكترث طيلة حياتي برأي الناس بأفعالي. وحده الله من اكترثت به. برأيه. واكتشفت لاحقاً، بأن لا رأي له. يكتفي بالجلوس هناك في الأعالي متباهياً بصمته. لكن من الشاق مواصلة الحياة من دون الله. حتى لو أيقنت بأنه غير موجود، فإن محاولة العيش من دونه أمر مرهق.

قالت شوغ: أنا آثمة لمجرد أنني ولدت. لا أنكر ذلك. ولكن حالما تكتشفين الذي ينتظرنا، فلن يكون بوسعك أن تكوني غير ذلك؟

قلت: الآثمون يتمتعون بأوقاتهم.

سألتني: أتعرفين لماذا؟

قلت: لأنك لا تقلقين بشأن الله طيلة الوقت.

قالت: لا، هذا ليس صحيحاً. نخشى الله كثيراً. ولكن حالما نشعر بمحبته، فإننا نبذل قصارى جهدنا لإرضائه بما يروق لنا.

أتحاولين إخباري بأن الله يحبك، ولم تفعلي شيئاً من أجله؟ أقصد، لم تذهبي إلى الكنيسة، لم تغني في الكورال، لم تقدمي الطعام للواعظ ونحو ذلك؟

ليس عليّ فعل كل ذلك إن كان الله يحبني يا سيلي، إلا إن رغبت بذلك. بمقدوري فعل وقول الكثير من الأشياء التي يحبها الله.

سألتها: مثل ماذا؟

قالت: آه. يمكنني أن أستلقي وأتملّى بإعجاب ببعض الأمور. بأن أكون سعيدة. وأستمتع بأوقاتي.

حسناً، يبدو هذا تجديفاً كافياً.

قالت: سيلي، أصدقيني القول، هل وجدت الله يوماً في الكنيسة؟ أنا لم أجده قط. وجدت فقط مجموعة من البشر يأملون ظهوره. الله الذي أحسست بوجوده في الكنيسة حملته معي. وأعتقد أن الآخرين فعلوا الشيء ذاته. يأتون إلى الكنيسة *ليتشاركوا* الله، وليس ليجدوه.

قلت: بعضهم لا يعرفونه حتى يتشاركوه مع أحد. إنهم أولئك الذي

امتنعوا مبادلتي الكلام حين كنت هناك أعاني الأمرَّين من بطني الكبير وأولاد السيد ـــــ.

قالت: صحيح.

وأردفت قائلة: أخبريني كيف يبدو لك إلهك، يا سيلي، يشبه ماذا؟

قلت: آه، لا، أشعر بالخزي الشديد. لم يسألني أحد هكذا سؤال من قبل، وبدوت كمن أخذ على حين غرة. ليس من الصواب بشيء التفكير على هذا النحو. ولكن هذا ما كان بحوزتي. قررت المواصلة، فقط لأتبين ما الذي ستقوله شوغ.

قلت: إنه ضخم وعجوز وطويل وأبيض بلحية رمادية. ويرفل بثوب أبيض وقدماه حافيتان.

سألتني: هل عيناه زرقاوان؟

قلت: رماديتان أقرب للأزرق. ووادعتان. وكبيرتان أيضاً. بأهداب بيضاء.

ضحكت.

سألتها: لماذا تضحكين. لا أعتقد أن في ذلك ما يضحك. هل ظننتِ أنه يبدو مثل السيد ـــــ؟

قالت: ما من جديد في ذلك. وقالت إن هذا الرجل الأبيض العجوز ليس إلا الله الذي كان يطالعها عندما كانت تصلي. إن ترقبتِ يا سيلي ظهور الله في الكنيسة، فلا يفترض أن تري سوى ذلك الرجل، لأنه يعيش هناك.

سألتها: كيف؟

لأنه هو إله الإنجيل الأبيض الخاص بالبيض.

قلت: شوغ! الله هو من كتب الإنجيل، لا علاقة للبيض بذلك.

قالت: وكيف له أن يشبههم إذاً. أكبر بالحجم فقط؟ ولديه كومة أكبر من الشعر. لماذا الإنجيل مفصّل تماماً وفق أفعالهم، متمحور حولهم

سواء قاموا بهذا الفعل أو ذاك، بينما كل ما يفعله الملونون هو تلقي اللعنات؟

لم أفكر مطلقاً بذلك.

وأخبرتها: تقول نيتي إنه ورد في الإنجيل أن شَعر المسيح كان مثل صوف الحمل.

قالت شوغ: حسناً، لو أنه جاء إلى إحدى هذه الكنائس التي نتحدث عنها لكان دمرها قبل أن ينتبه أحد. آخر شيء يود الزنوج التفكير به أن لربهم شعراً أجعدَ.

قلت: هذه هي الحقيقة.

قالت: لا سبيل لقراءة الإنجيل من دون التفكير بأن الله أبيض. تنهدت وأردفت: ما عدت أهتم، بعد اكتشافي أن الله أبيض ورجل. أنت غاضبة لأنه لا يستجيب لأدعيتك. هراء! وهل يستجيب العمدة للملونين؟ اسألي صوفيا.

لا داعي لأن أسأل صوفيا. أعرف أن البيض لا يصغون مطلقاً للملونين، نقطة انتهى. يصغون بالقدر الذي يتيح لهم إعطاء الأوامر بما عليك فعله.

قالت شوغ: إليك بيت القصيد. ما أؤمن به هو أن الله في داخلك وداخل كل إنسان. تأتين إلى هذا العالم وهو في داخلك. وحدهم من يبحثون عنه في دواخلهم يلقونه. وأحياناً يتبدّى حتى وإن كنت لا تبحثين عنه، أو لا تعرفين عما تبحثين عنه. إنها البلايا، تنال من البشر أجمعين فيتجلى. إنه الأسى، رباه، يا للخراء الذي أنا فيه.

سألتها: هل هو شيء؟

قالت: نعم هو كذلك، الله شيء، ليس هو ولا هي.

سألتها: ما هو هذا الشيء، ماذا يشبه؟

قالت: لا يشبه شيئاً آخر. ليس صورة، ولا مما تدركه الأبصار بمعزل

عن أي شيء آخر، ومن بينها نفسك أنت. أؤمن أن الله هو كل شيء. كلّ ما يكون أو ما كان أو ما سيكون. حين تستشعرين ذلك، ويسرك هذا الشعور، تكونين قد عثرتِ عليه.

دعيني أقول لك إن شوغ شيء جميل. تجهمت قليلاً، نظرت خارجاً إلى الفناء، استوت بجلستها للخلف على الكرسي، وبدت مثل وردة كبيرة.

قالت: أولى خطواتي للخروج من عباءة الرجل الأبيض العجوز كانت الأشجار. الهواء. والعصافير. ثم معشر البشر. وبينما كنت في يوم من الأيام جالسة وقدّ حلّت عليّ السكينة، طفلة يتيمة الأم، وتلك هي حقيقتي، راودني شعور بأنني جزء من كل شيء، ولست منفصلة عنها على الإطلاق. أيقنت بأنني إذا قطعت شجرة، فإن يدي ستنزف. وضحكت وبكيت وركضت حول البيت. عرفت ماهيته فحسب. وللحقيقة فما إن يحدث ذلك، فإنك لا تعودين قادرة على تجاهله.

وأضافت وهي تبتسم وتتحسس فخذي وتداعبهما: إنه يشبه إلى حدّ بعيد، أتعرفين ماذا؟

صرخت: *شوغ!*

قالت: آه. الله يحب كل هذه الأحاسيس. هذه واحدة من أفضل خصاله. ما إن توقني حبه هذا حتى تمسي أحاسيسك مصدر بهجة هائلة. فقط استرخي، ودعي نفسك تنساب مع الأشياء، وتسبّحين بحمد الله عبر حبّ ما تحبين.

سألت: ألا يعتقد الله أن هذا فعل شائن؟

قالت: لا. هذا من صنيعه. أنصتي لي. الله يحب كل شيء تحبينه والكثير مما لا تحبينه. وجلّ ما يحبه بما يفوق أي شيء آخر هو أن يكون محطّ إعجاب.

سألت: أتقصدين أن الله مغرور؟

قالت: لا، ليس مغروراً، يريد فقط تشارك الخير. أحسبه يغضب إن صادفت اللون الأرجواني في مكان ما من الحقل ولم تنتبهي.

سألت: ماذا يفعل عندما يغضب؟

آه، يصنع شيئاً آخر. الناس يعتقدون أن مرضاته هو كل ما يتطلع إليه. أي أحمق في العالم بمقدوره إدراك أن الله يحاول على الدوام إرضاءنا بالمقابل.

قلت: نعم هو كذلك.

قالت: يحضّر دائماً مفاجآت صغيرة ويغدقها علينا عندما تكون آخر شيء نتوقعه.

تقصدين أن الله يود أن يكون محبوباً، تماماً كما يقول الإنجيل.

قالت: نعم يا سيلي. كل شيء يود أن يكون محبوباً. نحن نغني ونرقص، ونصوغ تعابيرَ بوجوهنا ونقدم باقات الورود، في سعينا لأن نكون محبوبين. هل لاحظت يوماً أن الأشجار تقوم بكل شيء نقوم به للفت الانتباه، ما عدا المشي؟

حسناً، نحن نتحدث ونتحدث عن الله، لكني لا زلت منساقة. أحاول طرد الرجل الأبيض العجوز من رأسي. كنت غارقة في التفكير به ولم ألحظ بصدق أي شيء صنعه الله. ولا حتى جزءاً صغيراً من وريقة الذرة، (كيف خلقها؟) ولا اللون الأرجواني (من أين جاء؟). ولا الأزهار البرية الصغيرة. لا شيء.

الآن وقد فتحت عيني، أشعر بأنني كنت حمقاء. بعد كل نظرة للشجيرات في فناء منزلي، يتقلص شر السيد ـــــ. ليس كله. وكما قالت شوغ، عليك أن تخرجي الرجل من بؤبؤ عينك، قبل أن ينجلي المشهد أمام ناظريك.

قالت شوغ: الرجل كفيل بتخريب كل شيء. تجدينه في صندوق الحبوب، وفي رأسك، وعلى جميع محطات الإذاعة. بما يدفعك

للاعتقاد بأنه في كل مكان. وما إن تحسبي أنه كل شيء، فإنك ستجدين فيه الله. لكنه ليس كذلك. وفي كل مرة يندس الرجل في صلاتك اسأليه أن يتلاشى بسحر الزهور والرياح والمياه والصخور.

أعرف أنه عمل شاق، لكن دعيني أقول لك إنه قابع هناك منذ زمن بعيد، لا يريد أن يتزحزح. يهدد بإرسال الصواعق والفيضانات والزلازل. نحن نصارع، وأنا بالكاد أصلي. في كل مرة تسحرني صخرة، أرميها.

آمين

عزيزتي نيتي،

عندما أخبرت شوغ أنني استعضت عن الكتابة إلى الله بالكتابة إليك، ضحكت. قالت: نيتي لا تعرف أولئك الذين تكتبين عنهم. وبالنظر إلى من كنت أكتب إليه، فقد أضحكني هذا كثيراً.

إنها صوفيا من رأيتها تعمل خادمة لدى العمدة. هي من كانت في البلدة تحمل أكياس السيدة البيضاء في ذلك اليوم. صوفيا زوجة هاربو ابن السيد ـــــ. احتجزتها الشرطة بتهمة ازدراء زوجة العمدة وضرب هذا الأخير بعد أن ضربها. عملت في السجن في تنظيف الثياب وكان الموت قاب قوسين أو أدنى منها. ثم ساعدناها في الانتقال إلى بيت العمدة. كان عليها أن تنام في القبو، إلا أنه كان أفضل من السجن. الذباب كثير، لكن لا وجود للجرذان.

على كلٍّ، احتجزوها لإحدى عشرة سنة ونصف، وأعفوها من ستة أشهر لحسن السلوك فالتقت عائلتها أبكر ببضعة أشهر. تزوج ابنها البكر ورحل، وأبناؤها الصغار لا يعرفونها وهي مثار حنقهم، يرونها مضحكة، وليست إلا عجوزاً ترعى تلك الفتاة البيضاء الصغيرة التي ربتها.

تناولنا البارحة الغداء في منزل أوديسا. أوديسا شقيقة صوفيا. هي من ربّت الصغار. هي وزوجها جاك. وكان هناك هاربو وزوجته سكويك.

جلست صوفيا إلى المائدة الكبيرة كما لو كان المكان لا يتسع لها. يتعامل معها الأولاد كما لو أنها غير موجودة. وبدا كلّ من هاربو وسكويك كزوجين عتيقين. ينادي الأولاد أوديسا «ماما»، بينما ينادون

سكويك بـ«ليتل ماما»[15]. أما صوفيا فليست سوى «الآنسة»، وما من أحد يهتم لأمرها سوى هاربو وابنة سكويك الصغيرة. وكانت سوزي كيو تجلس مقابل صوفيا وهي تنظر إليها بعينين نصف مغمضتين.

حالما انتهى الغداء، دفعت شوغ كرسيها وأشعلت سيجارة. قالت: دقت الساعة لتعلموا جميعاً.

سأل هاربو: نعلم ماذا؟

قالت: سنرحل.

قال هاربو، وهو ينظر حوله بحثاً عن القهوة: حقاً؟ ثم نظر نحو غرادي.

أردفت شوغ: سنرحل. بدا السيد ـــــ مذهولاً، تماماً كما درج على ذلك كلما أخبرته شوغ بأنها ذاهبة. حكّ بطنه، ونظر نحوها من دون أن يراها، كما لو أنه لم يسمع شيئاً.

قال غرادي: للحقيقة أنتم أناس طيبون جداً. أنتم ملح الأرض. لكن... حان وقت مواصلة الدرب.

لم تقل سكويك شيئاً. التصقت ذقنها بصحنها. وأنا بدوري لم أقل شيئاً أيضاً. كنت بانتظار تطاير الريش.

قالت شوغ: سيلي سترحل معنا. برم السيد ـــــ رأسه مباشرة: ما الذي تقولينه؟

ستذهب سيلي معي إلى ممفيس.

قال السيد ـــــ: على جثتي.

قالت شوغ، بمنتهى البرود: لا تأبه إلا بنفسك.

همّ السيد ـــــ بالتحرك عن كرسيه، نظر إلى شوغ، ورمى بثقله مجدداً على الكرسي. نظر نحوي. قال: ظننت أنك أصبحت سعيدة الآن. ما الذي استجد؟

---

15 - «ليتل ماما» أي أمنا الصغيرة. (المترجمة).

قلت: أنت كلب منحط هذا ما استجد. حان وقت هجرانك وأن أخطو نحو ملكوت البشر. وجثتك أحتاجها لتكون ممسحة العتبة.

سأل مصعوقاً: ما الذي تقولينه؟

فغرت أفواه جميع من كان على المائدة.

قلت: أخفيتَ رسائل أختي نيتي عني. وكانت هي الشخص الوحيد الذي يحبني في هذا العالم.

بصق السيد ـــــ. لكن للكن لللكن لكن. بدا تلعثمه أشبه بهدير محرك.

قلت: لكن نيتي وولديّ سيعودون قريباً إلى البلاد. ومتى حدث ذلك، فإننا سنبرحك ضرباً.

قال السيد ـــــ: نيتي وولداك. أنت تهلوسين.

قلت: لدي ولدان. يترعرعان في أفريقيا. يدرسان في مدارس جيدة، وينعمان بالهواء النقي والرياضة. بون شاسع بينهما وبين هؤلاء الحمقى الذين ما سعيت لتربيتهم.

قال هاربو: مهلاً.

قلت: اذهب إلى الجحيم أنت و«مهلاً». لو لم تسعَ للسيطرة على صوفيا لما نال البيض منها.

حلت الدهشة على صوفيا وهي تسمعني أعبّر عن نفسي بصوت عال واثق. أوقف مضغها لعشر دقائق.

قال هاربو: هذا افتراء.

قالت صوفيا: لا تعوزه الحقيقة.

توجهت أنظار الجميع نحوها وقد فوجئوا بوجودها. بدت كما لو أنه صوت خرج عن قبر.

قلت: كلكم أولاد عفنون. أحلتم حياتي إلى جحيم على الأرض. وأبوكم ليس إلا روث حصان نافق.

اقترب السيد ـــــ ليصفعني. وخزت يده بسكيني.

قال: يا لك من عاهرة. ماذا سيقول الناس، تهربين إلى ممفيس كما لو أنه ليس لديك بيت تعتنين به.

قالت شوغ: ألبرت. تحلّى ببعض المنطق. ولماذا تأبه امرأة لما يقوله الناس؟ لا زال هذا لغزاً محيراً بالنسبة لي.

قال غرادي محاولاً توضيح الأمور: حسناً، لا يمكن للمرأة الحصول على رجل إن نالتها ألسنة الناس.

نظرت شوغ نحوي وانفجرنا ضاحكتين. وانتقلت نوبة الضحك إلى سكويك فصوفيا. ضحكنا وضحكنا.

قالت شوغ: أليسوا مضحكين؟ أجبناها بـ«أمممم»، وضربنا الطاولة، ومسحنا الدموع من أعيننا.

نظر هاربو إلى سكويك. قال: اخرسي يا سكويك؟ أن تضحك النساء على الرجال فهذا نذير شؤم.

قالت سكويك: حسناً. استوت في جلستها، وكتمت نفسها، محاولة كبت ضحكتها.

نظر هاربو إلى صوفيا. نظرت إليه وضحكت في وجهه. قالت: حظيتُ بحظي المشؤوم مسبقاً. عانيت بما يكفي للضحك طيلة حياتي.

وجّه هاربو نحوها النظرة نفسها التي رمقها بها ليلة أبرحت ماري أغنيس ضرباً. تصاعدت شرارات صغيرة حول الطاولة.

غمغم قائلاً: لدي ستة أولاد من هذه المرأة المجنونة.

قالت: خمسة.

إنه مهزوم جداً لدرجة يتعذر فيها قول، ماذا قلت؟

نظر نحو الطفلة الصغرى. إنها متجهمة ولئيمة ومؤذية، وعنيدة جداً للعيش في هذا العالم. لكنه يحبها أكثر من الجميع. اسمها هنريتا.

قال: هنريتا.

قالت: نعمممممممم... كما يقولونها في الراديو.

كل ما تقوله يربكه. قال: لا شيء. ثم أردف: اذهبي واجلبي لي كوباً من الماء البارد.

لم تتحرك.

وأضاف: من فضلك.

أحضرت الماء، وضعته في صحنه، وقبلته على خده. قالت له: يا لك من أبٍ مسكين. وعادت إلى مكانها.

قال السيد ـــــ: لن تحصلي على شي من مالي. ولا حتى قرش واحد.

قلت: هل طلبت منك يوماً نقوداً. لم أطلب منك شيئاً. ولا حتى يدك البائسة للزواج.

وهنا تدخلت شوغ. وقالت: مهلاً مهلاً. شخص آخر سيذهب معنا. لا فائدة من أن يكون العبء كله مرمي على سيلي.

اتجهت جميع الأنظار نحو صوفيا. فهي الشخص الوحيد الذي يشعرهم بأن لا مكان له هنا. إنها الغريبة.

قالت: لست أنا، فيما نظرتها تقول، سحقاً لكم ولما يجول في خواطركم. مطّت جسدها لتطال قطعة من البسكويت وتغوص أعمق في كرسيها متسمّرة فيه. نظرة واحدة إلى هذه السيدة الضخمة القوية الجامحة وقد اشتعل رأسها بالشيب، كافية لتعرفي كل شيء من دون التلفظ بسؤال واحد.

قالت: ولكن فقط لأقطع الشك باليقين. أنا في منزلي الآن. وكفى.

دنتْ منها أختها أوديسا وطوّقتها بذراعيها. اقترب جاك أيضاً.

قال جاك: بالطبع أنت في منزلك.

سأل أحد أولاد صوفيا: أمي تبكي؟

وقال آخر: الآنسة صوفيا أيضاً.

إلا أن صوفيا بكت سريعاً، كما تفعل حيال معظم الأشياء.

سألت: من سيرحل؟

لم يقل أحد شيئاً. ساد الهدوء لدرجة يمكن فيها سماع طقطقات الجمرات الأخيرة في الموقد. بدا وكأنها تتهاوى فوق بعضها البعض.

في نهاية المطاف، نظرت سكويك إلى الجميع من تحت غرتها. قالت: سأذهب إلى الشمال.

قال هاربو: ماذا ستفعلين. كان متفاجئاً جداً. بدأ يتعتع ويتعتع مثل والده. بدا على شيء مما يفوق الوصف.

قالت سكويك: أريد أن أغنّي.

قال هاربو: تغنين!

قالت سكويك: نعم، أغني. لم أغنِّ أمام جمهور منذ ولدت جولنيثا. اسمها جولنيثا. وينادونها سوزي كيو.

لم تغني على الملأ منذ ولادة جولنيثا. كل ما تحتاجينه وفرته لك.

عادت سكويك وقالت: أريد أن أغني.

قال هاربو: اصغي إليّ يا سكويك. لا يمكنك الذهاب إلى ممفيس. هذا كل ما يمكنني قوله لك.

قالت سكويك: اسمي ماري أغنيس.

سكويك، ماري أغنيس، ما الفرق؟

قالت سكويك: هناك فرق كبير. عندما كنت ماري أغنيس كان بوسعي الغناء على الملأ.

حينها فقط سمعنا طرقاً خفيفاً على الباب.

تبادلت أوديسا وجاك النظرات. قال جاك: تفضل.

دفعت الباب امرأة بيضاء صغيرة ونحيلة.

قالت: أنتم تتناولون الغداء. المعذرة.

أجابتها أوديسا: لا عليكِ. شارفنا أن ننتهي. هناك المزيد. تفضلي شاركينا. يمكنني إن رغبت أن أحضّر لك شيئاً تتناولينه على الشرفة.

قالت شوغ: يا إلهي.

إنها إليانور جاين، الفتاة البيضاء التي كانت صوفيا تعمل عندها.

جالت بنظرها إلى أن وقعت على صوفيا، ثم تنفست الصعداء. قالت: لا، شكراً يا أوديسا. لست جائعة. جئت فقط لرؤية صوفيا.

قالت: صوفيا، هل يمكنني التحدث إليك لدقيقة على الشرفة.

ليكن يا آنسة إليانور. نهضت صوفيا وذهبتا إلى الشرفة. بضع دقائق وسمعنا الآنسة إليانور تشهق. ثم سمعناها تجهش بالبكاء.

سأل السيد ـــــ: ما الأمر؟

قالت هنريت بصوت إذاعي: مشا - كلللللل...

هزت أوديسا كتفيها بلا مبالاة. قالت: إنها دائماً مسحوقة تحت الأقدام.

قال جاك: كثيرة هي مشاكل هذه العائلة جراء الإفراط بشرب الكحول. إضافة إلى أنهم لا يستطيعون إبقاء ولدهم في الكلية. إنه سكّير، ويضايق أخته، ويطارد النساء، ويلاحق الزنوج، وهذا غيض من فيض.

قالت شوغ: مسكينة صوفيا.ألا يكفيها.

بعد فترة وجيزة عادت صوفيا وجلست.

سألتها أوديسا: هل عليك العودة إلى هناك؟

قالت صوفيا: أجل، في غضون دقائق. سأسعى لأعود قبل ذهاب الأطفال للنوم.

استأذنت هنريتا بالانصراف، وقالت إن معدتها تؤلمها.

دنت سكويك وابنة هاربو الصغيرة، ورفعت ناظريها نحو صوفيا، وقالت: هل ستذهبين يا آنثة صوفيا[16]؟

قالت صوفيا: نعم، وجذبتها إلى حضنها. ثم أردفت: صوفيا أخذت إطلاق سراح مشروط. عليها أن تتصرف بلطف.

16- وردت في النص الإنجليزي «Misofia». (المترجمة).

أسندت سوزي كيو رأسها على صدر صوفيا. قالت: مسكينة صوفيا، مقلدة ما قالته شوغ.

قال هاربو: ماري أغنيس، يا حبيبتي. انظري كيف أمست سوزي كيو تحب صوفيا.

قالت سكويك: أجل، الأطفال يميزون الخير عندما يرونه. تبادلت هي وصوفيا الابتسامات.

قالت صوفيا: اذهبي وغنّي، سأعتني بهذه لحين عودتك.

قالت سكويك: حقاً؟

قالت صوفيا: نعم.

قالت سكويك: واعتني بهاربو رجاء يا سيدتي.

آمين

عزيزتي نيتي،

حسن، تعرفين أنه حيث يوجد رَجل، توجد المتاعب. وهكذا كان غرادي في طريقنا إلى ممفيس، متواجداً في كل مكان في السيارة، ساعياً للجلوس إلى جانب سكويك مهما تبدّلت أمكنتنا.

بينما كنا أنا وشوغ نائمتين وهو يقود، حكى لسكويك كل شيء عن الحياة في شمال ممفيس، تينيسي. لم أستطع أن أنعم بنصف إغفاءة لأنه كان يتحدث كالمجنون عن النوادي والملابس وتسعة وأربعين نوع بيرة. كان يثرثر كثيراً عن المشروبات ما أيقظ رغبتي بالتبول. ثم كان علينا العثور على طريق مشجّر لقضاء الحاجة.

حاول السيد ـــــ التصرف وكأن رحيلي لا يعنيه. قال: ستعودين. لا يوجد في الشمال مكان لنكرة مثلك. شوغ موهوبة. يمكنها الغناء. لديها الجرأة. يمكنها التحدث مع أي شخص. شوغ جميلة. يمكنها أن تتحدّى، وتلفت الأنظار إليها. وماذا لديك أنت؟ أنت قبيحة. وهزيلة. ومضحكة. مرتعدة تهابين النطق بحرف واحد أمام الناس. كل ما تصلحين لفعله في ممفيس هو أن تكوني خادمة شوغ. تنظفين مرحاضها وربما تطهين لها الطعام. حتى إنك لست طاهية جيدة. وهذا البيت لم يكن نظيفاً منذ وفاة زوجتي. وما من أحد في رأسه عقل سيرغب بالزواج منك. ماذا ستعملين؟ ربما أجيرة في مزرعة؟ ضحك. قد يتيح لك أحدهم العمل في سكة الحديد؟

سألت: هل وصلت رسائل جديدة؟

قال: ماذا؟

قلت: سمعت ما قلته. هل من رسائل من نيتي؟

قال: إن وصلت فلن أعطيك إياها. أنتما الاثنتان من الطينة نفسها. أنتن ممن يقابل المعروف بالنكران.

قلت: ألا اللعنة عليك.

قال: ما معنى هذا؟

قلت: كل ما تلمسه سيتفسخ ويتداعى ما لم تنصفني.

ضحك قائلاً: ومن تحسبين نفسك؟ لا يمكنك لعن أحد. انظري إلى نفسك. أنت سوداء وفقيرة وبشعة، أنت امرأة. اللعنة. أنت لا شيء على الإطلاق.

قلت: كل ما تتطلع إليه سينتهي إلى الفشل. قلت هذا له مباشرة، تماماً كما تبادر إلى ذهني. استلهمت ذلك من الأشجار على الأرجح.

قال السيد ـــــ: ممن تعلمتِ هذا الكلام. يبدو أنني لم أبرحك ضرباً بشكلٍ كافٍ.

قلت: كل ضربة وجهتها إليّ سترتد عليك مضاعفة. من الأفضل أن تتوقف عن الكلام فما أقوله لست أنا مصدره فقط. يبدو أنني عندما أفتح فمي يدخل الهواء ويشكّل الكلمات.

قال: خراء. كان علي حبسك، وأسمح لك بالخروج فقط للعمل.

قلت: السجن الذي تخطط لحبسي فيه هو السجن الذي ستتعفن فيه.

التحقتَ بنا شوغ بينما نتحدث. ألقت نظرة عليّ ثم قالت: سيلي! ثم التفتت إلى السيد ـــــ. قائلة: توقف يا ألبرت. لا تقل كلمة أخرى. أنت تصعّب الأمر عليك فحسب.

قال السيد ـــــ: سأجهز عربتها، ووثب نحوي.

انبعثت على الشرفة زوبعة شيطانية من الغبار حالت بيننا، وملأت فمي بالتراب. قال الغبار: كل ما تستنزله بي، سيحلّ عليك.

ثم شعرت بشوغ تهزني. قالت: سيلي. فاستعدت رشدي.

قال الصوت مسمعاً كل سامع: أنا فقيرة وسوداء أي نعم، وربما قبيحة وطاهية فاشلة. لكنني ما زلت هنا.

آمين. قالت شوغ. ثم كررتها مرتين: آمين، آمين.

عزيزتي نيتي،

ماذا أحدّثك عن ممفيس؟ منزل شوغ كبير وزهري أشبه بالإسطبل. مع فارق واحد بأن الأمكنة المخصصة للقش، أصبحت غرف نوم ودورات مياه وصالة رقص كبيرة حيث تتمرن هي وفرقتها. يحيط المنزل الكثير من الجنائن ومجموعة من النصب التذكارية ونافورة أمام البيت، وتماثيل لأشخاص لم أسمع بهم من قبل ولا أتطلع لرؤيتهم. لديها مجموعة كبيرة من الفيلة والسلاحف في كل مكان. بعضها كبير، وبعضها الآخر صغير، تجدينها في النافورة، أو تحت الأشجار. فيلة على الستائر، وسلاحف على المفارش.

خصصت لي شوغ غرفة نوم كبيرة تطل على الفناء الخلفي والأحراش أسفل الجدول.

قالت: أعرف أنك معتادة على شمس الصباح.

غرفتها مقابل غرفتي تماماً، في الظل. تعمل لوقت متأخر، وتنام وتستيقظ في وقت متأخر، لا سلاحف ولا فيلة في غرفة نومها، لكن هناك بعض التماثيل في الغرفة. تنام مرتدية الحرير والساتان، حتى ملاءاتها من الحرير والساتان. وسريرها دائري!

قالت شوغ: أريد بناء منزل دائري، ولكن الجميع يقولون إن هذا ضرب من جنون، ولا يمكن أن يكون لبيت دائري نوافذ. مع ذلك فإنني وضعت بعض التصاميم. قالت: في يوم ما...، وأطلعتني على الأوراق.

إنه منزل دائري كبير بلون زهري، يبدو نوعاً من أنواع الفاكهة. فيه نوافذ وأبواب وتحيط به أشجار كثيرة.

سألتها: ممَّ هو مصنوع؟

قالت: من الطين. لن أمانع أن يكون من الإسمنت. يمكن صنع قوالب لكل قسم على حدة، تصبين الإسمنت فيها، حتى يقسى، تتخلصين من القالب، وتلصقين الأجزاء مع بعضها البعض بطريقة ما ويصبح منزلك جاهزاً.

قلت: حسناً، أحب منزلك هذا. هذا الآخر يبدو صغيراً قليلاً.

قالت شوغ: لا بأس به. لكن العيش في منزل مربع أمر مضحك. لو كنت مربعة، لتقبلت الموضوع على نحو أفضل.

تحدثنا كثيراً عن البيوت. كيف تُبنى، ما نوع الخشب المستخدم. تحدثنا عن كيفية استغلال القسم الخارجي من المنزل. جلستُ على السرير وبدأت برسم ما يشبه سياجاً خشبياً حول بيتها الإسمنتي. قلت: يمكنك حين تملين البقاء في داخل المنزل، الجلوس هناك.

نعم، دعينا نضع ظلّة له. أخذتْ قلم الرصاص وظللت. وأضافت: لنضع أصص الزهور هنا. ورسمت بعضها.

وزهر المسك ضمنها. ورسمت بعضاً منها.

بضع فيلة حجرية هنا.

وسلحفاة أو اثنتان هنا.

سألتني: وكيف نعرف أنك تعيشين هنا أيضاً؟

قلت: *البط!*

ومع انتهائنا من منزلنا بدا وكأن بإمكانه السباحة أو الطيران.

لا أحد يضاهي شوغ في الطبخ.

تستيقظ باكراً في الصباح وتذهب إلى السوق. تشتري المكونات الطازجة فقط. ثم تعود إلى المنزل وتجلس على الدرج الخلفي تدندن وتقشر البازلاء أو تنظف الكرنب أو السمك أو أي شيء مما اشترته. ثم تضع جميع القدور معاً لتنضج سوية وتشغّل الراديو. وبحلول الساعة

الواحدة يكون كل شيء جاهزاً وتدعونا إلى المائدة. لحم الخنزير المدخن والخضراوات والدجاج وخبز الذرة. السجق واللوبياء والمرق. مخلل الباميا وقشور البطيخ. كعكة الكراميل وفطيرة التوت الأسود.

نأكل ونأكل، نحتسي القليل من النبيذ الحلو والبيرة أيضاً.

ثم نذهب أنا وشوغ ونستلقي في غرفتها للاستماع إلى الموسيقى حتى يتم هضم الطعام الذي التهمناه. باردة ومعتمة غرفتها. سريرها ناعم وجميل. نستلقي وقد أحاطت كل منا الأخرى بذراعها. تقرأ شوغ أحياناً الجريدة بصوت عالٍ. والأخبار دائماً تبدو مجنونة. أناس يتقاتلون ويتحاربون ويتبادلون الاتهامات، ولا يبحثون مطلقاً عن السلام.

قالت شوغ: الناس مجانين. مجانين مثل بق الفراش. هنا يبنون سداً لإغراق قبيلة هندية عاشت منذ الأزل. وانظري إلى هذا، إنهم يصنعون فيلماً عن الرجل الذي قتل جميع نسائه. الرجل نفسه الذي يلعب دور القاتل سيؤدي أيضاً دور الكاهن. وانظري إلى هذه الأحذية التي يصنعونها الآن. حاولي المشي ميلاً واحداً وأنت تنتعلين زوجين منهم. ستعرجين طيلة طريق عودتك إلى المنزل. ولك أن تري ماذا يحاولون فعله بذلك الرجل الذي ضرب الزوجين الصينيين حتى الموت. ما من عقوبة تطاله.

قلت: نعم، لكن هناك بعض الأشياء المبهجة.

قالت شوغ: صحيح. وقلبت الصفحة. يسر السيد والسيدة هاملتون هوفماير أنّ يزفا إليكم نبأ زواج ابنتهما جاين سو. عائلة ذا مورسيز أوف إندأوفر رود تترأس اجتماعاً في الكنيسة الأسقفية. السيدة هربرت إدنفيل كانت الأسبوع الفائت في زيارة إلى آديروندك لرؤية والدتها المريضة الزوجة السابقة لجيفري هوود.

قالت شوغ: كل هذه الوجوه تبدو سعيدة كفاية. كبيرة ممتلئة. العيون صافية وبريئة، كما لو أنهم لا يعلمون بوجود محتالين في الصفحة الأولى. لكنهم الأشخاص نفسهم.

عادت شوغ سريعاً إلى العمل، بعد طهو وجبة عشاء عامرة والإعداد لمستلزمات تنظيفها البيت. وهذا يعني أنها لا تكترث بما تأكله. ولا حيث تنام. تسافر لأسابيع، تعود إلى المنزل بعينين غائمتين، ونَفَس كريه، وشعر دهني، وقد زاد وزنها. لا يوجد مكان أثناء رحلتها يمكنها التوقف فيه والاغتسال، خاصة شعرها.

قلت: دعيني أرافقك. يمكنني غسل ملابسك، وتصفيف شعرك. سيكون هذا مثل الأيام الخوالي، عندما كنت تغنين في حانة هاربو.

رفضت. يمكنها التظاهر بأنها لا تشعر بالملل أمام الجمهور والغرباء، وكثير منهم من البيض، ولكنها لا تجرؤ على التظاهر أمامي.

قالت: علاوة على ذلك، أنت لستِ خادمتي. لم أجلبك إلى ممفيس لتكوني كذلك، بل أنت هنا لأحبك وأساعدك بالوقوف على قدميك.

وهي الآن في جولة لمدة أسبوعين، وأنا وغرادي وسكويك نجوب المنزل محاولين تدبر أمورنا معاً. رافقت سكويك غرادي إلى الكثير من النوادي. ويبدو أنه كان يزرع شيئاً خلف المنزل.

جلست في غرفة الطعام أخيط سروالاً فآخر. لدي الآن سراويل من كل الألوان والأحجام الموجودة تحت الشمس. ومنذ بدأنا بصناعة السراويل في موطني، لم أستطع التوقف. أغير القماش والطبعة والحاشية وقياس الخصر والجيب، أغير كثافة القماش لكامل الساق. صنعت الكثير من السراويل وشوغ تستفزني. تقول ضاحكة إنني لم أكن أعرف إلى أين سيفضي هذا. سراويل فوق كراسيها، وأخرى معلقة أمام خزانتها الصينية. نماذج سراويل مصنوعة من أوراق الصحف والأقمشة تغطي الطاولة وأرضية المنزل. عادت إلى البيت، اجتازت الفوضى التي تعمّ المكان وقبّلتني. قالت، قبل أن تغادر مجدداً: كم تحتاجين من النقود خلال *هذا* الأسبوع؟

وأخيراً صنعتُ سروالاً متقناً، وهو طبعاً، لحلوتي شوغ. السروال مصنوع من قماش الجيرسيه الناعم باللون الأزرق الغامق مع قطع صغيرة

من الأحمر. ولكن ما جعله جيداً جداً، أنه مريح تماماً. لأن شوغ تتناول الكثير من الوجبات السريعة خلال جولاتها، وتشرب، فينتفخ بطنها. ولهذا يمكن للسروال أن يكون فضفاضاً من دون أن يؤثر على المظهر. ما كان لهذا السروال أن يطاله التجعد، فليس لها أن تهتم لأمره حين تحزمه مع غيره من ملابس. والأشكال الصغيرة على القماش تحافظ على مرحها وإشراقها على الدوام. ويصل السروال إلى الكاحل ولهذا بوسعها ارتداؤه إن رغبت وهي تغني كما لو أنه فستان طويل. إضافة إلى أنها ستخطف الأنظار متى ارتدته.

قالت: آنسة سيلي. أنت روعة للناظر.

طأطأت رأسي. ركضتْ في المنزل تنظر إلى نفسها في المرايا. ومهما كانت عليه، فقد بدت جميلة.

قلت لها وهي تتباهى بسروالها أمام غرادي وسكويك: تعرفين كيف تسير الأمور عندما لا يكون لديك ما تفعلينه. جلستُ هنا ورحت أفكر بما سأفعله لأجني قوت يومي وقبل أن أعرف الإجابة كنت قد أنهيت سروالاً آخر.

حينها رأت سكويك سروالاً أعجبها. قالت: آه يا آنسة سيلي. هل يمكن أن أقيس من هذه السراويل؟

جربت سروالاً بلون الغروب. لونه برتقالي مرقط بالرمادي. خرجت علينا وكانَ جميلاً بالفعل. نظر غرادي إليها وكاد يلتهمها بعينيه.

لمست شوغ القطع التي صنعتها والمعلقة في كل مكان. كانت جميعها ناعمة، وهفافة، وأخاذة، ومفعمة بالألوان. قالت: هذا مختلف تماماً عن خراء قماش الجيش القاسي الذي باشرنا به. عليك أن تصنعي سروالاً خاصاً لجاك شكراً وعرفاناً.

ما الذي دفعها لتقول ذلك؟ وما وجدت نفسي في الأسبوع التالي إلا متنقلة من متجر إلى آخر منفقة المزيد من مال شوغ. جلست أتأمل الفناء

محاولة تخيل شكل سروال جاك، فهو طويل ولطيف وقليل الكلام. يحب الأطفال. ويحترم زوجته أوديسا، وجميع شقيقاتها الأمازونيات. أي شيء تريده، يلبيه. لا يكثر من الكلام وهذا من أهم الخصال. تذكرت أنه لمسني في إحدى المرات. وأحسست أن لأصابعه عيوناً. شعرت بأنه يعرف كل مسامات جسدي، إلا أنه ما لمس إلا ذراعي بالقرب من الكتف.

بدأت خياطة سروال لجاك. يجب أن يكون لونه بيج. وناعم، ومتين. ويجب أن يكون بجيوب كبيرة لتتسع لأغراض الأطفال الكثيرة. مثل الكرات الزجاجية الصغيرة الملونة والخيطان والقروش والأحجار. ويجب أن يكون سهل الغسل وأضيق حول الرجل من سروال شوغ ما يتيح له الركض إن أراد إبعاد أحد الأطفال عن شيء ما. عليه أن يكون مرناً عندما يعانق أوديسا أمام النار. و...

حلمت وحلمت وحلمت بسروال جاك. وقصصت وخيّطت. أنهيته. وأرسلته.

الشيء التالي الذي سمعته، هو أن أوديسا تريد سروالاً.

ثم إن شوغ تريد سروالين آخرين مثل السروال الأول تماماً، كذلك طلب كل أعضاء فرقتها. ثم بدأت الطلبيات تأتي من كل حدب وصوب تغني فيه شوغ. وسرعان ما غرقت بالطلبيات.

في أحد الأيام عندما عادت شوغ إلى المنزل قلت لها: تعرفين أنني أحب عملي هذا، ولكن علي أن أخرج وأكسب رزقي في القريب العاجل. يبدو أن بقائي هنا يعوقني قليلاً.

ضحكت. قالت: دعينا ننشر بعض الإعلانات في الصحف. ولنرفع أسعارك أكثر. ودعينا نخطو خطوة أخرى ونعطيك غرفة الطعام ونحوّلها إلى مشغلك ونجلب المزيد من النساء ليقمن بأعمال القص والخياطة، بينما تتفرغين للتصميم. أنت تجنين رزقك بعرق جبينك يا سيلي. أنت على الطريق الصحيح يا صبية.

أصنع بعض السراويل لك يا نيتي لتقهري قيظ أفريقيا.وهي ناعمة، وبيضاء، ورقيقة. يمكن شدّها عند الخصر. ستقيك الحر الشديد ولن تضطري للإكثار من ارتداء الملابس. أنوي صنعه بيدي. وكل قطبة بقبلة.

آمين

أختك سيلي

شركة فولكسبانتس، غير المحدودة.

شارع شوغ إفري

ممفيس، تينيسي

عزيزتي نيتي،

أنا سعيدة جداً. لدي الحب، والعمل، والمال، والأصدقاء، والوقت. وأنت حية ترزقين وستعودين قريباً إلى الديار. مع ولدينا.

جاءت جيرين ودارلين لمساعدتي في عملي. إنهما توأم. لم يسبق لهما أن تزوجتا. تحبان الخياطة. كما أن دارلين تحاول تعليمي المحادثة. تقول «إيانا» غير مستخدمة. إنها لهجة مندثرة. قالت لي: أنت تقولين «إيانا» بينما معظم الناس يقولون «نحن»، والناس يعتقدون أنك مغفلة. الملونون يظنونك متخلفة والبيض يجدونك مسلية.

سألتها: وما همّي؟ أنا سعيدة بذلك.

لكنها قالت إنني سأسرّ أكثر إن تحدّثت كما تتحدث. أعتقد أنه ما من شيء سيسرني أكثر من رؤيتك مجدداً، ولكني لم أقل لها شيئاً. في كل مرة أقول فيها شيئاً على طريقتي، تصحح لي إلى أن أقوله بطريقة مختلفة. بعد فترة قصيرة شعرت أنني ما عدت قادرة على التفكير. ينشغل ذهني بفكرة ما، فيضطرب، ثم يستسلم للخمول.

سألتها: هل أنت متأكدة أن الأمر يستحق العناء؟

قالت: نعم. أحضرت لي كومة من الكتب التي تتحدث عن التفاح والكلاب، وقد تصدرت أغلفتها صور رجال بيض.

فكرت، ما شأني أنا بالكلاب؟

تواصل دارلين محاولاتها. تقول: فكّري كم سيسعد شوغ أن تتعلمي. لن تخجل من اصطحابها لك إلى أي مكان.

قلت: شوغ لا تشعر بالخجل مني بأي شكل من الأشكال. إلا أنها ما

صدّقت ذلك. قالت يوماً لشوغ بينما كانت في المنزل: شوغ، أليس جيداً أن تتمكن سيلي من التحدث بطريقة سليمة؟

قالت شوغ: يمكنها التحدث بلغة الإشارة عن كل شيء يهمني. أعدّتْ لنفسها كوباً لذيذاً من الأعشاب وبدأت تتحدث عن وضع زيت حار على شعرها.

لكنني تعمدت إثارة قلق دارلين. أفكر أحياناً بالتفاح والكلاب، وأحياناً لا. بدا لي أنه من الحمق أن يُطلب منك التحدث بطريقة غريبة عن ذهنك. لكنها كانت حلوة وخياطة ماهرة، وكنا بحاجة لشيء نثرثر عنه بينما نعمل.

أنا منهمكة في صنع سراويل من أجل صوفيا الآن. سيكون لون إحدى الساقين أرجوانياً، والأخرى حمراء. حلمت بصوفيا مرتدية هذا السروال، رأيتها في منام آخر تتقافز فوق القمر.

آمين

أختك، سيلي

عزيزتي نيتي،

رافقتني في مسيري نحو بيت هاربو وصوفيا المشاعر ذاتها في ماضي الأيام. سوى أن المنزل الجديد أسفل الحانة، أصبح أكبر بكثير مما كان عليه. بعدئذٍ راودتني مشاعر مختلفة. بدوت مختلفة. كنت أرتدي سروالاً أزرق غامقاً وقميصاً حريرياً أبيض محتشماً. حذاء أحمر مسطّح، ووضعت زهرة في شعري. مررت بمنزل السيد ـــــ وكان جالساً على الشرفة ولم يتعرف علي نهائياً.

وما إن رفعت يدي لأطرق الباب، سمعت صوت ارتطام. بدا أن كرسياً قد سقط. ثم سمعت جدالاً.

سمعت هاربو يقول: ما عرفت من قبل نساءً يعملن حاملات نعوش. هذا كل ما أحاول قوله.

وتجيبه صوفيا: حسناً، لقد قلت ما عندك. يمكنك الآن أن تصمت؟

قال هاربو: أعرف أنها والدتك. ولكن مع ذلك.

قالت صوفيا: هل ستساعدنا أم لا؟

قال هاربو: كيف سيبدو الأمر. ثلاث حاملات نعوش من النساء المتينات القويات يفضّل أن يكن في البيت يقلين الدجاج.

قالت صوفيا: ومن جانب آخر سيكون ثلاثة من أخوتنا معنا. سيبدون مثل عمّال الحقول.

قال: لكن الناس اعتادوا أن يقوم الرجال بهذا النوع من الأعمال. النساء أضعف. يعتقد الناس أنهن أضعف. يقولون إنهن أضعف، على

أي حال. يجب على النساء أن تهون على أنفسهن هذا الأمر. ابكي إن أردت. لا تحاولي أن تتولي الأمر.

قالت صوفيا: سأسعى لتولي ذلك. المرأة ميتة. يمكنني أن أبكي وأهوّن على نفسي وأرفع التابوت أيضاً. وسواء ساعدتنا أم لم تساعدنا بالطعام والكراسي وموجبات العزاء، فهذا تماماً ما سأسعى للقيام به.

ساد الصمت. بعد برهة قال هاربو لصوفيا برقة: لماذا تحبين فعل ذلك، ها؟ لماذا تعتقدين دوماً أن عليك فعل الأشياء على طريقتك الخاصة؟ سألت أمك عن الأمر في أحد الأيام، عندما كنت في السجن.

وما الذي قالته؟

قالت إنك تعتقدين أن طريقتك جيدة مثل طريقة أي شخص. فوق ذلك إنها طريقتك.

ضحكت صوفيا.

أعرف أن التوقيت غير مناسب، ولكني طرقت الباب على أي حال.

قالت صوفيا: أوه، آنسة سيلي. وطغت المشاعر الجياشة على المشهد. كم تبدين جميلة. ألا تبدو جميلة يا هاربو؟ حدق هاربو بي وكأنه لم يرني من قبل.

عانقتني صوفيا طويلاً وقبلتني على وجنتي.

سألتني: أين هي الآنسة شوغ؟

قلت: إنها في جولة من جولاتها. لقد أسفت حقاً لسماع خبر وفاة والدتك.

قالت صوفيا: ناضلت أمي نضالاً مشرفاً. لو تجسد المجد لما كانت إلا مركزه.

سألت: كيف حالك يا هاربو. أما زلت تأكل بشراهة.

ضحك هو وصوفيا.

قالت صوفيا: لا أظن أن ماري أغنيس ستتمكن من العودة هذه المرة. لقد كانت هنا قبل شهر من الآن. كان عليك رؤيتها هي وسوزي كيو.

قلت: لا لن تعود، لقد أصبحت تغني أخيراً في ناديين أو ثلاثة في البلدة. الناس يحبونها كثيراً.

قالت: سوزي كيو فخورة جداً بها. تحب غناءها، وعطورها، وفساتينها. تحب ارتداء قبعاتها وأحذيتها.

سألت: كيف هي في المدرسة؟

قالت صوفيا: أوو، إنها بخير. وهي لمّاحة. أصبحت على ما يرام ما إن تخلصت من غضبها بسبب رحيل أمها، واكتشافها أنني أم هنريتا الحقيقية. إنها تعشق هنريتا.

وكيف هي هنريتا؟

شيطانة. وجهها الصغير أشبه بطقس عاصف. إلا أنها قد تجتاز ذلك. استغرق أبوها أربعين عاماً ليتعلم كيف يكون مبهجاً. لطالما كان شريراً مع أمه.

سألت: هل ترونه كثيراً؟

بقدر ما نرى ماري أغنيس تقريباً.

قال هاربو: ما عادت ماري أغنيس كما كانت.

سألتُ: ماذا تقصد؟

قال: لا أعرف. عقلها شارد. تتحدث وكأنها ثملة. تتلفت حولها طيلة الوقت تبحث عن غرادي.

قلت: الاثنان يدخنان الكثير من الماريجوانا.

قال هاربو: الماريجوانا، أي شيء هذا؟

شيء يحسن مزاجك. يملأ رأسك بالرؤى. يدفعك للهاوية. لكن إن أفرطت في تدخينه تصبح أبلهَ. ومضطرباً. تتمسك دائماً بأحدهم. غرادي يزرعه في الحديقة الخلفية.

قالت صوفيا: لم أسمع قط بشيء من هذا القبيل. هل ينمو في الأرض؟

قلت: مثل الحشيش. زرع صفاً منه في مساحة نصف فدّان.

سأل هاربو: كم يبلغ طوله؟

قلت: أعلى بكثير من رأسي. وينمو بكثافة.

وما هو الجزء الذي يدخنان منه؟

الأوراق.

ويدخنان كل ذلك؟

ضحكتُ. لا، إنه يبيع معظمه.

سألني: هل تذوقته يوماً؟

قلت: نعم. يلفها في سجائر. يبيعها لقاء عشرة قروش. إنها تجعل النفس كريهاً. أتود تجريب واحدة؟

قالت صوفيا: ليس إن كان يجعلنا مجانينَ. من الصعب أن يكون المرء ناجحاً من دون أن يكون أحمق.

قلت: إنه تماماً مثل الويسكي. يجب أن تتوقفي قبل الثمالة. تعلمين أن القليل منه بين الفينة والأخرى لا ضير منه على الإطلاق، ولكن إن عجزت عن البدء من دون طلب زجاجة كاملة، فهذا يعني أنك في ورطة.

سأل هاربو: هل تدخنينها كثيراً يا آنسة سيلي؟

أجبته: وهل أبدو خرقاء؟ أدخنها فقط عندما أود الحديث مع الله، ومتى راودتني رغبة بممارسة الحب. على كلٍّ، بتّ في الفترة الأخيرة أمارس الحب مع الله على أفضل وجه. سواء دخنت الماريجوانا أم لم أدخنها.

صرخت صوفيا مصدومة: آنسة سيلي!

قلت لصوفيا: أنا مباركة يا صبية. الله يدرك نيتي.

جلسنا حول طاولة المطبخ وأشعلنا سيجارة. علمتهم كيف يبلعون الدخان. اختنق هاربو. انقطع نفس صوفيا.

سرعان ما قالت صوفيا: هذا مضحك، لم أسمع تلك الدندنة من قبل.

سأل هاربو: أي دندنة؟

قالت: اصغِ.

صمتنا بالفعل وأصغينا. وبالفعل، سمعنا أمممممممممم.

سألت صوفيا: من أين يأتي الصوت؟ توجهتْ نحو الباب لترى. ما من أحد. علا الصوت أكثر. أمممممممممم.

نهض هاربو لينظر عبر النافذة. قال: لا شيء في الخارج، الدندنة تقول أمممممممم.

قلت: أظن أنني أعرف ما هو.

قالا: ماذا؟

قلت: كل شيء.

قالا: نعم. يبدو هذا منطقياً جداً.

قال هاربو في الجنازة: حسناً، ها قد جاءت الأمازونيات.

همست له: وماذا ستسمي أشقاؤها، وقد جاؤوا أيضاً.

قال: لا أعرف. إنهم ثلاثة على الدوام يدافعون عن شقيقاتهم المجنونات. لا شيء يطالهم ولو بأدنى تغيير. أتساءل كيف تحتملهم نساؤهم.

تقدموا جميعاً بخطى قوية، اهتزت الكنيسة، ووضعوا والدة صوفيا أمام المذبح.

كان الناس يبكون ويهوون بمراوحهم ويحاولون إبقاء عيونهم بعيداً عن أولادهم، لكنهم ما حدّقوا أبداً بصوفيا وشقيقاتها. تظاهروا أن هذه هي الطريقة التي تسير عليها الأمور عادة. أحب الناس.

آمين

عزيزتي نيتي،

أول شيء لاحظته على السيد ـــــ نظافته المفرطة، ولمعان بشرته، وشعره المصفف إلى الخلف.

عندما اقترب من التابوت لإلقاء نظرة على جثمان والدة صوفيا توقف، همس شيئاً ما لها. ربّت على كتفها. وفي طريق عودته إلى مقعده نظر نحوي. رفعت مروحتي وأشحت بنظري.

عدنا بعد الجنازة إلى حانة هاربو.

قالت صوفيا: أعلم أنك لن تصدقي هذا يا آنسة سيلي، ولكن السيد ـــــ يتصرف كما لو أنه يحاول أن يصبح متديناً. قلت: شيطان كبير مثله، تكون المحاولة أقصى ما في مقدوره.

لا يذهب إلى الكنيسة ولا يفعل شيئاً من ذلك، إلا أنه أصبح متريثاً بأحكامه. يجدّ في عمله.

ماذا؟ السيد ـــــ يعمل!

يعمل حقاً. يخرج إلى الحقل من شروق الشمس حتى غروبها. وينظف البيت تماماً كما تفعل النساء.

قال هاربو: حتى إنه يطهو. علاوة عن غسله الأطباق ما إن يفرغ من طعامه.

قلت: لا. لا بد وأنكم تحت تأثير المخدر.

قالت صوفيا: لكنه لا يتحدث كثيراً إلى الناس.

قلت: يبدو هذا أقرب للجنون بالنسبة إليّ.

حينها فقط، جاء السيد ـــــ.

قال: كيف حالك يا سيلي؟

قلت: بخير. نظرت إلى عينيه ورأيت أنه يشعر بالخوف مني. حسناً، جيد، كما أعتقد. ليذق من الكأس التي أذاقني منها.

قال: ألم تأتِ شوغ معك هذه المرة؟

قلت: كلا. لديها عمل. تؤسفني وفاة والدة صوفيا.

قال: الجميع يؤسفهم رحيلها. المرأة التي أتت بصوفيا إلى هذا العالم أهدتنا شيئاً نفيساً.

لازمت الصمت.

قال: لقد دفنوها بشكل لائق.

قلت: بالتأكيد فعلوا.

قال: ولديها الكثير من الأحفاد. اثنا عشر ابناً، جميعهم تكاثروا. عائلتها كفيلة بملء الكنيسة.

قلت: نعم. هذه هي الحقيقة.

قال: كم يوماً ستبقين هنا؟

قلت: ربما لأسبوع.

قال: هل تعرفين أن طفلة هاربو وصوفيا مريضة جداً؟

قلت: كلا، لا أعرف. أشرت لهنريتا في الحشد. ها هي هناك. تبدو بخير.

قال: نعم، تبدو بخير. لكنها مصابة بمرض في الدم. الدماء تتجلط في أوردتها من فترة لأخرى، فتصبح مريضة جداً. لا أعتقد أنها ستنجو.

قلت: لطفك يا إلهي.

قال: نعم. الأمر قاسٍ على صوفيا. لا تزال تحاول رعاية تلك الفتاة البيضاء التي ربتها. ماتت أمها. صحتها ليست بأفضل حالٍ أيضاً. كما أن هنريتا صعبة المراس سواء كانت مريضة أم معافاة.

قلت: أوه، هذا مربك. ثم تذكرت إحدى رسائل نيتي التي تتحدث عن المرض الذي يصيب الأطفال حيث تعيش في أفريقيا. بدا لي أنها ذكرت شيئاً عن جلطات تصيب الأطفال. حاولت تذكر ما قالت إن الأفارقة يفعلونه، لكني لم أستطع. كان التحدث مع السيد ـــــ مفاجأة ولم أستطع التفكير بأي شيء. ولا حتى ما أقوله.

انتظر السيد ـــــ أن أقول شيئاً، رنا بنظره نحو منزله. قال أخيراً: تصبحين على خير، ومضى.

قالت صوفيا بعد مغادرته: عاش السيد ـــــ مثل خنزير. أغلق على نفسه الباب لفترة طويلة إلى أن تعفن. ما كان يسمح لأحد بالدخول إلى أن اقتحم هاربو البيت بقوة. نظف المنزل، وأحضر الطعام. حمّم والده. كان السيد ـــــ في حالة يرثى لها وأضعف من أن يقاوم هاربو، أو أن يكترث بأي شيء.

واسترسلت: فارقه النوم. كان يسمع صوت خفافيش عند الباب، وحشرجات في المدفأة. إلا أن الجزء الأسوأ كان سماعه خفقات قلبه. يمسي الخفقان طبيعياً طالما كان ضياء النهار، لكن ما إن يحل الظلام، حتى يعلو بجنون، إذ يدق قلبه عالياً لدرجة يهز فيها الغرفة. كان مثل قرع الطبول.

ذهب هاربو إلى هناك في ليالٍ عديدة لينام معه. كان السيد ـــــ يتكوم في زاوية السرير. عيناه مثبتتان على قطع مختلفة من الأثاث، يتأكد إن كانت تتحرك في اتجاهه. تعرفين كم هو ضئيل. فيما هاربو ضخم وقوي. ذات ليلة ذهبت لإخبار هاربو أمراً ما، ورأيتهما في السرير يغطان في نوم عميق، وهاربو معانقاً له.

جراء ذلك استيقظت مشاعري مجدداً نحو هاربو. وبعد فترة وجيزة، بدأنا العمل على بيتنا الجديد. ضحكت. ولكن هل قلت بأن ذلك كان سهلاً؟ لو قلت ذلك، فعسى ربي يعاقبني.

سألت: وكيف تخطى ذلك؟

قالت: أوه، دفعه هاربو ليرسل لك بقية رسائل أختك. بعد ذلك مباشرة بدأت حالته تتحسن، فكما تعرفين اللؤم يقتل.

آمين

سيلي الأغلى:

أتوقع أن أعود قريباً إلى الديار. أنظر إلى وجهك وأقول سيلي، هل هذه أنت حقاً؟ أحاول أن أتخيل السنين التي رمتك في درب البدانة والتجاعيد، أو الطريقة التي تسرحين فيها شعرك. وأنا بدوري تحوّلت من نحيلة ضئيلة إلى بدينة، وطالع شعري بعض الشيب.

لكن صموئيل يقول إنه يحبني بدينة وشيباء.

هل فاجأك هذا؟

لقد تزوجنا الخريف الفائت في إنجلترا حيث حاولنا أخذ قسط من الراحة من أولينكا والكنائس وجمعية البعثة التبشيرية.

حاول أهل أولينكا، قدر استطاعتهم، تجاهل الطريق وعماله البيض. ولكن في نهاية المطاف كان عليهم الحذر منهم لأن أول ما أخبروا به الناس هو ضرورة انتقالهم إلى مكان آخر للعيش. أرادوا بناء المقر الرئيس لزراعة المطاط مكان القرية، فهي البقعة الوحيدة لأميال كثيرة التي لديها مصدر ثابت من المياه النقية.

رُحِّل أهل أولينكا محتجين ومنقادين، ومعهم مبشريهم، إلى بقعة جرداء لا ماء فيها على مدار ستة أشهر من السنة، وهكذا فقد بات عليهم أثناء تلك الفترة شراء الماء من المزارعين. وخلال موسم الأمطار يتشكل نهر ويحاولون حفر أخاديد في الصخور القريبة لتكون بمثابة صهاريج. ما زالوا للآن يجمعون المياه في براميل الزيت المهجورة التي جلبها العمّال.

ولكن الشيء الأفظع الـذي حدث كان له علاقة بنبات السطح

«الرووفليف»، الذي، كما كتبت لك سابقاً، يعبدونه كإله ويستخدمونه لتغطية سقوف أكواخهم. حسناً، في هذا القطاع القاحل من أرض زارعي المطاط انتصبت ثكنات العمال. واحدة للرجال وأخرى للنساء والأطفال. وبما أن أهل أولينكا أقسموا على ألا يعيشوا مطلقاً في مسكن لا يغطيه الإله الذي يعبدون، تركِ العمال ثكناتهم بلا سقف. ثم مضوا في الحفر تحت قرية أولينكا وكل شيء آخر في الأميال المحيطة. بما في ذلك آخر سويقة من «الرووفليف».

بعد أسابيع من أشعة الشمس الحارقة، استفقنا ذات صباح على هدير شاحنة كبيرة تدخل المجمع السكني. كانت محملة بصفائح من القصدير المموج.

توجب علينا دفع ثمن القصدير يا سيلي، ما استنفد مدخرات أهل أولينكا الزهيدة، وبدد تقريباً المال الذي كنا نخطط أنا وصموئيل لاستثماره في تعليم الطفلين حال عودتنا إلى الديار. وهذا ما كنا نخطط له عاماً بعد عام منذ وفاة كورين، لنجد أنفسنا متورطين أكثر فأكثر في مشاكل أولينكا. لا شيء أقبح من القصدير المموج يا سيلي. وبينما كانوا يكافحون لرفع الأسقف المصنوعة من ذلك المعدن البارد والقاسي واللامع والقبيح صرخت النسوة بولولة حزينة تتردد صداه في الجدران الكهفية المحيطة على بعد أميال. في هذا اليوم أقرّ سكان أولينكا أخيراً بهزيمتهم المؤقتة على الأقل.

ورغم أن أهل أولينكا ما طالبونا بشيء سوى تعليم أطفالهم - وقد رأوا عجزنا وعجز إلهنا - قررنا أنا وصموئيل القيام بشيء ما حيال الظلم الذي ألمّ بهم، رغم أن الكثيرين ممن جمعتنا علاقة وطيدة معهم كانوا قد هربوا لينضموا إلى المتمردين أو سكّان الغابات، الذين يعيشون في عمق الأدغال، رافضين العمل لدى البيض أو الانصياع لهم.

وهكذا رحلنا، مع الولدين، إلى إنجلترا.

كانت رحلة مذهلة يا سيلي، ليس فقط لأننا نسينا بقية العالم، وأشياء من قبيل البواخر ونار الفحم وأضواء الشوارع وعصيدة الشوفان، لا بل

لأن الباخرة أيضاً جمعتنا بالمبشرة البيضاء التي سمعنا عنها قبل سنوات. تقاعدت الآن من عمل البعثة التبشيرية وعادت للعيش في إنجلترا. كانت مسافرة مع صبي إفريقي صغير قدمته لنا على أنه حفيدها!

كان من المستحيل بالطبع تجاهل حضور سيدة بيضاء مسنّة برفقة طفل أسود صغير. ساد على متن السفينة شعور بالقلق. كانت تتمشى مع الصبي يومياً على سطح الباخرة، فيما يلتزم معشر البيض الصمت حين كانا يمران بالقرب منهم.

إنها سيدة مرحة ونحيلة بعينين زرقاوين، وشعر بلون الفضة والعشب الجاف. ذقنها قصيرة، وعندما تتكلم تبدو وكأنها تغرغر.

قالت لنا عندما وجدنا أنفسنا نتشارك معها مائدة العشاء: سأقارب الخامسة والستين. قضيت معظم حياتي في المنطقة المدارية. ولكن هناك حرب كبيرة قادمة. أكبر من تلك التي بدأوها عندما غادرت. ستصبح الأمور أصعب بالنسبة إلى إنجلترا، ولكن أتوقع أن ننجو. فاتتني الحرب الأولى. أقصد أنني سأكون حاضرة في هذه الحرب.

لم نفكر لا أنا ولا صموئيل حقاً بالحرب.

قالت: لماذا. الإشارات تملأ أرجاء أفريقيا، والهند أيضاً، كما أتوقع. أولاً بُني طريق لنقل بضائعكم. ثم اقتطعت أشجاركم لصنع البواخر وأثاث القبطان. وتمت زراعة أرضكم بما لا يؤكل. ثم أرغمتم على العمل فيها. هذا يحدث في كل أنحاء أفريقيا. وغالباً في بورما أيضاً.

لكن هارولد هنا وقررت الرحيل. قالت وهي تعطي الصبي الصغير قطعة من البسكويت: أليس كذلك يا هاري. لم يقل الصبي شيئاً، اكتفى بمضغ البسكويت وهو ساهم. سرعان ما أخذه آدم وأوليفيا لاستكشاف قوارب النجاة.

قصة دوريس - اسم السيدة دوريس بينز - ممتعة. ولكن لا أود أن أضجرك بالحديث عنها كما ضجرنا نحن في نهاية المطاف.

ولدت لعائلة ثرية في إنجلترا. كان والدها اللورد فلان أو فلان. كانوا على الدوام يقيمون أو يحضرون حفلات خالية من المرح. علاوة على ذلك، أرادت أن تؤلف كتباً. عارضت عائلتها ذلك. جملة وتفصيلاً. وتمنوا لو تتزوج.

زعقتْ: أنا *أتزوج!* (حقاً، كان لديها أكثر الأفكار غرابة).

قالت: فعلوا كل شيء لإقناعي. لا يمكنكم تخيل ما قاموا به. لم أر في حياتي كلها كل هذا العدد من الشبان الأثرياء كما رأيت عندما كنت في التاسعة عشرة والعشرين من عمري. كل شاب مضجر أكثر من الآخر. هل هناك ما هو مضجر أكثر من رجل إنجليزي من الطبقة المخملية؟ يذكرون المرء بالفطر الدامي.

حسناً، واصلت الغرغرة أثناء وجبات عشاء لا تنتهي لأن القبطان خصص لنا الطاولة نفسها بشكل دائم. خطرت فكرة أن تكون مبشرة على بالها ذات ليلة عندما كانت تتهيأ لموعد غرامي مضجر آخر، واستلقت في حوض الاستحمام تفكر أن ديراً قد يكون أفضل من القلعة التي تعيش فيها. بوسعها التفكير والكتابة، وأن تكون رئيسة نفسها في العمل. لكن مهلاً. إن أصبحت راهبة فلن تكون رئيسة نفسها. الله سيكون رئيسها. مريم العذراء. كبيرة الراهبات. الخ. الخ. آه، ولكن مبشرة! بعيداً جداً في براري الهند، وحدها! فهذه هي النعمة.

وهكذا عززت من اهتمامها بالوثنيين. ضللت والديها. خدعت الجمعية التبشيرية، التي كانت مأخوذة بتعلمها السريع للغات فأرسلوها إلى أفريقيا (الحظ الأسوأ!) حيث بدأت تأليف روايات عن كل شيء تحت الشمس.

قالت: اسمي المستعار هو جاريد هانت. حققتُ نجاحاً سريعاً في إنجلترا وحتى في أميركا. وكان جاريد غنياً ومشهوراً، ورجلاً منعزلاً غريب الأطوار يمضي معظم وقته وهو يتصيد في البرية.

وتابعتْ بعد أمسيات عديدة: أنت لا تظنين بأنني أوليت الكثير من

الانتباه لهؤلاء الوثنيين؟ فأنا لم أر أي ضير فيهم كما هم عليه. وقد *أحبوني* بما يكفي. كنت بالفعل قادرة على مساعدتهم كثيراً. كنت كاتبة، في نهاية المطاف، وكتبت رزماً من الأوراق بالنيابة عنهم، وعن ثقافتهم، وسلوكهم، واحتياجاتهم، وهكذا أشياء. ستتفاجئين بمدى أهمية الكتابة عندما تكتبين من أجل المال. تعلمت أن أتحدث لغتهم بطلاقة، وأن أضلل المتلصصين على البعثة التبشيرية داخل مقرات كتبت فيها تقارير كاملة. طرقت صناديق العائلة وامتلكت ما يقرب المليون جنيه قبل أن أحصل على أي شيء من الجمعيات التبشيرية أو أصدقاء العائلة الأثرياء. بنيت مستشفى ومدرسة وجامعة. بركة سباحة - الرفاهية الوحيدة التي دللت فيها نفسي - طالما أن السباحة في النهر تعرضك للعلق.

قالت على طاولة الفطور، في منتصف الطريق إلى إنجلترا: لن تصدقا السلام الذي غمرني! خلال عام واحد كل شيء وعلى حد علمي وعلم الوثنيين كان يمشي بانتظام كالساعة. أخبرتهم منذ البداية أن أرواحهم لا تعنيني، وأنني أريد تأليف الكتب ولا أرغب بأن يزعجني أحد. ولقاء هذه المتعة كنت مستعدة لدفع الثمن. وليس من أجل المظاهر.

وفي غمرة نوبة من التقدير وفي أحد الأيام، قدمّ لي الزعيم - ولجهله بأي شيء آخر يمكن له أن يقدمه - زوجتين. لا أظن أنهم يعتبرونني امرأة. بدا أن هناك بعض الأسئلة التي تشغل بالهم عما أكونه بالفعل. على أي حال. علّمت الفتاتين الصغيرتين أفضل تعليم ممكن. أرسلتهما إلى إنجلترا، طبعاً، لتعلم الطب والزراعة. رحبت بهما حين عودتهما، وأعطيتهما الضوء الأخضر للزواج من رجلين كانا دائماً في الجوار، وبدأت أسعد مرحلة من حياتي كجدة لأولادهما. يتعين علي القول، وابتسمت، بأنني *جدة* رائعة. لقد تعلمت ذلك من الأكوانيين. فهم لا يصفعون أولادهم أبداً. لا يحتجزونهم في جزء آخر من الكوخ. لا يقتطعون إلا جزءاً صغير من الجسد في سن البلوغ. لكن أم هاري الطبيبة ستغير كل هذا. أليس كذلك يا هارولد؟

وأكملت قائلة: على أي حال. عندما أصل إلى إنجلترا سأضع حداً لانتهاكاتهم. سأخبرهم ما الذي يتعين عليهم فعله بأساليبهم الدموية ومزارع المطاط الدامية وحرق أجسادهم بأشعة الشمس، وكذلك الأمر بالنسبة لمزارعي المطاط والمهندسين الدمويين الإنجليز المملين. أنا امرأة ثرية جداً، *وأملك* قرية أكوي.

أصغينا إلى معظم ما قالته بصمت نابع من الاحترام. فُتن الولدان بهارولد الشاب، رغم أنه لم ينبس بحرف واحد في حضورنا. بدا معجباً بجدته ومعتاداً عليها، لكن إسهابها في الحديث ولّد لديه نوعاً من الوجوم المتيقظ الحذر.

قال آدم: هو مختلف تماماً عندما يكون معنا. آدم مولع بالأطفال، وبإمكانه التقرب من أي طفل في أقل من نصف ساعة. آدم ينكّت ويغني ويهرج، ويعرف ألاعيبَ وحيلاً. ولا أحد يضاهي ابتسامته في إشراقها، وأسنانه إفريقية عظيمة.

وبينما أكتب عن إشراقة ابتسامته أدركت أنه كئيب على غير عادته. متشوق ومتحمس، ولكنه لم يكن حقيقة مشرقاً، إلا عندما يكون مع هارولد الشاب.

سأسأل أوليفيا ما خطبه. إنها مأخوذة بفكرة العودة إلى إنجلترا. دأبت أمها على إخبارها عن الأكواخ المصنوعة من القش التي يعيش فيها الإنجليز وكيف تذكرها بالأكواخ المصنوعة من «الرووفليف» في أولينكا، رغم أنها مربعة. أشبه بكنيستنا والمدرسة أكثر من منازلنا، وهذا ما وجدته أوليفيا غريباً للغاية.

عندما وصلنا إلى إنجلترا، قدّمنا أنا وصموئيل مظالم سكان أولينكا إلى أسقف الفرع الإنجليزي لكنيستنا، وهو شاب فتي بنظارات جلس يقلب رزم التقارير السنوية التي كتبها صموئيل. وبدل ذكر أولينكا أراد الأسقف معرفة كم سنة مرت على وفاة كورين، ولماذا، لم أعد إلى أميركا فور وفاتها.

لم أفهم حقيقة ما الذي كان يرمي إليه.

قال: المظاهر يا آنسة ـــــ المظاهر. ما الذي سيظنه السكان الأصليون؟

سألت: عن ماذا تتكلم؟

قال: تعالي، تعالي.

قال صموئيل: كنا نتعامل مع بعضنا البعض مثل الأخوة.

ابتسم الأسقف ابتسامة صفراء وقال: نعم. لقد فعلتم.

شعرت بالحرارة تصعد إلى وجهي.

هناك المزيد من المشاكل، لكنني لن أزعجك بها؟ تعرفين كيف هم الناس، والأسقف واحد منهم. غادرت أنا وصموئيل من دون قول كلمة واحدة عن مشاكل أولينكا.

كان صموئيل غاضباً جداً، بينما كنت خائفة. قال إن الشيء الوحيد الذي كان بإمكاننا فعله، لو أردنا البقاء في أفريقيا، هو الانضمام إلى *المتمردين* في الغابات وكنا سنحض جميع سكان أولينكا على القيام بالشيء ذاته.

سألته: ولكن لنفرض أنهم لا يودون الذهاب؟ الكثير منهم كبار في السن ولا يمكنهم العودة إلى الغابة. العديد منهم مرضى. وللنسوة أطفال صغار. كما أن الشبان منهم يريدون ركوب دراجات هوائية وارتداء ملابس إنجليزية. واقتناء مرايا وأواني طهو براقة. يريدون العمل لدى البيض للحصول على هذه الأشياء.

قال بقرف: أشياء! *أشياء* دموية!

قلت: ليس أمامنا سوى شهر هنا، دعنا نستمتع قدر استطاعتنا.

ولأننا أنفقنا الكثير من نقودنا على أسطح القصدير والرحلة، فقد أمضينا شهراً متقشفاً في إنجلترا. إلا أنها كانت أوقات ممتعة. بدأنا نشعر بأننا عائلة واحدة، من دون كورين. ولم يتردد الناس الذين يلتقون بنا في الشارع (إن تحدثوا معنا) بالقول بأن الطفلين يشبهوننا نحن الاثنين. بدأ

الولدان يتقبلان الأمر كشيء طبيعي، وشرعا بالخروج وحدهما لمشاهدة ما يهمهما تاركين والديهما لمسراتهما الهادئة والرزينة، والتي كان منها تجاذب أطراف حديث بسيط.

ولد صموئيل، في الشمال، في نيويورك، وترعرع وتعلم هناك. تعرّف على كورين من خلال خالته التي كانت في إحدى البعثات التبشيرية في الكونغو البلجيكية، مع خالة كورين. درج صموئيل على مرافقة خالته ألثيا إلى أتلانتا، حيث كانت تعيش خالة كورين، ثيودوجا.

قال صموئيل ضاحكاً: خاضت هاتان السيدتان أشياء مدهشة معاً. هاجمتهما الأسود، وداستهما الفيلة، وأغرقتهما الأمطار، وشنتا حروباً على «السكان الأصليين».. القصص التي درجا على روايتها لا تصدّق. كانتا تجلسان على أريكة مغطاة بكثير من شعر الخيول، سيدتان متزمتتان ومستقيمتان ترتديان الدانتيل والكشاكش، ترويان هذه القصص العجيبة وهما تحتسيان الشاي.

دأبنا أنا وكورين كمراهقين على تحويل هذه الحكايا إلى نكات. أطلقنا عليها أسماء من قبيل: ثلاثة أشهر في أرجوحة شبكية، أو الأرداف المتقرحة للقارة السمراء. أو، خريطة أفريقيا: دليل اللامبالاة الأصيلة للكلمة المقدسة.

كنا نهزأ بهما، إلا أن مغامراتهما كانتا جذابتين، كما هو أسلوبهما في روايتها. كانتا وقورتين، وحصيفتين للغاية. لا يمكنك حقاً تخيلهما وهما تبنيان - بأيديهما العاريتين - مدرسة ما في الأحراش. أو تصارعان الزواحف. أو الأفارقة العدائيين الذين ظنوا أن بإمكانهما الطيران، لأنهما ترتديان فساتين ذات أشياء تبدو مثل الأجنحة خلفهما.

ما كنا أنا وكورين لنقول «أحراش» إلا بضحك مكبوت، وكان وقع هذه الكلمة كفيلاً بإدخالنا في نوبة ضحك هستيري، بينما نرتشف الشاي بهدوء. طبعاً لم تدركا أنهما تبدوان مضحكتين، ولكنهما بالنسبة لنا كن كذلك، مضحكتان كثيراً. ساهمت الفكرة السائدة حول أفريقيا في

تلك الفترة في تسليتنا أكثر، إذ لم يكن الأفارقة متوحشون فحسب، بل متلعثمون، وهمجيون، وحمقى، وكنا أخوة للهمجيين المتلعثمين في موطننا. ولكننا بحذر، إن لم نقل بمثابرة، تجنبنا هذه الصلة الظاهرية جداً.

كانت والدة كورين ربة منزل وأماً متفانية لا تروقها أختها التي تتمتع بروح مغامرة أكثر منها. لكنها لم تمنع كورين مطلقاً من زيارتها. وعندما كبرت كورين، أرسلتها إلى «كلية سبيلمان اللاهوتية» حيث درست الخالة ثيودوجا. كان هذا مكاناً ممتعاً جداً. تأسس على يد مبشرتين من البيض من نيو إنجلاند دأبتا على ارتداء ملابس متطابقة. بدأتا في قبو الكنيسة، وسرعان ما انتقلتا إلى ثكنات الجيش. وفي نهاية المطاف، استطاعت هاتان السيدتان الحصول على مبلغ أكبر من المال الذي قدمه أثرى الرجال في أميركا، وهكذا توسّع المكان. مبانٍ، وأشجار. كانت الفتيات يتعلمن كل شيء: القراءة والكتابة والحساب والتنظيف والطهو. إلا أن تعليمهن ارتكز على خدمة الله والمجتمع الملون أكثر من أي شيء آخر. كان شعارهن الرسمي «مدرستنا بأكملها كُرمى للمسيح». ولكني لطالما فكرت أن شعارهن غير الرسمي هو «جمعيتنا تشمل العالم بأسره»، فما إن تدخل شابة إلى «سبيلمان» حتى تبدأ بوضع يدها على أي شيء يمكنها فعله من أجل أبناء جلدتها، في أي مكان من العالم. كان هذا مذهلاً بحق، بعض أولئك النسوة المهذبات المستقيمات، لم تطأ أقدامهن مكاناً خارج بلداتهن الريفية الصغيرة، باستثناء الالتحاق بالكلية، ولم يفكرن يوماً بحزم أمتعتهن والتوجه إلى الهند أو أفريقيا أو الشرق. أو إلى فيلادلفيا أو نيويورك.

وقبل قرابة ستين عاماً من تأسيس المدرسة، هُجّرت قبيلة شيروكي الهندية من مساكنها في جورجيا، ومضى أفرادها عبر الثلوج، سيراً على الأقدام، إلى مخيمات إعادة التوطين في أوكلاهوما. ثلثهم مات على الطريق. ولكن العديد منهم رفض مغادرة جورجيا. اختبؤوا كأناس

ملونين، وفي نهاية المطاف اندمجوا معنا. بعض صاحبات العرق المختلط كن في «سبيلمان». بعضهن يتذكر أصله، إلا أن غالبيتهن لا يتذكرن. لو فكرن بالأمر قليلاً (أصبح من الصعب التفكير بالهنود الحمر إذ ما عادوا متواجدين في الجوار) لرأين أن لون بشرتهن أصفر أو بني مائل للحمرة وشعرهن ممو ج لأن أسلافهن من البيض وليسوا من الهنود.

وأردف صموئيل: كورين نفسها اعتقدت بذلك. كنت دائماً أستشعر جذورها الهندية. كانت هادئة للغاية. كثيرة التأمل. كان بوسعها أن تمحي نفسها وروحها، بسرعة مخيفة، عندما تدرك أن المحيطين بها عاجزون عن تقدير ذلك.

ما كان صموئيل يجد صعوبة في الحديث عن كورين بينما كنا في إنجلترا. وأنا بدوري ما وجدت ما يعوقني عن الإصغاء.

قال: بدا كل شيء غير محتمل. وها أنا الآن، رجل مسن ما كانت أحلامه بمساعدة البشر إلا محض أحلام. وكم ضحكنا أنا وكورين على أنفسنا حين كنا صغاراً. عشرون عاماً لأحمق من الغرب، أشبه بمرض فموي، أشبه بنبات «الرووفليف»: لقد كنا أطروحة حول العقم. الخ. الخ. فشلنا تماماً. أمسينا مضحكين تماماً مثل ألثا وثيودوجا. أعتقد أن إدراك كورين ذلك سرّع من مرضها. كانت متيقظة أكثر مني بأشواط. موهبتها في فهم الناس أعظم بكثير. دأبتْ على القول إن سكان أولينكا مستاؤون منا، لكني ما كنت ألحظ ذلك. إلا أنهم فعلاً كانوا كذلك.

قلت: كلا، ليس استياء بالضبط. إنها اللامبالاة على الأرجح. أشعر أحياناً أن موقعنا مماثل للذباب على جلد فيل.

تابع صموئيل: أتذكر في إحدى المرات، قبل زواجنا أنا وكورين، أنني حضرت استقبالاً أقامته الخالة ثيودوجا في منزلها. درجت على ذلك كل خميس. وكانت تدعو الكثير ممن تسميهم «الشباب الواعدين»، وأحدهم كان طالباً في جامعة هارفرد أغلب الظن اسمه إدوارد، واسم عائلته دوبويس. على كلٍّ، كانت الخالة ثيودوجا تروي إحدى مغامراتها

الإفريقية، لتصل إلى حادثة تكريم ملك بلجيكا ليوبولد لها وتقليدها ميدالية. حسناً، كان إدوارد، أو ربما كان اسمه بيل، ينفد صبره بسرعة. ترين ذلك في عينيه، وبحركات جسده. لم يكن يهدأ أبداً. ومع اقتراب الخالة ثيودوجا من الجزء المتعلق بدهشتها وفرحتها باستلام هذه الميدالية - التي صادقت على خدمتها كمبشرة مثالية في مستعمرة الملك - فقد دوبويس السيطرة على رجله وراح ينقر بها الأرض بوتيرة متسارعة. نظرنا أنا وكورين إلى بعضنا البعض بتوجس. من الواضح أن هذا الرجل سمع هذه القصة من قبل ولم يكن جاهزاً لتحمل سماعها للمرة الثانية.

وعندما أنهت الخالة ثيودوجا قصتها وأبرزت ميداليتها لتشع في مختلف أرجاء الغرفة قال لها: سيدتي، هل تدركين أن الملك ليوبولد بتر أيدي العمال في مزارعه، لأنهم لم يوفوا بحصتهم من المطاط؟ وعوضاً عن تبجيل تلك الميدالية يا سيدتي، من الأجدر بك أن تعتبريها رمزاً لتواطئك غير المقصود مع هذا الطاغية وتسخيره العمال ليعملوا حتى الموت ومعاملتهم بمنتهى الوحشية وإبادة آلاف مؤلفة من الأفارقة في نهاية الأمر.

قال صموئيل: حلّ الصمت على الحضور مثل البلاء. مسكينة الخالة ثيودوجا! في داخل كل منا ما يرغب بالتقدير وميدالية لقاء ما يفعله. والأفارقة بالتأكيد لم يتعاملوا بالميداليات. بالكاد يكترثون لوجود مبشرين.

قلت: لا تشعر بالمرارة.

قال: وكيف لا أشعر بالمرارة؟

لم يطلب الأفارقة منا القدوم، كما تعرفين. لا طائل من إلقاء اللوم عليهم إن شعرنا بأنهم لا يرحبون بنا هناك.

قال صموئيل: لا يتوقف الأمر على عدم ترحيبهم بنا، لا بل إن الأفارقة لا يروننا أساساً. لا يتعرفون علينا حتى وإن كنا الأخوة والأخوات الذين باعوهم.

قلت: آه يا صموئيل. لا تقل هذا.

تعرفين ما الذي حصل، شرع يبكي قائلاً: آه يا نيتي. هذا هو بيت القصيد، ألا ترين هذا. نحن نحبهم. نحاول بكل الوسائل المتاحة إظهار ذلك الحب. لكنهم يرفضوننا. لم يصغوا حتى لمعاناتنا. ولو أصغوا سيقولون أشياء غبية. يسألون عن أشياء مثل: لماذا لا تتحدثون لغتنا؟ لماذا لا تستطيعون تذكر تلك الطرق القديمة؟ لماذا لستم سعداء في أميركا، إن كان الجميع هناك يقودون السيارات؟

بدا يا سيلي أنها اللحظة الأنسب لأضمه بين ذراعي. وهذا ما فعلته. وزحفت كلمات دفنتها طويلاً في قلبي ووصلت شفتاي. مسدت رأسه ووجهه الغاليين وناديته بحبيبي وروحي. وأخشى يا عزيزتي سيلي أن عواطفنا جرفتنا معها.

أتمنى ألا تُصدمي أو تطلقي أحكاماً قاسية عليّ عندما تتلقين هذه الأخبار عن سلوك أختك الجريء. لا سيما إن أخبرتك بمدى ابتهاجي بذلك. لقد حلّقت على جناح النشوة بين ذراعي صموئيل.

لربما خمّنت أنني كنت أحبه طوال الوقت؛ لكن لم أكن أعرف ذلك. آه، لقد أحببته كأخ واحترمته كصديق، ولكن يا سيلي، أحبه حباً جسدياً، *كرجل!* أعشق مشيته، وحجمه، وشكله، ورائحته، وغرابة شعره. أعشق ملمس راحتي يده. واللون الزهري في باطن شفته. أعشق أنفه الكبير، وحاجبيه، وقدميه وعينيه الغاليتين اللتين من خلالهما أستطيع قراءة هشاشة وجمال روحه بوضوح.

لاحظ الولدان التغير الذي طرأ علينا على الفور. أخشى يا عزيزتي أننا كنا مشعين.

قال صموئيل للولدين بينما يحيطني بذراعه: نحب بعضنا البعض حباً جماً، إننا عازمون على الزواج.

قلت: ولكن قبل أن نتزوج، يجب أن أخبركما شيئاً عن حياتي

وكورين وشخص آخر. وحينها أخبرتهما عنك يا سيلي. وعن حب والدتهما كورين لهما. وعن كوني خالتهما.

سألت أوليفيا: ولكن أين هي هذه المرأة، أختك؟

شرحت زواجك من السيد ـــــ قدر استطاعتي.

توجس آدم على الفور. إنه روح مرهفة جداً. يسمع ما لا يقال بوضوح كامل.

قال صموئيل مطمئناً آدم: سنعود إلى أميركا قريباً، ونرى ما الذي بإمكاننا فعله من أجلها.

وقف الولدان معنا خلال مراسم الزفاف البسيطة في لندن. وفي تلك الليلة، وعقب العشاء، أخبرتني أوليفيا ونحن نتهيأ للنوم، عن ما كان يقض مضجع أخيها. إنه يفتقد تاشي.

وقالت أيضاً: وهو غاضب منها جداً لأننا حين غادرنا، كانت تخطط لإحداث ندبة في وجهها.

لم أكن أعرف بهذا. من إحدى الأشياء التي اعتقدنا بأننا أسهمنا في إيقافها كان إحداث ندبة أو خدش بوشم العلامات القبلية على أوجه الشابات.

قالت أوليفيا: إنها طريقة يظهر من خلالها سكان أولينكا أنهم لا يزالون أوفياء لتقاليدهم الخاصة. رغم استيلاء الرجل الأبيض على كل شيء آخر. لم ترغب تاشي بفعل ذلك، لكنها أذعنت لرغبة من حولها. وقالت بأنها ستشارك في طقوس الانتساب إلى عالم النساء.

قلت: أوو، كلا. هذا خطير. لنفترض أنها أصيبت بالعدوى؟

قالت أوليفيا: أعلم. أخبرتها أنه لا يوجد في أميركا أو أوروبا من يقتطع جزءاً من جسده. وعلى أي حال، كان من المفترض أن تفعل ذلك عندما كانت في الحادية عشرة من عمرها. لقد أصبحت كبيرة جداً على ذلك الآن.

قلت: يختن بعض الرجال، ولكن هذا لا يتجاوز بتر قطعة صغيرة من الجلد.

قالت أوليفيا: كانت تاشي سعيدة بأن طقس الانتساب لا يحدث في أوروبا أو أميركا. فهذا يعلي من شأنها بالنسبة إليها.

قلت: أفهم ذلك.

أمضت هي وآدم ليلة رهيبة. لا تشبه أياً من لياليهما السابقة. لم يكن يستفزها أو يطاردها في أرجاء القرية أو يحاول ربط عرقين من «الرووفليف» في شعرها. كان غاضباً بما يكفي لضربها.

قلت: حسناً، من الجيد أنه لم يفعل. كانت تاشي لتحشر رأسه في نول السجاد لو فعل.

قالت أوليفيا: سأكون سعيدة عندما نعود إلى ديارنا. آدم ليس الشخص الوحيد الذي يفتقد تاشي.

قبّلتني وقبّلت والدها قبلة النوم. وسرعان ما جاء آدم ليقبّلنا.

قال: ماما نيتي، وجلس على السرير إلى جواري، متى تعرفين أنك بالفعل تحبين أحدهم؟

قلت: أحياناً لا تعرف ذلك.

إنه شاب جميل يا سيلي. طويل القامة، عريض الكتفين، صوته عميق أجش. هل أخبرتك بأنه يكتب الشعر؟ ويحب الغناء؟ إنه ولد تفخرين به.

أختك المحبة، نيتي

ملاحظة: أخوك صموئيل يهديك تحياته ومحبته.

سيلي الأغلى،

لدى عودتنا بدا الجميع سعيداً برؤيتنا. عندما أخبرناهم عن فشل الالتماس الذي قدمناه للكنيسة والجمعية التبشيرية، أصيبوا بخيبة أمل. مسحوا حرفياً البسمة عن وجوههم كما يمسحون عرقهم، وعادوا، كئيبين، إلى ثكناتهم. تابعنا طريقنا إلى مبنانا، الذي يشمل الكنيسة والمنزل والمدرسة، وبدأنا بإفراغ حقائبنا.

الطفلان... أدرك أنه يتعين عليّ عدم مناداتهما بالطفلين، فقد كبرا، ذهبا للبحث عن تاشي؛ وبعد ساعة عادا مصعوقين. لم يعثرا على أي أثر لها. تزرع كاثرين، والدتها، أشجار المطاط ليس بعيداً عن المجمّع، كما قيل لهما. ولكن لم ير أحد تاشي طوال اليوم.

كانت أوليفيا خائبة الرجاء. حاول آدم التظاهر بعدم الاكتراث، لكني لاحظت بأنه يقضم أظافره بشرود.

بعد يومين أصبح من الواضح أن تاشي تتقصد التواري. قال أصدقاؤها إنها أثناء غيابنا، خضعت لطقوس التضحية الخاصة بالوجه وشعائر حفل الانتساب إلى عالم النساء. شحب وجه آدم تماماً لدى سماعه هذه الأخبار. صعقت أوليفيا وازدادت قلقاً من ألا تعثر عليها.

لم تظهر تاشي قبل يوم الأحد. لقد خسرت الكثير من وزنها، وبدت فاترة، بعينين ضجرتين ومتعبتين. كان وجهها ما زال متورماً بفعل ستة شقوق صغيرة علت كل وجنة من وجنتيها. عندما مدت يدها نحو آدم رفض مصافحتها. اكتفى بالنظر إلى نذباتها، دار على أعقابه وغادر.

تعانقت هي وأوليفيا. ولكن كان هذا عناقاً هادئاً وثقيلاً، خلا من الصخب والضحك الذي كنت أتوقعه منهما.

كانت تاشي خجلة من الندبات على وجهها، ونادراً ما ترفع رأسها الآن. لا بد وأنها مؤلمة أيضاً لأنها تبدو متقرحة ومحمرة.

ولكن هذا ما يفعله القرويون للشابات وحتى للرجال. ينحتون العلامات التعريفية التي تميزهم كشعب على وجوه أطفالهم. يظن الأبناء أن إحداث الندبات شيء متخلف، يعود لجيل الأجداد، وغالباً ما يقاومون. ولهذا يتم إجراء التخديش بالقوة، وفي ظروف مروّعة. كنا نقوم بتوفير المطهرات والقطن ومكان للأطفال يبكون فيه حيث نعتني بجروحهم.

يلحّ آدم علينا كل يوم لنعود إلى ديارنا. ما عاد يطيق العيش هنا. لا توجد حتى أي أشجار قريبة منا، مجرد صخور هائلة، وأخرى صغيرة. والمزيد من رفاقه يهربون. ومردّ ذلك طبعاً، هو عدم قدرته على احتمال مشاعره المتضاربة إزاء تاشي، التي بدأت، حسب اعتقادي، تدرك فداحة الخطأ الذي ارتكبته.

أنا وصموئيل سعيدان حقاً يا سيلي. وممتنان لله على هذه السعادة! لا تزال المدرسة متواجدة لتعليم الأطفال الصغار؛ أما الذين بلغت أعمارهم الثامنة فما فوق قد أصبحوا عمالاً في الحقول. فقد كان على الجميع أن يعمل، ليتمكنوا من دفع إيجار الثكنات، والضرائب على الأرض، وشراء المياه والحطب والطعام. وهكذا، فإننا نقوم بتعليم الأطفال الصغار، ونجالس الرضع، ونعتني بكبار السن والمرضى، والولادات. أيامنا حافلة أكثر من أي وقت مضى، وإقامتنا في إنجلترا مجرد حلم. إلا أن جميع الأشياء تبدو أكثر إشراقاً كوني أتشاركها مع روح مُحبّة.

أختك، نيتي

نيتي الأغلى،

مات الرجل الذي عرفناه على أنه أبونا.

سألتني شوغ منذ فترة: لماذا تسمينه أبي؟

ولكن فات الأوان لأدعوه ألفونسو. لا أذكر أن أمي نادته يوماً بهذا الاسم. لطالما قالت: أبوكِ. أظن أنها فعلت ذلك لتجعلنا نصدق أكثر. على أي حال، اتصلت بي زوجته الصغيرة ديزي في منتصف الليل.

قالت: آنسة سيلي، عندي أنباء سيئة. مات ألفونسو.

سألتها: من؟

قالت: ألفونسو. زوج أمك.

سألتها: كيف مات؟ ظننت أنه قُتِل، أو دهسته شاحنة، أو ضربته صاعقة، أو قضى بمرض عضال. لكنها قالت: مات وهو نائم. حسناً، لم يكن نائماً تماماً. كنا نمضي بعض الوقت في السرير معاً، كما تعرفين، قبل أن نغفو.

قلت: تعازي الحارة لك.

قالت: نعم يا سيدتي، وظننت أنني أملك هذا البيت أيضاً، إلا أنه على ما يبدو ملكك وأختك نيتي.

سألتها: ما الذي تقولينه؟

قالت: توفي زوج أمك منذ أسبوع. وعندما ذهبنا إلى البلدة لسماع الوصية وهي تقرأ البارحة، جف الدم في عروقي. أبوك الحقيقي يملك الأرض والبيت والحانوت. تركهم لوالدتك. وعندما ماتت أمك، انتقلت ملكيته لك ولأختك نيتي. لا أعرف لماذا لم يخبرني ألفونسو عن ذلك.

قلت: حسناً، لا أرغب بأي شيء يأتي منه.

سمعت ديزي تحبس أنفاسها. قالت: ماذا عن أختك نيتي. هل تعتقدين أنها تفكر بالطريقة نفسها؟

صحوت قليلاً عندها. تقلّبت شوغ وسألتني من بالهاتف، وبدأت أتبين الأمر.

لكزتني شوغ بقدمها قائلة: لا تكوني حمقاء. أصبح لديك منزلك الخاص الآن. والدك وأمك تركاه لك. ذلك الكلب الذي تسمينه زوج أمك مجرد نتانة عابرة.

قلت: لم أمتلك يوماً منزلاً خاصاً لي. ويخيفني ذلك. كما أن هذا المنزل الذي سأحصل عليه أكبر من منزل شوغ، والأرض المحيطة به أكبر. وفوق ذلك، هناك حانوت معه.

قلت لشوغ: يا إلهي. أنا ونيتي نملك متجراً. ماذا سنبيع فيه؟

قالت: ماذا عن السراويل؟

أغلقنا الهاتف واندفعنا إلى المنزل مجدداً لنلقي نظرة على الممتلكات.

وقبل قرابة ميل واحد من وصولنا إلى البلدة مررنا بمدخل مقبرة الملونين. كانت شوغ نائمة، ولكن شيئاً ما أخبرني بأن عليّ التوجه إلى المقبرة. بعد برهة وجيزة رأيت شيئاً يبدو مثل مبنى صغير متعدد الطوابق وأوقفت السيارة واتجهت نحوه. وكان اسم ألفونسو عليه. هناك الكثير من الكتابات. عضو في هذه وتلك. رجل أعمال ومزارع رائد. زوج وأب صالح. رؤوف بالفقراء والعجزة. لقد مات من أسبوعين ولكن الأزهار النضرة ما زالت يانعة على قبره.

خرجت شوغ من السيارة وجاءت لتقف إلى جواري.

تثاءبت بصوتٍ عالٍ وتمططت. قالت: ما زال ميتاً ابن العاهرة.

حاولت ديزي التظاهر بالسعادة لرؤيتنا، لكنها لم تكن كذلك. لديها

ولدان وتبدو حاملاً بالثالث. ثيابها أنيقة، وعندها سيارة، وترك لها ألفونسو كل ماله. علاوة على أنني أعتقد بأنها دعمت أقرباءها مالياً حين كانت تعيش معه.

قالت: سيلي، المنزل القديم الذي تتذكرينه كان متهالكاً ولذلك بنى ألفونسو هذا. أحضر مهندساً معمارياً من أتلانتا لتصميمه، وقطع هذا البلاط كل المسافة من نيويورك إلى هنا. كنا نقف في المطبخ في تلك اللحظة. لكنه وضع البلاط في كل مكان. في المطبخ ودورة المياه والشرفة الخلفية. حول المدافئ في صالتي الاستقبال الخلفية والأمامية. ولكن كل هذا سيذهب مع البيت. طبعاً سآخذ الأثاث معي لأن ألفونسو اشتراه خصيصاً لي.

قلت: لا مانع لدي. لا يمكنني تصديق أنني أملك منزلاً. وحالما غادرت ديزي وتركت لي المفاتيح ركضت كالمجنونة من غرفة إلى أخرى وأنا أقول لشوغ: انظري إلى هذه. انظري إلى ذاك! وهي تبتسم. كانت تعانقني كلما سنحت لها الفرصة ثم جمدتُ في مكاني.

قالت: أنت بأحسن حال يا آنسة سيلي. الله يعلم ما ستصيرين إليه.

ثم أخرجت من حقيبتها بعض أعواد الأرز وأشعلتها وأعطتني واحدة. وبدأنا نبخر البيت من السقيفة نزولاً إلى القبو، طاردين كل الشرور، مستحضرين الخير.

آه يا نيتي، لدينا منزل الآن! كبير بما يتسع لنا ولولدينا، ولزوجك وشوغ. يمكنكِ العودة الآن لأن لديك منزلاً ترجعين إليه!

أختك المحبة،

سيلي

عزيزتي نيتي،

قلبي مكسور.

شوغ تحب شخصاً آخر.

ربما لو بقيت في ممفيس الصيف الماضي لما حدث ذلك أبداً. لكنني أمضيت الصيف في ترميم المنزل. ظننت أنك ستأتين قريباً، فأردته أن يكون جاهزاً. وهو الآن جميل بالفعل، ومريح. ووجدت سيدة لطيفة لتعيش فيه وتعتني به. ثم عدت إلى شوغ.

قالت: آنسة سيلي، ما رأيك ببعض المأكولات الصينية للاحتفال بعودتك إلى البيت؟

أحب الطعام الصيني. ولهذا ذهبنا إلى المطعم. كنت متشوقة للغاية للعودة إلى بيتها مجدداً ولم ألحظ مدى توترها. إنها سيدة بهيجة معظم الوقت، حتى عندما تكون غاضبة. إلا أنني لاحظت أنها لا تستطيع الإمساك بعيدان الطعام لتأكل. أسقطت كأس الماء. وبطريقة أو أخرى انفكت لفافة البيض.

اعتقدت أنها سعيدة جداً لرؤيتي فحسب. لهذا تأنقتُ وجلستُ بغنج أمامها وحشيت نفسي بحساء «الوانتون» والأرز المقلي. جاءت كعكات الحظ التي أحب. إنها ظريفة للغاية. وقرأت حظي على الفور. كانت تقول: لأنك أنت ما أنت عليه، مستقبلك سعيد ومشرق.

ضحكت. مررت الورقة إلى شوغ. نظرت إليها وابتسمتْ. حلّ عليّ شعور بالسلام.

فتحت شوغ ورقتها ببطء شديد، كما لو أنها خائفة مما هو مكتوب فيها.

قلت وأنا أراقبها وهي تقرأها: حسناً، ماذا تقول؟

نظرتْ للأسفل نحو الورقة، وللأعلى نحوي. تقول إنني وقعت في غرام شاب في التاسعة عشرة من عمره.

قلت ضاحكة: دعيني أرى. وقرأتها بصوت عالٍ.

كانت تقول: الإصبع المحروق يتذكر النار.

قالت شوغ: أحاول إخبارك.

عماذا تحاولين إخباري. دماغي سميك جداً فما خلصت إلى معنى. مضى زمن طويل على آخر مرة فكّرت فيها بالفتية، ولم أفكر مطلقاً بالرجال.

قالت شوغ: السنة الماضية، وظفت رجلاً جديداً للعمل في الفرقة. بالأحرى لم أوظفه لكونه لا يعرف العزف سوى على «الفلوت». وهل هناك «بلوز» يعزف بالفلوت؟ أنا لم أسمع بذلك. الفكرة لوحدها بدت مجنونة. ولحسن حظي أن «الفلوت» هي الآلة الوحيدة التي تفتقرها موسيقا «البلوز» وفي اللحظة التي سمعت فيها جيرمين يعزف أيقنت بذلك.

سألتها: جيرمين؟

قالت: نعم، لا أعرف من أعطاه هذا الاسم الرهيف، لكنه يلائمه.

ثم بدأت فوراً تهذي عن هذا الشاب. كما لو أن خصاله كل ما أتوق لسماعه.

قالت: أوو، إنه صغير ولطيف. لديه مؤخرة جميلة. كما تعرفين، مؤخرة بانتوي[17] حقيقي. وكما هي عادتها في أن تخبرني كل شيء فإنها استفاضت بالحديث، وزاد حماسها بينما علامات العشق تظهر أكثر فأكثر. وانتابني شعور مريع عند انتهائها من الحديث عن قدميه الصغيرتين الأنيقتين الراقصتين، وانتقالها للحديث عن شعره البني العسلي المجعد.

---

17 – من شعوب وسط أفريقيا وجنوبها. (المترجمة).

قلت لها: توقفي يا شوغ، أنت تقتليني.

توقفت في منتصف مديحها له. اغرورقت عيناها بالدموع وانكمش وجهها. قالت: يا إلهي يا سيلي. أنا آسفة. كنت فقط تواقة لتقاسم هذا مع أحد، وأنت من أخبرها عادة.

قلت: لو أن الكلمات تقتل، لكنت الآن في سيارة الإسعاف.

دفنت رأسها بين يديها وشرعت بالبكاء.

قالت من بين أصابعها: سيلي، لا زلت أحبك.

لكني اكتفيت بالجلوس ومراقبتها. بدا أن كل حساء «الوانتون» قد تحول إلى جليد في أحشائي.

سألتني عندما عدنا إلى المنزل: لماذا أنت مستاءة هكذا. لم تكوني كذلك مع غرادي، رغم أنه كان زوجي.

لم يجعل غرادي عينيك تلمعان. لكني ما قلت شيئاً، لقد كنت بعيدة جداً.

قالت: طبعاً، غرادي، يا يسوع كم هو ممل، ما لم يكن يتحدث عن النساء والماريجوانا.

واصلتُ الصمت.

حاولتْ أن تضحك. كنت سعيدة جداً لأنه مضى سريعاً متعقباً ماري أغنيس. لم أكن أعرف ما الذي عليّ فعله. لا أعرف من علّمه الأمور التي يتعين عليه فعله في غرفة النوم، لا بد أنه بائع أثاث منزلي من علّمه.

لم أقل شيئاً. هبط عليّ الوجوم. والبرود. والخواء.

قالت: ألم تلاحظي أنني لم أذرف دمعة واحدة حين غادرا معاً إلى بنما؟ ولكن حقاً، كيف هما الآن في بنما؟

فكرت، مسكينة ماري أغنيس. كيف يمكن لأي شخص أن يتخيل حال غرادي العجوز الممل وقد انتهى به المطاف يدير مزرعة ماريجوانا في بنما؟

قالت شوغ: إنهما يجنيان الكثير من المال. وماري أغنيس تتفوق على الجميع بأناقتها، كما تورد في رسائلها. على الأقل غرادي يسمح لها بالغناء. بضعة مقاطع من أغانيها التي ما زال بوسعها تذكرها. ولكن حقاً، أين تقع بنما؟ هل هي قريبة من كوبا؟ يجب أن نذهب إلى كوبا يا آنسة سيلي، كما تعرفين؟ الكثير من القمار والتسالي هناك. الكثير من الملونين المشابهين لماري أغنيس. بعضهم سود تماماً، مثلنا. ومع ذلك فإن الجميع يشكّلون عائلة واحدة. حاولي التظاهر كأنك من البيض، وشخص ما سيذكر من تكون جدتك.

حافظت على صمتي. دعوت ربي أن يميتني، لئلا أقول شيئاً.

قالت شوغ: حسناً. بدأت الحكاية عندما كنت في بلدتك. افتقدتك يا سيلي. وتعرفين أني امرأة تجنح إلى غرائزها.

ذهبتُ وجلبت قصاصة من الأوراق التي أستخدمها لقص تصاميم السراويل. كتبت لها ملاحظة مفادها: اخرسي.

قالت: ولكن يا سيلي. يجب أن أشرح لك. انظري. أنا أتقدّم في العمر. ما عاد أحد يراني جميلة الآن، سواك. أو هذا ما أعتقده. إنه في التاسعة عشرة. طفل. كم سيدوم الأمر؟

كتبت على الورقة: إنه رجل.

قالت: نعم. وأعرف شعورك اتجاه الرجال. ولكن لا أشعر كما تشعرين. لن أكون حمقاء لآخذ أياً منهم على محمل الجد. لكن بعض الرجال قد يكونون مرحين جداً.

كتبت: اتركيني.

قالت: سيلي. كل ما أطلبه ستة أشهر. فقط ستة أشهر لأتمتع بآخر نزواتي. يجب أن أتمتع بها يا سيلي. أنا ضعيفة جداً ولا يمكن لامرأة ألا تكون ضعيفة. ولكن إن أعطيتني فقط ستة أشهر يا سيلي، سأحاول أن أجعل حياتنا معاً كسابق عهدها.

كتبت: مستحيل.

قالت: سيلي، هل تحبينني. ركعتْ على ركبتها الآن، وملأت الدموع المكان بأكمله. آلمني قلبي كثيراً ولم أستطع التصديق. كيف له أن يواصل الخفقان؟ ولكنني امرأة. قلتُ: أحبك، مهما حصل، ومهما فعلت، أحبك.

نشجتْ قليلاً، أسندت رأسها على صدري. قالت: شكراً لك.

قلت: لا يمكنني البقاء هنا.

قالت: ولكن يا سيلي، كيف يمكنك أن تتركيني؟ أنت صديقتي. أحب هذا الطفل وأنا خائفة حتى الموت. إنه بثلث عمري. وثلث حجمي. حتى لونه بثلث لوني. حاولت أن تضحك مجدداً. تعرفين أنه سيؤذيني أكثر مما أؤذيك. لا تتركيني، أرجوك.

حينها رن جرس الباب. مسحت شوغ وجهها وذهبت لفتحه، وبقيت في الخارج. سرعان ما سمعت صوت إقلاع سيارة. ولكن النوم بقي غريباً عني طيلة الليل.

صلّي من أجلي...

أختك، سيلي

عزيزتي نيتي،

الشيء الوحيد الذي يبقيني حيّة هو مراقبة هنريتا وهي تقاوم من أجل الحياة. رباه كم هي مقاومة. في كل مرة تعاني فيها من نوبة تصرخ بما يكفي لإيقاظ الموتى. نحن نفعل ما قلت إن الأفارقة يفعلونه. نطعمها اليام كل يوم. ولكن لسوء حظنا فهي تكرهه وتعرب عن ذلك بأشنع السبل. الكل سواء الجيران أو من تفصلهم أميال عنا يجلبون أطباق اليام التي لا تشبه طعمه. نحصل على أطباق من بيض اليام، وسجق اليام، ولحم الماعز واليام. والحساء. يا إلهي، الناس يعدون الحساء من كل شيء ما عدا جلد الأحذية محاولين قتل طعم اليام. لكن هنريتا تدعي أنها لا تزال تستشعر طعمه، وأنها ستتقيأه من النافذة. نخبرها بأنها بعد فترة قصيرة لن تتناول اليام لثلاثة أشهر، لكنها تقول إن هذا اليوم لن يأتي أبداً كما يبدو. في هذه الأثناء، مفاصلها جميعها متورمة، إنها محمومة جداً لدرجة الاحتراق، تقول إنها تشعر برأسها وكأنه مليء برجال بيض ومعهم مطارق.

أصادف أحياناً السيد ـــــ عندما يزور هنريتا. يكون مشغولاً بوصفاته الصغيرة الخادعة. في إحدى المرات، مثلاً، خبأ اليام في زبدة الفول السوداني. نجلس بالقرب من النار مع هاربو وصوفيا ونلعب الورق مرة أو مرتين بينما تكون سوزي كيو وهنريتا تستمعان إلى الراديو. يوصلني أحياناً بسيارته إلى منزلي. لا يزال يعيش في البيت الصغير نفسه. لقد سكنه زمناً طويلاً حتى صار البيت يشبهه تماماً. هناك كرسيان مستقيمان ملاصقان للجدر دائماً على الشرفة، وعلى سياجها أصص زهور معدنية، مطلية بالأبيض. واحذري ما هي الأشياء الشغوف بها هذه الأيام؟ إنه

يجمع الأصداف. بكل أنواعها. أصداف السلاحف والحلازين، وكافة أنواع الأصداف البحرية.

في واقع الأمر، بهذه الطريقة أعادني مجدداً إلى البيت. أخبر صوفيا عن أصداف جديدة اقتناها تتيح سماع صوت الأمواج الصاخب عندما تضعينها على أذنك. وهكذا ذهبنا لرؤيتها. كانت كبيرة وثقيلة ومبقعة مثل دجاجة، وبدا أن باستطاعتك سماع الموج أو صوت شيء يتحطم في أذنك. لم يكن أحد منا قد رأى البحر من قبل، لكن السيد ـــــ عرف عن المحيط من الكتب. وطلب الأصداف وفقاً للكتب أيضاً، وعمت الأصداف أرجاء المكان.

لا يقول الكثير عنها عندما تنظرين إليها، ولكن يمسك كل واحدة منها كما لو أنها وصلت للتو.

قال: كان بحوزة شوغ صدفة بحرية في يوم من الأيام. كان ذلك منذ زمن بعيد، عندما التقينا أول مرة. بيضاء كبيرة أشبه بمروحة. سألني: هل ما زالت تحب الأصداف؟

قلت: لا. إنها تحب الفيلة الآن.

انتظر بعض الوقت، وأعاد جميع الأصداف إلى مكانها. ثم سألني: هل تحبين أي شيء على وجه التحديد؟

قلت: أحب العصافير.

قال: تعرفين، لطالما ذكرتِني بالعصفور. حين جئتِ للمرة الأولى للعيش معي. كنت نحيلة جداً، رباه. وكان حدوث أي شيء كفيل بأن يطيّرك.

قلتْ: هل لاحظت ذلك؟

قال: نعم لحظته. كنت أحمق فلم أكترث.

قلت: لقد عانينا نحن الاثنين.

قال: ما زلنا زوجاً وزوجة، كما تعرفين.

قلت: لا، لم نكن يوماً كذلك.

قال: أتعرفين أن أمورك تحسنت كثيراً منذ ذهابك إلى ممفيس.

قلت: نعم، شوغ تعتني بي جيداً.

قال: كيف تتدبرين أمور عيشك هناك؟

قلت: أصنع السراويل.

قال: لاحظت أن كل فرد في العائلة يرتدي سروالاً من صنعك. هل تقصدين أنك حولت ذلك إلى تجارة؟

قلت: هذا صحيح. ولكن انطلاقتي في هذا العمل كانت هنا في منزلك، لأمنع نفسي من قتلك.

أطرق رأسه.

قلت: شوغ ساعدتني على صنع أول سروال على الإطلاق. وبعدها، شرعت بالبكاء، مثل الحمقاء.

قال: سيلي، أصدقيني القول. أنا لا أروق لك لأنني رجل؟

مسحت أنفي. قلت: ما إن يخلع الرجال سراويلهم، حتى يبدون مثل الضفادع بالنسبة لي. مهما قبّلتهم، فالضفادع تبقى ضفادع.

قال: أفهمك.

انتابني شعور سيئ جداً حين وصلت البيت ولم أستطع فعل شيء سوى النوم. حاولت العمل على بعض السراويل الجديدة المصممة للحوامل، إلا أن مجرد التفكير بأي امرأة حامل جعلني راغبة بالبكاء.

أختك، سيلي

عزيزتي نيتي،

الرسالة الوحيدة التي وضعها السيد ـــــ في يدي كانت برقية جاءت من وزارة الدفاع الأميركية. ورد فيها أن السفينة التي غادرتِ أفريقيا وأنت والولدان وزوجك على متنها قد أغرقها لغم ألماني في مكان ما اسمه جبل طارق. يعتقدون أنكم غرقتم جميعاً. إضافة إلى أنه وفي اليوم نفسه، عادت إليّ كل الرسائل التي كتبتها إليك على مرّ السنين غير مفتوحة.

جلست هنا في هذا المنزل الكبير لوحدي أحاول الخياطة، لكن ما الجدوى من الخياطة؟ ما الجدوى من أي شيء؟ البقاء على قيد الحياة بدا مشقة ما بعدها مشقة.

أختك، سيلي

عزيزتي سيلي،

تاشي وأمها هربتا. ذهبتا للانضمام إلى *المتمردين*. كنت أنا وصموئيل والولدان نناقش الأمر البارحة فقط، وأدركنا أننا لم نكن نعرف بشكل مؤكد إن كان *المتمردون* موجودين بالفعل. كل ما نعرفه هو أنهم يعيشون في أعماق الغابة، ويرحبون بالهاربين، ويناوشون مزارع الرجل الأبيض ويخططون لتدميره، أو على الأقل إجلائه عن قارتهم.

آدم وأوليفيا محطما الفؤاد لأنهما يحبان تاشي ويشتاقان إليها، ولأنه ما من شخص ذهب للانضمام إلى المتمردين قد عاد. نحاول شغلهما في أمور محيطة بالمجمع، وبسبب انتشار الكثير من حالات الملاريا هذا الموسم فهناك الكثير من العمل ليقوما به. وفي حراثة محاصيل الأولينكا من اليام والبضائع البديلة المعلبة والمحولة إلى مساحيق، دمر مزارعو المطاط ما يعين أجسادهم على مقاومة الملاريا. طبعاً لم يعرفوا ذلك، كل ما أرادوه هو أخذ الأرض لزراعة المطاط، ولكن سكان أولينكا كانوا يأكلون اليام لمنع انتشار الملاريا والتحكم بأمراض الدم المزمنة عبر آلاف وآلاف السنين. وبعد تركهم من دون وجود المخزون الكافي منه، فإن الناس – من تبقى منهم – يسقطون ضحية المرض ويموتون بمعدلات مفزعة.

ولأصدقك القول، أخشى على صحتنا، لا سيما الولدين. لكن صموئيل يشعر بأنه بخير، لأنه سبق وأن وقع ضحية الملاريا خلال السنوات الأولى من وجودنا هنا.

وكيف حالك، يا أختي الأغلى؟ ثلاثون عاماً مضت لم نتبادل خلالها كلمة واحدة. وكل ما أعرفه أنك قد تكونين ميتة. ومع اقتراب

موعد عودتنا، يطرح آدم وأوليفيا أسئلة لا تنتهي عنك، يمكنني الإجابة عن بعضها فقط. أحياناً أخبرهما أن تاشي تذكرني بك. ولأنه لا يوجد شخص بالنسبة لهما أرق من تاشي، فقد كانا يبتهجان بذلك. ولكن هل ما زلت تتمتعين بروح تاشي الصادقة الحرة، أتساءل، متى نلتقي مجدداً؟ أم إن سنوات الإنجاب وعسف السيد ـــــ حطّما روحك؟ هذا مما لا أناقشه مع الولدين، أطرحها فقط بصحبة رفيقي الحبيب صموئيل، الذي ينصحني بألا أقلق، وأن أثق بالله، وأؤمن بصلابة روح أختي.

بعد كل هذه السنوات في أفريقيا، أمسى الله مختلفاً بالنسبة إلينا، أكثر روحانية من أي وقت مضى، أكثر باطنية. كثر يسعون إلى تجسيده على هيئة شيء أو شخص - نبات ورق الأسطح «الرووفيلف» أو المسيح - لكننا لا نعتقد ذلك. وعدم تقيدنا بتجسيد الله بهيئة أو شكل، يحررنا.

عندما نعود إلى أميركا سنتحدث طويلاً عن هذا يا سيلي.. وربما نؤسس أنا وصموئيل كنيسة جديدة في مجتمعنا لا وجود للأصنام فيها، حيث يتم حض روح كل شخص على السعي إلى الله بشكل مباشر، ويؤمن صموئيل بأن هذا قد يتعزز من خلالنا نحن المؤمنين.

ثمة القليل لنفعله هنا للتسلية، كما يمكنك أن تتخيلي. نقرأ الصحف والمجلات الواردة من الديار، ونلعب عدداً من الألعاب الأفريقية مع الولدين. نمرن الأطفال الأفارقة على مقاطع من مسرحيات شكسبير. كان آدم دائماً جيداً جداً في تجسيد دور هاملت وهو يردد مونولجه أكون أو لا أكون. كان لكورين أفكار ثابتة عما يجب تعليمه للأطفال حريصة على أن يكون كل عمل جيد منشور في الصحف جزءاً من مكتبتهم. عرفوا الكثير من الأشياء، وأعتقد بأنهما لن يصدما كثيراً بالمجتمع الأميركي، عدا كراهية المجتمع الأمريكي للسود، هذا الواضح بشكل جلي في جميع الأخبار. لكني قلقة بشأن استقلال الأفارقة برأيهم واعتدادهم به وإشهارهم له، إضافة إلى تمركزهم الفائق حول الذات. سنكون فقراء يا سيلي، وستمضي سنوات بلا شك قبل امتلاكنا لمنزلنا

الخاص. كيف سيتدبرون أمرهم حيال كره المجتمع الأمريكي لهم، وقد ترعرعوا وكبروا هنا؟

عندما أتخيلهما في أميركا أراهما أصغر بكثير مما يبدوان عليه هنا. أكثر سذاجة. الأسوأ الذي اعتدنا تحمله هنا هو اللامبالاة وسطحية يمكن تفهمها في علاقاتنا الشخصية. باستثناء علاقتنا مع كاثرين وتاشي، فإن سكان أولينكا، في نهاية الأمر، يعرفون أن بإمكاننا الرحيل، بينما يتعين عليهم البقاء. وبالطبع، لا شيء من هذا له علاقة باللون. و .....

سيلي الأغلى،

ليلة البارحة توقفت عن الكتابة لأن أوليفيا جاءت وأخبرتني أن آدم مفقود. الاحتمال الوحيد أنه ذهب للحاق بتاشي.

صلّي من أجل سلامته...

أختك، نيتي

نيتي الأغلى،

أفكر أحياناً بأن شوغ لم تحبني يوماً. أقف متأملة جسدي العاري أمام المرآة. أسأل نفسي: ما الذي ستحبه؟ شعري قصير ومجعد وقد توقفت عن تمليسه. شوغ قالت لي إنها تحبه هكذا ولا حاجة لتمليسه. بشرتي داكنة. أنفي مجرد أنف. شفتاي مجرد شفتين. جسدي تماماً مثل جسد أي سيدة ترزح تحت وطأة تغيرات التقدّم بالعمر. لا شيء مميز هنا ليحبه أحد. لا شعر ملفلف عسلي اللون، ولا غنج. ولا شباب ولا نضارة. إلا أن قلبي شاب ونضر رغم كل شيء، كما لو أن دمي يزهر.

كلّمت نفسي كثيراً، وأنا أقف أمام المرآة. خاطبت نفسي قائلة: يا سيلي، ليست السعادة في حالتك إلا محض خدعة. ما كان لها من وجود قبل شوغ، لقد آن الأوان لتنعمي ببعض منها، وأن تدوم. كنت تعتقدين أن الأشجار معكِ. والأرض برمتها. والنجوم. انظري إلى نفسك. عندما رحلت شوغ، فارقتك السعادة.

بين الفينة والأخرى تصلني بطاقة بريدية من شوغ. هي وجيرمين في نيويورك، كاليفورنيا. ذهبا لرؤية ماري أغنيس وغرادي في بنما.

يبدو أن السيد ـــــ الوحيد القادر على فهم مشاعري.

قال: أعرف أنك تكرهينني لأنني أبعدتك عن نيتي. وهي الآن ميتة.

ولكني لا أكرهه يا نيتي. ولا أظن أنك ميتة. كيف يمكن أن تكوني ميتة وما زلت أشعر بوجودك؟

ربما أنت، مثل الله، تحولتِ إلى شيء مختلف يتعين عليّ التحدث إليه بطريقة مختلفة، لكنك لست ميتة بالنسبة إليّ يا نيتي. ولن تموتي.

أحياناً عندما أتعب من مخاطبة نفسي أحادثك. حتى إنني أحاول الوصول إلى ولدينا.

السيد ـــــ ما زال غير مصدق بأن لدي أولاداً.

سألني: ممن أنجبتهم؟

قلت: من زوج أمي.

سألني: تقصدين أنه كان يعرف بأنه الشخص الذي آذاك منذ البداية؟

قلت: نعم.

هز السيد ـــــ رأسه.

بعد كل الشرور التي اقترفها أعرف بأنك تتساءلين لماذا لا أكرهه. ثمة سببان لذلك. أولهما لأنه يحب شوغ. والثاني لأن شوغ دأبت على حبه، إضافة إلى أنه يحاول أن يتغير، لا أعني أنه يكتفي بالعمل والتنظيف وتقدير بعض الأشياء التي كان الله مرحاً بما يكفي لخلقها. أعني، عندما تتحدثين إليه الآن فإنه يصغي حقاً، وفي إحدى المرات، ومن دون أي سبب ووسط محادثة جرت بيننا، قال: سيلي، أنا راضٍ لأنني للمرة الأولى أعيش على الأرض كرجل طبيعي. أشعر أنها تجربة جديدة.

تحاول صوفيا وهاربو دائماً تدبير لقاء لي مع رجل ما لنتعارف. يعلمان بحبي لشوغ ولكنهما يعتقدان أن النساء يعشقن بمحض الصدفة فقط، وهو ما يميل إلى فعله أي شخص سهل المراس. في كل مرة أزور فيها حانة هاربو يقفز في وجهي بائع قليل الحيلة. ويتعين على السيد ـــــ المجيء لإنقاذي. ويخبر الرجل بأن هذه السيدة هي زوجتي، فيختفي خارجاً من الباب.

ثم نجلس، ونحتسي شراباً بارداً. نتحدث عن أيامنا مع شوغ. نتحدث عن مجيئها إلى المنزل مريضة. والأغنية الفاحشة البسيطة التي اعتادت غناءها. ونستعيد كل أماسينا الجميلة التي أمضيناها في حانة هاربو.

قال: لقد كنت تخيطين بشكل جيد حينها. أتذكر الفساتين القصيرة الجميلة التي درجت شوغ على ارتدائها.

قلت: نعم، الفساتين تليق بشوغ.

سألني: هل تذكرين الليلة التي قامت فيها صوفيا بكسر أسنان ماري أغنيس؟

قلت: ومن ينسى ذلك؟

نتجنب الحديث عن مشاكل صوفيا. وما زلنا عاجزين عن التندر بهذا الخصوص. ما زالت تعاني من مشاكل مع تلك العائلة. ثمة مشكلة الآن مع الآنسة إليانور جاين.

قالت صوفيا: أنت لا تعرفين المر الذي أذاقتني إياه تلك الفتاة. هل تعرفين كم كانت تنغص عيشي حين تجابه أي مشكلة؟ ثم صارت تزعجني حين تحدث لها أشياء جيدة. فهي ما إن أحبت الرجل الذي تزوجته لاحقاً هرعت إلي. قالت: عليك مقابلة ستانلي إيرل يا صوفيا. وقبل أن أتلفظ بكلمة واحدة، كان ستانلي إيرل أمامي في الغرفة.

قال وهو يبتسم مادّاً يده: كيف حالك يا صوفيا. أخبرتني الآنسة إليانور الكثير عنك.

قالت صوفيا: لا أعرف إن كانت قد أخبرته بأنهم أجبروني على النوم تحت منزلهم. ولكني لم أسأل. حاولت أن أكون مهذبة، وأتصرف بطريقة لطيفة. رفعت هنريتا صوت الراديو في الغرفة الخلفية. وكان علي أن أزعق ليسمعاني. وراحا يطوفان بالغرفة وهما يعاينان صور الأطفال المعلقة على الجدار ويتحدثان عن وسامة أولادي وهم في الزي العسكري.

أراد ستانلي إيرل معرفة المكان الذي يقاتلون فيه.

قلت: هم في الخدمة العسكرية قريبون من هنا في جورجيا. سيتم نقلهم قريباً إلى الخارج.

سألني إن كنت أعرف في أي جزء سيتمركزون؟ في فرنسا، أم ألمانيا، أم المحيط الهادئ.

لم أكن أعرف أياً من الأمكنة التي ذكرها ولهذا قلت: لا.

قال إنه يريد القتال ولكن عليه البقاء في الوطن وإدارة محلج القطن الذي يمتلكه أبوه.

وأضاف ضاحكاً: يجب على الجيش ارتداء الملابس، إن كان عليهم القتال في أوروبا. لسوء الحظ إنهم لا يخدمون في أفريقيا. وابتسمت الآنسة إليانور. رفعت هنريتا صوت الراديو لأقصى درجة ممكنة. صدحت موسيقا حزينة جداً للبيض ما سمعتها من قبل. طقطق ستانلي إيرل أصابعه ونقر بقدميه الكبيرتين الأرض. لديه رأس طويل متطاول وقصة شعره قصيرة جداً كما الزغب. ولون عينيه أزرق فاتح يكاد، والله أعلم، لا يرمش بهما.

قالت الآنسة إليانور جاين: عملياً. صوفيا من ربتني، لا أعرف ماذا كنا سنفعل لولاها.

قال ستانلي إيرل: الجميع هنا تربوا على يد الملونين. ولهذا بتنا على أحسن ما يرام. وغمزني، وانتقل لمخاطبة الآنسة إليانور: حسناً يا سكّرتي، حان وقت إكمال جولتنا.

قفزتْ كما لو أنها نُكِزت بدبوس.

سألت: كيف حال هنريتا؟ ثم همست: أحضرت لها شيئاً مصنوعاً من اليأم ولكنه مخبأ بشكل جيد جداً لن تشتبه بأي شيء على الإطلاق. ركضت إلى السيارة وعادت بطبق خزفي من أسماك التونا.

قالت صوفيا: هناك شيء واحد يتعين عليّ الإقرار به بشأن الآنسة إليانور جاين، إنها أطباقها التي تنطلي على هنريتا. وهذا يعني الكثير بالنسبة إليّ. طبعاً لم أخبر هنريتا قط عن مصدر الطعام. لو أخبرتها فسترميه من النافذة. أو ستتقيأه، فهي تشمئز منها.

أخيراً، حان وقت النهاية بين صوفيا والآنسة إليانور جاين. لم يكن الأمر متعلقاً بهنريتا، التي تكره جرأة الآنسة إليانور جاين. كانت المشكلة

متصلة بإليانور نفسها وطفلها الذي أنجبته. وكانت في كل مرة تلتقي فيها صوفيا تضع رينولدز ستانلي إيرل في وجهها. كان طفلاً أبيض صغيراً وبديناً قليل الشعر، ويبدو كما لو أنه في البحرية.

قالت الآنسة إليانور جاين لصوفيا: أليس رينولدز الصغير جميلاً؟ أبي يحبه كثيراً. يحب أن يكون له حفيد على اسمه، وهو يشبهه كثيراً.

لم تقل صوفيا شيئاً، وقفت هناك وهي تكوي بعض ملابس سوزي كيو وهنريتا.

وأردفت إليانور جاين: وهو ذكي جداً. يقول أبي إنه لم ير طفلاً بهذا الذكاء. تقول حماتي إنه أذكى من ستانلي إيرل عندما كان في عمره.

حافظت صوفيا على صمتها.

أخيراً لاحظت إليانور جاين. وتعرفين كيف هم بعض البيض، لن يدعوك وشأنك، إن أرادوا أذيتك. يجردونك من النِّعم بما يكفل قتلك.

قالت الآنسة إليانور جاين كما لو أنها تخاطب رينولدز ستانلي: صوفيا ساكتة اليوم. أمعن النظر فيها بعينيه الكبيرتين.

سألت مجدداً: ألا تعتقدين أنه حلو؟

قالت صوفيا وهي تقلب الفستان الذي تكويه: إنه بالتأكيد بدين.

قالت الآنسة إليانور: وهو حلو أيضاً.

قالت صوفيا: مكتنز تماماً وطويل.

قالت إليانور جاين: ولكنه حلو، أيضاً. وهو ذكي.

ثم جذبته وقبلته من رأسه. فرك رأسه وقال، يييي.

سألتْ صوفيا: أليس أذكى طفل رأيته على الإطلاق؟

قالت صوفيا: يليق به حجم رأسه. تعرفين أن كثراً يحملون وزناً كبيراً في رؤوسهم. ورأسه خال من الشعر، وهذا سيخفف عليه حر الصيف. طوت قطعة الملابس التي كانت تكويها ووضعتها على الكرسي.

سألت الآنسة إليانور جاين صوفيا بشكل مباشر: يا له من طفل صغير جميل وذكي ولطيف وبريء. ألا تحبينه؟

تنهدت صوفيا. وضعت المكواة. حدقت في الآنسة إليانور جاين ورينولدز ستانلي. كل هذا الوقت كنت أنا وهنريتا نلعب الورق في الزاوية. تصرفت هنريتا كما لو أن الآنسة إليانور جاين غير متواجدة، ولكن كلانا سمعنا صوت المكواة عندما وضعتها صوفيا. حمل الصوت صدى الكثير من الأشياء القديمة والجديدة.

قالت صوفيا: كلا يا سيدتي. أنا لا أحب رينولدز ستانلي إيرل. هذا ما كنت تحاولين اكتشافه منذ ولد. والآن بتِّ تعرفين.

استرقتُ النظر أنا وهنريتا. وضعت الآنسة إليانور جاين رينولدز ستانلي بسرعة فمضى يحبو مطيحاً بكل ما يعترض طريقه. توجه مباشرة نحو كومة الملابس المكوية ورماها على رأسه. رفعت صوفيا الملابس، مسدتها مجدداً، ووقفت بمحاذاة طاولة الكوي واضعة يدها على المكواة. صوفيا من النساء اللواتي يبدو كل ما في أيديهن سلاحاً.

شرعت إليانور جاين بالبكاء. لطالما كانت متعاطفة مع صوفيا. ولولاها، لما نجت صوفيا عندما كانت تعيش في منزل والدها. ولكن ما معنى هذا؟ صوفيا لم ترغب يوماً بأن تكون هناك أصلاً. ولا أرادت أن تتركَ أطفالها.

قالت صوفيا للآنسة إليانور جاين: لقد فات أوان البكاء. كل ما بوسعنا فعله الآن هو الضحك. انظري إليه. وضحكت. لا يقوى على المشي ومع ذلك يزرع الفوضى في منزلي. هل طلبتُ منه المجيء؟ هل يهمّني إن كان حلواً أم لا؟ هل سيغير هذا شيئاً من طريقة معاملته لي حين يكبر؟

قالت الآنسة إليانور جاين: أنت فقط لا تحبينه لأنه يشبه أبي.

قالت صوفيا: *أنت* لا تحبينه لأنه يشبه أباك؟ لا أشعر بأي شيء نحوه

على الإطلاق. لا أحبه، ولا أكرهه. كل ما أتمناه ألا ينفلت كل مرة راكضاً مخرباً أغراض الناس.

قالت الآنسة إليانور جاين: كل مرة كل مرة! إنه مجرد طفل يا صوفيا. لم يتجاوز السنة بعد. لقد جاء إلى هنا خمس أو ست مرات فقط.

قالت صوفيا: أشعر أنه هنا منذ الأزل.

قالت الآنسة إليانور جاين: لا يمكنني استيعاب ذلك. جميع النساء الملونات الأخريات يعشقن الأطفال. شعورك هذا أمر غير طبيعي.

قالت صوفيا: أحب الأطفال. ولكن جميع النساء الملونات اللواتي قلت إنهن يعشقن طفلك يكذبن. ليس حبهن لرينولدز ستانلي بأكثر من حبي له. وإن كنت تلقيت تربية سيئة تدفعك لسؤال هكذا سؤال، فما الذي تتوقعين أن يقولوه؟ من شدة فزع بعض الملونين من البيض فإنهم يدّعون أنهم يعشقون محلاج القطن.

قالت الآنسة إليانور جاين: لكنه مجرد طفل صغير! كما لو أن تلك الحقيقة كفيلة بمسح كل شيء عداها..

قالت صوفيا: ما الذي تريدينه مني؟ أكنّ بعض المشاعر نحوك لأنك ومن بين كل الناس الموجودين في منزل والدك أظهرت لي بعض اللطف الإنساني. إلا أنني بادلتك ذلك اللطف من بينهم جميعاً. كل ما أستطيع تقديمه لك هي المشاعر الطيبة. لا أملك شيئاً لأقدمه لأقربائك سوى ما قدموه لي. ما من شيء لدي له.

كان رينولدز ستانلي أثناء ذلك قد وصل إلى فراش هنريتا واندفع نحو ساقها، وبدأ يعض أصبعها. مدت هنريتا يدها إلى حافة النافذة وأعطته قطعة من البسكويت.

قالت الآنسة إليانور جاين: أشعر أنك الشخص الوحيد الذي يحبني. أمي تحب جنيور فقط. لأنه حبيب أبي بالفعل.

قالت صوفيا: حسناً. لديك الآن زوج يحبك.

قالت: يبدو أنه لا يحب شيئاً سوى محلاج القطن ذاك. تصبح الساعة العاشرة ليلاً وهو لا يزال هناك يعمل. وعندما لا يكون في العمل، يلعب البوكر مع رفاقه. يرى أخي ستانلي إيرل أكثر مما أراه.

قالت صوفيا: ربما عليك تركه. لديك أقرباء في أتلانتا، اذهبي وعيشي معهم؛ احصلي على عمل.

أزاحت الآنسة إليانور جاين شعرها للخلف وتظاهرت بأنها لم تسمع ما قيل، إنها فكرة جامحة للغاية.

قالت صوفيا: لدي مشاكلي الخاصة، وعندما يكبر رينولدز ستانلي سيكون هو إحداها.

قالت الآنسة إليانور جاين: ولكنه لن يكون كذلك. أنا أمه ولن أدعه لئيماً مع الملونين.

قالت صوفيا: بمساعدة من ستفعلين ذلك؟

قالت الآنسة إليانور جاين: أتقولين لي بأنني عاجزة حتى عن حب ابني.

قالت صوفيا: كلا. ليس هذا ما قصدته. ما أقوله لك هو أنه لن يكون بوسعي أن أحب ابنك. يمكنك أن تحبينه قدر ما تشائين. ولكن تهيّئي لتحمل العواقب. هكذا يعيش الملونون.

أصبح رينولدز ستانلي الصغير فوق وجه هنريتا الآن، يغطيه باللعاب ويمصه محاولاً تقبيلها. ظننت أنها ستضربه في أي لحظة. ولكنها بقيت جامدة تماماً وهو يتفحصها. كان يتظاهر بين الفينة والأخرى بأنه يختلس النظر إلى مقلة عينها. ثم جلس أعلى صدرها وابتسم. أخذ إحدى أوراق اللعب وحاول عضها.

أتت صوفيا ورفعته.

قالت هنريتا: لا يضايقني. إنه يدغدغني.

قالت صوفيا: إنه يضايقني أنا.

قالت الآنسة إليانور جاين للطفل وهي تحمله: حسناً. وجودنا غير

مرغوب به هنا. قالت هذا بحزن حقيقي، كما لو أنه لم يتبق لها مكان آخر تذهب إليه.

شكراً لك على كل ما فعلتِه من أجلنا. لم تكن تبدو بحالٍ جيدة والتمعت دمعة في عينيها. وقالت بعد مغادرة الآنسة إليانور جاين ورينولدز ستانلي: مثل هذه الأوقات تجعلني أوقن بأننا لم نصنع هذا العالم. وجميع الملونين الذين يتحدثون عن حب كل الناس لم يفكروا ملياً بما قالوه.

ماذا حدث أيضاً؟

حسناً، أختك أكثر جنوناً من أن تقتل نفسها. يتملكني شعور مريع طيلة الوقت وقد عايشته من قبل في حياتي وما الذي حدث؟ كان لدي أخت لطيفة اسمها نيتي، وصديقة لطيفة اسمها شوغ، وولدان رائعان يترعرعان في أفريقيا، يغنيان ويؤلفان الشعر. فليسمع العالم أجمع: الجحيم كل الجحيم كان في أول شهرين. انقضت الآن أشهر شوغ الستة وما عادت. أحاول تعليم قلبي ألا يرغب بشيء ليس بمقدوره امتلاكه.

كما أنني أمضيت سنوات جميلة معها. وهي بدورها تتعلم أشياء جديدة في حياتها الجديدة. تقيم الآن مع جيرمين في بيت أحد أبنائها.

كتبت لي: عزيزتي سيلي، انتهى المطاف بي وبجيرمين في توسان في أريزونا حيث يعيش أحد أبنائي. الولدان الآخران على قيد الحياة وهما بحال جيدة ولكنهما لا يرغبان برؤيتي. أخبرهما أحد ما بأنني أعيش حياة فاحشة. بينما قال هذا الابن بأنه يرغب برؤية أمه بصرف النظر عن أي شيء. يعيش في بيت صغير يبدو مصنوعاً من الطين لكنه مصنوع كما باقي البيوت هنا من طين اللبن، ولهذا فإنني أشعر كما لو أنني في بيتي (ابتسامة). إنه معلم في المدرسة أيضاً ويعمل في المحمية الهندية. يطلقون عليه اسم الرجل الأسود الأبيض. ولديهم كلمة تصف هذا أيضاً، وهذا ما يضايقه بالفعل. ولكن حتى لو حاول إخبارهم بحقيقة شعوره، فلا يبدو أنهم يلقون بالاً. ولا يعنيهم كل ما يقوله الغرباء. وكل

من هو ليس بهندي لا فائدة منه. أكره أن أراه مجروح المشاعر ولكن هذه هي الحياة.

كان جيرمين هو من اقترح فكرة البحث عن أولادي. لاحظ كيف أقوم دائماً باختيار ثيابه وكيف أداعب شعره. اقترح ذلك برفق. كل ما قاله هو أن حياتي ستكون أفضل لو عرفت أحوال أولادي.

هذا الولد الذي نقيم عنده اسمه جيمس. اسم زوجته كورا ماي. لديهما ديفيس وكانتريل. قال إنه كان يستغرب أمه (أمي) لأنها هي ووالدي الكبير كانا عجوزين وصارمين ومتمسكين بما هما عليه. ورغم ذلك قال بأنه يحبهما حباً كبيراً.

قلت له: أجل يا بني. عندهما الكثير من الحب ليمنحاه. لكني احتجت إلى الحب إضافة إلى التفهم. وكان لديهما القليل القليل من ذلك.

قال: *إنهما* ميتان الآن. منذ تسع أو عشر سنوات. بذلوا قصارى جهديهما ليرسلونا جميعاً إلى المدرسة.

لم أفكر قط بأمي وأبي كما تعرفين، وكم كنت أقسو حين أستعيدهما. ولكن الآن وقد ماتا وبوسعي رؤية أولادي وهم في أفضل حال، يروق لي أن أفكر بهما. ربما عندما أعود بإمكاني وضع بعض الأزهار على قبرهما.

إنها تكتب لي الآن كل أسبوع تقريباً. رسائل إخبارية مطوّلة مليئة بتفاصيل اعتقدت أنها نسيتها. إضافة إلى أشياء تتعلق بالصحراء والهنود الحمر والجبال الصخرية. أتمنى لو بوسعي السفر معها، ولكن أحمد الله على أنها قادرة على السفر. أشعر أحياناً بأنني حانقة عليها. بوسعي انتزاع شعر رأسها. ثم أهدأ وأخلص إلى أن من حقها أن تعيش، وأن تستكشف العالم برفقة من تشاء. ومجرد حبي لها لا يجردها من أي حق من حقوقها.

الشيء الوحيد المزعج هو أنها لا تذكر أي شيء بخصوص عودتها. وأنا مشتاقة لها. أفتقد صداقتها كثيراً لدرجة أني سأرحب بها وجيرمين معاً إن عادت وهي تجرّه معها، أم إنني سأموت من دون أن يتحقق ذلك.

من أنا لأخبرها من يتعين عليها أن تحبه؟ وظيفتي تقتصر على أن أحبها حباً حقيقياً وصادقاً.

سألني السيد ـــــ منذ فترة عن أكثر شيء أحبه في شوغ. قال إنه يحب أسلوبها. لأكن صادقاً، شوغ تتصرف برجولة أكثر من معظم الرجال. أقصد أنها مستقيمة وصادقة. تعبّر عن نفسها وليتولى الشيطان الباقي. تعرفين أن شوغ ستناضل. تماماً مثل صوفيا. إنها محكومة بأن تعيش حياتها كما هي مهما حدث.

يعتقد السيد ـــــ أن هذه الأمور حكر على الرجال. قلت له: هاربو يخالفك الرأي. أنت لا تتمتع بها. الصفات التي تتمتع بها شوغ نسائية بنظري. لا سيما أنها هي وصوفيا تشتركان بها.

قال: صوفيا وشوغ ليستا من الرجال، وليستا من النساء أيضاً.

تقصد أنهما ليستا مثلك ولا مثلي.

قال: لديهن صفاتهن الخاصة. وهذا أمر مختلف.

قلت: أكثر شيء أحبه في شوغ هو ما عايشته. عندما تنظر في عينيها تبصر فيهما الأمكنة التي قصدتها، وترى ما رأته وفعلته. والآن صارت كلها معرفة.

قال السيد ـــــ: هذا صحيح.

وإن لم تفسح لها الطريق فستسألك ذلك.

وفاجأني بقول شيء منطقي وعميق جداً: عندما يتعلق الأمر بشيء يفعله الناس معاً بأجسادهم، فإن تخمين الجميع يكون جيداً مثل تخميني. ولكن عند الحديث عن الحب فلا مجال للتخمين. كنت عاشقاً ومعشوقاً. وأشكر الله لأنه منحني الفهم الكافي لأعرف أن الحب لا يتوقف فقط لأن بعض الأشخاص يعانون ويتألمون. ولا يفاجئني أنك أحببت شوغ إفري. لقد أحببتها طيلة حياتي.

سألته: ما الذي يثقل عليك؟

قال: لا شيء يثقل علي. ليست سوى تجربة. كما تعرفين، الكل محكومون بأن ينالوا منها شيئاً عاجلاً أم آجلاً. كل ما يتعين فعله هو البقاء على قيد الحياة. تجربتي تحولت إلى تجربة حقيقية وثقيلة وطويلة عندما اعترفت لشوغ بصدق ما قلته عن ضربي لك لأنك كنت أنتِ ولست هي.

قلت: أنا من أخبرها.

قال: أعرف. ولا ألومك. لو كان باستطاعة البغل أن يخبر الناس عن الطريقة التي يعامل بها، لفعل. ولكن تعرفين ثمّة من النساء من تحب سماع رجلها وهو يقول إنه يضرب زوجته لأنها لم تكن هي. ذات مرة كانت شوغ كذلك مع آني جوليا. لقد أساء كلانا معاملتها بطريقة لا يمكن محوها. ولم تخبر أحداً على الإطلاق. كما أنه لم يكن لديها من تخبره. وبعد أن زوجوها لي تصرف أهلها كما لو أنهم قد ألقوا بها في غياهب بئر. أو مسحت عن وجه الأرض. لم أرغب بها. أردت شوغ. لكن أبي كان صاحب اليد الطولى. أعطاني الزوجة التي أرادها لي.

واستطرد: لكن شوغ دافعت عنك يا سيلي. قالت: ألبرت أنت تسيء معاملة من أحبّ. وليكن بعلمك، بأنني أتسربُ من بين أصابعك. لم أستطع تصديق ذلك. طيلة الوقت كنا نقدح معاً كمسدسين. اعذريني. لكننا كنا كذلك بالفعل. حاولت التعامل مع الأمر كمزحة. لكنها كانت تعني ما قالته.

حاولت إغاظتها. قلت لها: أنت لا تحبين سيلي العجوز الحمقاء. إنها قبيحة وهزيلة ولا يمكنها أن تضاهيك. لا يمكنها حتى ممارسة الجنس.

ما أرمي إليه هو أن شوغ أخبرتني بأنه ما من سبب بالنسبة إليها لتمارس الجنس معك. قالت إنني أنا من أفرغ منك بسرعة أرنب. وأنك أخبرتها بأنني لست نظيفاً دائماً، بما يدفعكِ لسدّ أنفك.

قال السيد ـــــ: رغبت بقتلكِ. صفعتك مرات عدة بسبب ذلك. لم أفهم مطلقاً انسجامك مع شوغ الذي كان يَميتني غيظاً. كنت أتفهم تعاملها معك بقسوة وبذاءة. إلا أنني لاحقاً بت أراكما سوية على الدوام تمشط إحداكن شعر الأخرى، وأحسست بالقلق.

قلت: ما زالت تكنّ لك المشاعر.

قال: أجل. تشعر بأنني أخوها.

سألته: وما المعيب في ذلك. ألا يحبها أخوتها؟

قال: إنهم مهرجون. ما زالوا يمارسون الحماقات نفسها التي كنت أقوم بها.

قلت: حسناً، علينا جميعاً أن نبدأ من مكان ما عندما نرغب بأن نصبح أفضل، وذواتنا تستحق عوننا.

أنا آسف جداً يا سيلي لأنها هجرتك. أتذكر شعوري حين هجرتني.

طوقني الشيطان العجوز بيديه وبقينا هكذا على الشرفة يلفنا الصمت. بعدئذٍ أملت عنقي المتشنج على كتفه. وفكّرت، ها نحن هنا، أحمقان عجوزان هجرهما الحب، يواسيان بعضهما البعض تحت النجوم؟

أراد لاحقاً أن يعرف عن أولادي.

أخبرته بأنكِ قلتِ لي إن كلاهما يرتديان أثواباً طويلة. كان ذلك في اليوم الذي جاء فيه لزيارتي بينما كنت أخيط وسألني عن الشيء المميز في سراويلي.

قلت: بمقدور الجميع ارتداءها.

قال: من المفروض ألا يرتدي الرجال والنساء الثياب نفسها. يتعين على الرجال فقط ارتداء السراويل.

لهذا قلت: عليك أن تقول ذلك لرجال أفريقيا.

سألني: ما الذي تقولينه؟ كانت المرة الأولى التي يفكر فيها بما يفعله الأفارقة.

قلت: يرتدي الناس في أفريقيا الملابس التي يجدونها مريحة في القيظ. طبعاً، للمبشرين رأيهم الخاص عن الفساتين. وبالنسبة لنيتي فإن تُرِك الأفارقة على سجيتهم فإنهم سيرتدون القليل، أو الكثير. لكن الرجال والنساء على حدٍّ سواء يقدّرون الملابس الجميلة.

قال: قلت «ثوب» من قبل.

ثوب، وفستان. ليسا سراويل، على أي حال.

قال: حسناً، سأتبين ذلك.

قلت: والرجال يمارسون الخياطة في أفريقيا أيضاً.

سألني: حقاً؟

قلت: أجل. ليسوا متخلفين مثل الرجال هنا.

قال: في بدايتي، جربت الخياطة مع أمي لأن هذا ما كانت تفعله دائماً. لكن الجميع سخروا مني. وأنا للأمانة، أحببت الخياطة بالفعل.

قلت: لا أحد سيسخر منك الآن. تفضل، ساعدني في غرز هذه الجيوب.

قال: ولكني لا أعرف كيف أفعل ذلك.

قلت: سأعلّمك. وهذا ما فعلته.

بتنا الآن نجلس معاً نخيط ونتحدث وندخن الغليون.

خمّني ماذا حصل، قلت له: الناس في أفريقيا حيث تعيش نيتي والأولاد يعتقدون أن البيض هم أبناء السود.

قال: لا، كما لو أن هذا الأمر شيّق بينما ذهنه مشغول بالقطبة الثانية.

لقد أطلقوا اسماً آخر على آدم حال وصوله. قالوا إن المبشرين البيض الذين جاؤوا قبل نيتي والولدين أخبروهم كل شيء عن آدم من وجهة نظر البيض وما يعرفونه. إلا أن آدم آخر لديهم من وجهة نظرهم الخاصة. وذلك قبل زمن أبعد بكثير.

سأل السيد ـــــ: ومن هو آدم؟

ليس الإنسان الأول، بل أول إنسان أبيض. يقولون إنه ما من شخص مجنون لدرجة يتاح له الجزم بمن كان الرجل الأول. ولكن الجميع تبين الرجل الأبيض الأول لأنه كان أبيض.

عبس السيد ـــــ، ونظر إلى الخيط بلونه المغاير، ووضعه في سم الإبرة، بلل إصبعه بلعابه، وعقد الخيط.

يقولون إن كل إنسان قبل آدم كان أسود. ثم في أحد الأيام أتت امرأة

بطفل لا لون له، فقاموا بقتلها على الفور. ظنوا بداية أن السبب عائد لشيء أكلته. إلا أن امرأة أخرى أنجبت ابناً أبيض وبدأت النساء بإنجاب التوائم. وهكذا بدؤوا بقتل الأطفال والتوائم البيض. وبالتالي لم يكن آدم أول رجل أبيض. كان فقط أول مولود أبيض لم يقوموا بقتله.

أصغى السيد ـــــ إلي متفكّراً. للحقيقة، لم يكن سيئ المظهر. بدا الآن أن وجهه محتشد بالمشاعر المتوارية.

قلت: تعرف أن لدى السود إلى يومنا هذا ما يسمونه «الأمهق». ولكنك لا تسمع أبداً بأناس بيض لديهم شيء من السواد ما لم يخالطهم رجل أسود. لم يكن هناك بيض في أفريقيا عندما حدث كل هذا.

وهكذا سمع سكان أولينكا بآدم وحواء من المبشرين البيض وعن غواية الأفعى لحواء وكيف طردهما الله من جنة عدن. كانوا متشوقين بالفعل لسماع هذا، لأنهم بعد طرد أطفال أولينكا البيض من القرية لم يفكروا بالأمر منذ ذلك الحين. تقول نيتي عن الأفارقة. إنهم يتبعون مقولة «بعيد عن العين، بعيد عن القلب»، وإنهم ينفرون مما هو مختلف عنهم أو يسلك سلوكاً مغايراً. يريدون من الجميع أن يكونوا مماثلين لهم. ولهذا لم يصمد أي من البيض طويلاً عندهم. تقول إن الأفارقة على ما يبدو تخلصوا من سكان الأولينكا البيض بسبب مظهرهم. وأبعدوا من تبقى منا، نحن الذي أصبحنا عبيداً، بسبب سلوكنا. بدا أننا لن نجانب الصواب مهما حاولنا. حسناً، تعرف كيف هم الزنوج. لا أحد يستطيع أن يقول لهم أي شيء حتى يومنا هذا. لا يمكن حكمهم. كل زنجي يحتكم على مملكة في رأسه.

قلت للسيد ـــــ: ثمة شيء آخر. عندما وصل المبشرون إلى الجزء المتعلق بعري آدم وأوليفيا، انفجر سكان أولينكا بالضحك. لا سيما عندما حاول المبشرون إقناعهم بارتداء الثياب وفقاً لذلك. حاولوا أن يشرحوا للمبشرين أنهم هم من طردوا آدم وحواء خارج القرية لأنهما كانا عاريين. كلمة العري لديهم مرادفة لأبيض. وطالما أن لوناً يكسوهم

فهم ليسوا عراة. قالوا إن كلّ من ينظر إلى شخص أبيض سيعرف بأنه عارٍ، إلا أن السود لا يمكن أن يكونوا عراة لكونهم غير قادرين أن يكونوا بيضاً.

قال السيد ـــــ: نعم، لكنهم كانوا على خطأ.

قلت: صحيح. آدم وحواء أثبتا ذلك. وما فعله أهل أولينكا كان التخلي عن أولادهم، لأنهم كانوا مختلفين عنهم بعض الشيء.

قال السيد ـــــ: أراهن أنهم يفعلون الشيء ذاته اليوم.

قلت: آه، حسبما قالت نيتي، الأفارقة هناك في حالة فوضى. وتعرف ما يقوله الإنجيل، التفاحة لا تسقط بعيداً عن الشجرة. وثمة شيء آخر، خمّن من هي الأفعى عندهم؟

قال السيد ـــــ: نحن، بلا شك.

قلت: صحيح. اتبع البيض خطى أسلافهم. كانوا غاضبين جداً بعد طردهم ووسمهم بالعراة وعقدوا العزم على تحطيمنا أينما وجدونا، تماماً كما يفعلون بالأفعى.

سألني السيد ـــــ، هل تؤمنين بذلك؟

هذا ما يقوله سكان أولينكا. يدّعون معرفتهم بالتاريخ قبل ولادة الأطفال البيض، كما أنهم يعرفون المستقبل بعد رحيل غالبيتهم. يقولون إنهم يعرفون هؤلاء الأبناء تحديداً وإنهم سيقتّلون بعضهم البعض، لا زالوا حانقين جداً لأنهم منبوذون. كما سيبيدون أعداداً كبيرة من أقوام أخرى أيضاً ممن لديهم بشرة ملوّنة. في الحقيقة، سيبيدون قسماً كبيراً من سكان الأرض ومن الملونين وأن الجميع سيكرههم تماماً كما يكرهوننا اليوم. سيصبحون الأفعى الجديدة. وحيثما يوجد شخص أبيض فسيتم سحقه على يد شخص من غير البيض، تماماً كما يفعلون بنا اليوم. ويؤمن بعض سكان الأولينكا أن الحياة ستستمر وتستمر على هذه الشاكلة للأبد. وكل مليون عام أو نيف سيحدث شيء ما للأرض وسيتغير

مظهر الناس. قد ينمو لبعضهم رأسين في يوم من الأيام، وبعدها سيقوم الناس من ذوي الرأس الواحد بطردهم جميعاً إلى مكان آخر. بعضهم لا يفكر بهذه الطريقة. يعتقدون، أنه بعد زوال معظم البيض من على وجه الأرض، الطريقة الوحيدة لمنع أي أحد من أن يكون الأفعى تكمن في تقبل الجميع للجميع على أنهم أبناء الله، أو أبناء الأم الواحدة، بصرف النظر عن مظهرهم أو سلوكهم. واحزر ما هي الأفعى بالنسبة إليهم؟

ماذا؟

أهل الأولينكا هؤلاء يعبدونها. يقولون من يدري، ربما الأفعى من أقربائنا، ولكن بالتأكيد إنها أمكر وأنظف وأملس شيء رأته أعينهم.

قال السيد ـــــ: لا بدّ وأن هؤلاء الناس لديهم الكثير من الوقت للجلوس والتفكير.

قلت: تقول نيتي إنهم مفكرون جيدون. ولكنهم يستغرقون كثيراً في التفكير حول آلاف السنين التي قضوا خلالها أوقاتاً عصيبة للوصول إلى فكرة واحدة.

ما الاسم الذي أطلقوه على آدم إذاً؟

قلت: شيء من قبيل أوماتانغو. يعني الرجل غير العاري بالقرب من الأول الذي خلقه الله وعرف من كان. خلق الكثير من الرجال قبل أن يصبح الإنسان الأول رجلاً، لكن ما من أحد منهم أيقن بذلك. تعرف كم يستغرق بعض الرجال من الوقت ليدركوا شيئاً ما.

قال: لقد استغرقت وقتاً طويلاً قبل إدراكي لصحبتك الجميلة. وضحك.

هو ليس شوغ، ولكنه بدأ يتحول إلى شخص أستطيع التحدث إليه.

وبصرف النظر عما قالته البرقية عن غرقك، لا تزال تردني رسائل منك.

أختك،

سيلي

عزيزتي سيلي،

عاد آدم وتاشي بعد شهرين ونصف! لحق آدم بتاشي وأمها وبعض الأشخاص الآخرين من مجمعنا السكني بينما كانوا على مقربة من القرية التي عاشت فيها المبشرة البيضاء، لكن تاشي لم تقتنع بالعودة، ولا أمها أيضاً، وهكذا رافقهما آدم إلى معسكر المتمردين.

قال: إنه مكان خارق!

كما تعرفين يا سيلي، في أفريقيا ثمة تجويف هائل في الأرض اسمه الوادي المتصدع الكبير، ولكنه على الطرف الآخر من القارة بعيداً عن المكان الذي نحن فيه. ولكن وفقاً لآدم، يوجد صدع «صغير» قريب منا، طوله آلاف الأفدنة وعمقه يفوق عمق الصدع العظيم، الذي يغطي ملايين الفدادين. إنه مكان راسخ في عمق الأرض ولا تمكن رؤيته، كما يعتقد آدم، إلا من الجو، وليبدو مجرد أخدود هائل الحجم، حيث يتواجد آلاف البشر من عشرات القبائل الإفريقية، ويقسم آدم أن رجلاً ملوناً من ألاباما متواجد هناك! ثمة مزارع، ومدرسة، ومستوصف، ومعبد. وهناك مقاتلون من الرجال والنساء الذين ينفذون بالفعل مهاماً لتخريب مزارع البيض.

ولكن كل هذا يبدو أعجوبة عند سرده بأكثر مما هو عليه في الواقع، وإن كان لي أن أطلق حكماً على آدم وتاشي، فإن عقليهما متناغمان أيما تناغم.

تمنيت لو رأيتهما وهما يدخلان المجمع السكني مترنحين، ومتسخين كالخنازير، وأشعارهما مشعثة، وقد هدهما التعب والنعس. رائحتهما كريهة. وما زالا يتجادلان.

قالت تاشي: لا تعتقد بأن عودتي معك، هي إيذان بقبولي الزواج منك.

قال آدم بحماس وهو يتثاءب: آه بلى إنك تقبلين. لقد وعدتِ والدتك. *وأنا وعدتها بدوري.*

قالت تاشي: لا أحد سيحبني في أميركا.

قال آدم: أنا سأحبك.

ركضت أوليفيا وطوقت تاشي بذراعيها. وهرعت لتجهز الطعام والحمّام.

عقدنا ليلة البارحة، وبعد نوم تاشي وآدم أغلب النهار، اجتماعاً عائلياً. وأخبرناهما بأننا سنرحل إلى ديارنا في غضون أسابيع، نظراً لرحيل أناس كثر للانضمام إلى المتمردين، وبدأ مزارعو المطاط بجلب عمال مسلمين من الشمال، ولأن الوقت قد حان للرحيل.

أعلن آدم عن رغبته بالزواج من تاشي.

وأعلنت تاشي رفضها.

وبعدها، وبصراحتها المعهودة والمباشرة، أبدت أسبابها. وكان أهمها هي الآثار التي خلفتها التضحية على وجنتيها، وأن الأميركيين سينظرون إليها نظرة دونية ويعتبرونها بربرية ويتحاشونها، وكذا ستكون حالة أبنائها. وأنها قد تصفحت المجلات التي تصلنا من الوطن وبدا واضحاً لها بأن السود لا يروقهم السود أصحاب البشرة الداكنة كبشرتها، وتحديداً النساء منهم. قالت: إنهن يبيضن وجوههن. ويشقّرن شعورهن. ويسعين للظهور عاريات.

تابعت: كما أنني أخشى أن يهيم آدم بحب واحدة من تلك النسوة العاريات ويهجرني. وحينها سأكون بلا وطن، ولا أهل، ولا أم، ولا زوج، ولا أخ.

قالت أوليفيا: سيكون لديك أخت.

ثم تحدث آدم. طلب من تاشي أن تغفر ردة فعله البدائية الغبية إزاء التضحية. وأن تغفر اشمئزازه من طقوس البلوغ. أكد لتاشي بأنها هي وحدها من أحب، وأنه سيكون لديها في أميركا وطن، وأهل، وأبوان، وأخت، زوج، وأخ وعاشق، وأي مكروه سيلحق بها في أميركا سيكون خياره ونصيبه.

آه يا سيلي.

وهكذا في اليوم التالي، عاد آدم بندبات مطابقة تماماً لتلك التي على وجنتي تاشي.

وهما سعيدان جداً. سعيدان جداً يا سيلي. تاشي وآدم (أوماتانغو).

زوّجهما صموئيل طبعاً، وحضر من تبقى في المجمع السكني ليتمنوا لهما الرفاه والبنين ووفرة «الرووفليف» للأبد. وقفت أوليفيا إلى جانب العروس بينما وقف رجل هرم فاته الانضمام إلى المتمردين مع آدم. وعلى الفور بعد انتهاء مراسم الزفاف غادرنا المجمّع، استقلينا شاحنة أخذتنا إلى قارب ينتظرنا عند الخليج.

وفي غضون أسابيع قليلة، سنكون في الديار.

أختك المحبة،

نيتي

عزيزتي نيتي،

بات السيد ـــــ يخابر كثيراً شوغ مؤخراً. قال إنه حالما أخبرها بأن أختي وعائلتها مفقودون، قامت هي وجيرمين بالاتصال بشكل مباشر بوزارة الخارجية محاولين معرفة ما الذي جرى. قال إنها تشعر بإحساس قاتل لمجرد التفكير بأنني أعاني هنا بسبب عدم معرفة ما حصل. ولكن لم يحدث شيء في وزارة الخارجية. ولا وزارة الدفاع. إنها حرب كبرى. الكثير من الأحداث تجري. فقدان سفينة واحدة حدث لا قيمة له. كما أعتقد. إضافة إلى ذلك، الملونون آخر من يهتم بهم هؤلاء الناس.

حسناً، إنهم فقط لا يعرفون، ولن يعرفوا. ماذا إذاً؟ أعرف أنك في طريقك إلى الديار وقد لا تصلين إلى هنا قبل أن أبلغ التسعين، لكنني أترقب رؤية وجهك في أحد هذه الأيام.

في هذه الأثناء، عينتُ صوفيا لتتولى مهام البيع في متجرنا. أبقيت على الرجل الأبيض الذي عينه ألفونسو لإدارته، ولكني وضعت صوفيا هناك لتعتني بالملونين إذ لم يكن هناك من يخدمهم أو يبالي بهم. صوفيا جيدة بالفعل في المبيعات أيضاً لأنها تتصرف وكأنها لا تكترث إن اشتريتِ من المتجر أم لم تشتري. لا تلقي بالاً لأي شيء وكأن لا شيء سيؤثر عليها. وبعدها إن قررتِ الشراء من المتجر فإنها قد تبادلكِ بعض الكلمات المبهجة. إضافة إلى ذلك، فإنها تبث الذعر في قلب ذلك الرجل الأبيض الذي ينادي الملونات بالخالة أو شيء من هذا القبيل. وفي المرة الأولى التي حاول فيها أن ينادي صوفيا بالخالة سألته أي رجل ملون تزوجته خالتك.

سألتُ هاربو إن كان يعارض عمل صوفيا.

قال: ولماذا أعارض. يبدو أن الأمر يسعدها. ويمكنني العناية بكافة الأعمال المنزلية. على كلٍّ صوفيا لا تساعدني كثيراً عندما تحتاج هنريتا إلى شيء خاص لتأكله أو عندما تمرض.

قالت صوفيا: أجل. ستعتني الآنسة إليانور جاين بهنريتا وقد وعدت أن تطهو من يوم لآخر شيئاً ما لتأكله. تعرفين البيض يملكون آلات في مطابخهم. إنها تخفق مواد لا تخطر على بال أحد مع اليام. الأسبوع الفائت حضّرت آيس كريم من اليام.

سألتها: كيف حدث هذا؟ لقد ظننت أنكما افترقتما.

قالت صوفيا: آه، أخيراً تبادر إلى ذهنها أن تسأل أمها عن سبب مجيئي للعمل عندهم.

قال هاربو: لا أتوقع أن تستمر علاقتهما. تعرفين من يكونون.

سألت: هل يعرف أهلها؟

قالت صوفيا: يعرفون. وهم على حماقتهم التي تعرفينها. كل من يسمع بأن سيدة بيضاء تعمل لدى زنوج، يجنّ جنونه. تقول لهم، هل من أحد سمع عن شخص مثل صوفيا عمل من قبل لدى حثالة البيض.

سألت: هل تجلب رينولدز ستانلي معها؟

تقول هنريتا إنها لا تمانع مجيئه.

قال هاربو: أنا مقتنع بأنها ستقلع عن مساعدتها، إن كان رجال عائلتها يعارضون ذلك.

قالت صوفيا: فلتقلع عن ذلك. إنها لا تعمل من أجل خلاصي أنا. فهي إن لم تتعلم مواجهة أحكام الآخرين من أجلها هي، فإنها لن تحظى بحياة.

قال هاربو: حسناً، أنا أساندك، وأحب كل أحكامك. نهض وقبّلها حيث قُطِّب أنفها.

هزت صوفيا رأسها. قالت: كلٌّ يتعلم شيئاً ما في هذه الحياة. وضحكا.

وبمناسبة الحديث عن التعلم، قال السيد ـــــ في أحد الأيام بينما كنا نخيط على الشرفة: لقد بدأت التعلم في الأيام التي اعتدت فيها الجلوس هنا على شرفتي، أحدق بالسياج.

كنت مجرد بائس. ولم أستوعب لماذا نعيش أصلاً إن كان كل ما نفعله في الغالب هو التسبب بتعاسة الآخرين. كان كل ما طلبته من الحياة هو شوغ إفري. وذات يوم، كنت أنا كل ما طلبته هي من الحياة. حسناً، لم نستطع أن نتزوج. لقد تزوجتُ آني جوليا. ثم أنتِ. وأنجبت هؤلاء الأولاد العفنين. هي تزوجت غرادي ومن يعلم من أنجبت. ولكن على الرغم من ذلك، يبدو أنها حظيت بما لم أحظ به. كثر هم من أحبوا شوغ، ولكن لا أحد سواها أحبني.

قلت: من الصعب على المرء ألا يحب شوغ. إنها تعرف كيف تبادل الآخرين الحب.

حاولت فعل شيء ما بأولادي بعد أن هجرتني. ولكن بحلول ذلك الوقت كان الأوان قد فات. مكث بوب معي لأسبوعين، سرق كل نقودي، واستلقى على الشرفة سكراناً. بناتي بعيدات جداً مأخوذات بالرجال والدين بالكاد يستطعن التفوه بكلمة واحدة. إن تكلمن فإنهن يتوسلن. ما يحطم فؤادي الندمان.

قلت: إن كنت تعرف أن قلبك نادم، فهذا يعني أن الخراب لم يحتله بالكامل.

قال: على أي حال، تعرفين كيف تسير الأمور. تسألين نفسك سؤالاً واحداً، فيقودك إلى خمسة عشر سؤالاً. بدأت أتساءل لماذا نحتاج إلى الحب؟ لماذا نعاني؟ لماذا نحن من السود؟ لماذا نحن رجال ونساء؟ من أين يأتي الأطفال حقاً؟ ولم أستغرق وقتاً طويلاً حتى أدركت أنني بالكاد عرفت أي شيء. وأنك لو سألت نفسك لماذا أنت أسود أو رجل أو سيدة أو شجرة فهذا لا يعني أي شيء إن لم تسأل لماذا أنت هنا. وكفى.

عن نفسي، فأنا أعتقد أننا هنا لنتساءل، لنستنطق. حين نتساءل حول

الأمور الكبرى ونستنطقها، فإننا نصبح عليمين بالأمور الصغرى، وغالباً بالصدفة. لن تعرف المزيد عن الأمور الكبرى ما لم تتخطَّ ما بدأت به. وكلما تساءلت، كلما ازددت حباً.

قلت: وأراهن على أن الناس حينها سيبادلونك الحب.

قال: صحيح. يبدو أن هاربو يحبني يا للمفاجأة. صوفيا والأولاد أيضاً. حتى تلك الشيطانة هنريتا تحبني بعض الشيء، ولكن هذا لأنها تعرف بأنها بالنسبة لي مثل لغز الرجل على القمر.

السيد ـــــ منهمك في صنع قمصان للناس كي يرتدونها مع سراويلي.

قال: يجب أن يكون فيها جيوب. وأكمام طويلة. وبالتالي لايفترض ارتداؤها مع ربطة عنق. من يرتدون ربطات عنق يبدون مثل المشنوقين من دون إدانة.

بعدئذٍ، وتحديداً بعد أن شعرت أنني قادرة على العيش راضية من دون شوغ، وتماماً بعد توقف السيد ـــــ عن طلب الزواج مني مجدداً، وهذه المرة كان طلباً روحياً عدا عن كونه جسدياً، وبعد أن رفضت، وقلت إنني ما زلت أكره الضفادع، ولنبق أصدقاء، عندها فقط كتبت شوغ إلي تقول إنها عائدة.

الآن. هل هذه هي الحياة أم لا؟

أنا *هادئة للغاية*.

إن جاءت، سأكون سعيدة. إن لم تأتِ، سأكون راضية.

وعندها أدركت أن هذا هو الدرس الذي كان من المفترض أن أتعلمه.

قالت وهي تخرج من السيارة، وترتدي ملابس تبدو فيها مثل نجمة سينمائية: آه يا سيلي، لقد اشتقت إليك أكثر مما اشتقت لأمي.

تعانقنا.

قلت: تفضلي.

البيت جميل.

وحين وصلت غرفتها قالت: تعرفين كم أحب اللون الزهري.

قلت: طلبت بعض الفيلة والسلاحف أيضاً. وهي في الطريق.

قالت: أين غرفتك؟

قلت: في آخر الرواق.

قالت: دعينا نذهب لرؤيتها.

قلت وأنا أقف عند الباب: ها هي غرفتي. كل شيء مطلي باللون الأرجواني والأحمر باستثناء الأرضية فهي بالأصفر الفاقع. اتجهت مباشرة إلى منحوتة الضفدع الأرجواني على رف المدفأة.

سألتني: ما هذا؟

قلت: شيء بسيط نحته ألبرت من أجلي.

نظرت إلي متهكمة لدقيقة، وبادلتها النظر. ثم ضحكنا.

سألتها: أين جيرمين؟

قالت: في الجامعة. جامعة ويلبرفورس. لم يكن من الممكن السماح لكل تلك الموهبة بأن تذهب سدى. لقد انفصلنا. إنه بالنسبة إلي مثل فرد من عائلتي الآن. مثل ابن لي. أو ربما حفيد.

سألتني: ما الحاصل بينك وبين ألبرت؟

قلت: ليس الكثير.

قالت: أعرف ألبرت وأراهن على أنه قام بشيء معك، خاصة وأنك تبدين بكل هذا الجمال.

قلت: نخيط سوية. تدور بيننا نقاشات فارغة.

سألتني: كيف فارغة؟

ما الذي تعرفينه أنت.قلت لنفسي. شوغ تشعر بالغيرة. بمقدوري اختلاق قصة تستفزها. ولكني أحجمت.

قلت: نتحدث عنك. وكم نحبك.

ابتسمت، ووضعت رأسها على صدري. وزفرت نفساً عميقاً.

أختك،

سيلي

إلهي العزيز. عزيزاتي النجوم، عزيزاتي الأشجار، عزيزتي السماء، أعزائي الناس. عزيزتي الأشياء كلها. عزيزي الله.

شكراً لكم لإحضاركم أختي نيتي وولدينا إلى الديار. سأل ألبرت وهو يرنو بنظره إلى الطريق: من القادم هناك يا ترى؟ كان بوسعنا رؤية الغبار يتطاير.

كنت أنا وهو وشوغ نجلس على الشرفة بعد الغداء. نتحدث. لا لم نكن نتحدث. كنا جالسين على الكراسي الهزازة نكش الذباب بمراوحنا. ذكرت شوغ بأنها ما عادت راغبة بالغناء أمام جمهور، قد تغني لمرة أو مرتين في حانة هاربو. تفكر ربما بالتقاعد. يقول ألبرت إنه يريدها أن تجرب قميصه الجديد. تحدثتُ عن هنريتا، وصوفيا، والحديقة، والمتجر. كيف تسير الأمور بشكل عام. ونظراً لعادتي المتأصلة في الخياطة قمت بغرز حفنة من القصاصات، وحاولت رؤية ما الذي بإمكاني صنعه. الطقس لطيف في أواخر شهر حزيران، والجلوس على الشرفة مع ألبرت وشوغ متعة حقيقية. في الأسبوع المقبل سيكون الرابع من تموز ونخطط لإقامة اجتماع عائلي كبير في الهواء الطلق هنا في بيتي. وكلنا أمل أن يبقى الطقس لطيفاً.

قلت: قد يكون ساعي البريد. ما عدا أنه يقود بسرعة على غير عادته.

قالت شوغ: قد تكون صوفيا. تعرفين أنها تقود السيارة كالمجنونة.

قال ألبرت: قد يكون هاربو. لكنه ليس هو.

وفي هذا الوقت كانت السيارة قد توقفت تحت الأشجار في الفناء وخرج منها أشخاص يرتدون ملابس تشبه ما كان يرتديه الناس في الماضي.

رجل ضخم طويل أبيض الشعر مع ياقة بيضاء معكوسة، سيدة ضئيلة مكتنزة بشعر أبيض مضفور أعلى رأسها. شاب طويل أكثر شباباً وسيدتان قويتان شابتان. قال الرجل الأشيب شيئاً ما لسائق السيارة فانصرف. وقفوا جميعاً هناك على حافة الطريق محاطين بالصناديق والحقائب وجميع أنواع الأمتعة.

حينها أصبح قلبي في فمي وعجزت عن الحركة.

قال ألبرت وهو يهب واقفاً: إنها نيتي.

جميع من كانوا أمامنا كانوا شاخصين نحونا.

أجالوا أنظارهم على المنزل. فالفناء. فسيارتا شوغ وألبرت. ثم الحقول. وليتقدموا بعدئذٍ نحونا بخطوات بطيئة.

كنت خائفة جداً ولا أعرف ما الذي يتعين عليّ فعله. شعرت وكأن عقلي قد تعطّل تماماً. حاولت أن أتكلم، فلم تخرج كلمة واحدة. حاولت النهوض، كدت أقع. اقتربت مني شوغ ومدت لي يدها. ضغط ألبرت على ذراعي.

كدت أموت حين وطأت قدم نيتي الشرفة. وقفت مترنحة بين ألبرت وشوغ. وترنحت نيتي بين صموئيل وشخص لا بدّ أنه آدم. ثم شرعنا بالبكاء والأنين. تهادت كلتانا نحو الأخرى كما اعتدنا عندما كنا طفلتين. ثم خارت قوانا حين تلامسنا، وهوينا على الأرض. وما همّنا؟ تمددنا متعانقتين على أرضية الشرفة.

بعد برهة قالت: *سيلي*.

وقلت: *نيتي*.

مر وقت وجيز. نظرنا حولنا فإذا برُكب كثيرة من الناس حولنا. لم تترك نيتي أبداً خصري. قالت مشيرة نحو الأعلى: هذا زوجي صموئيل، هؤلاء ولدانا أوليفيا وآدم، وهذه زوجته تاشي.

أشرت للأعلى نحو أهلي. قلت: هذه شوغ وهذا ألبرت.

تبادل الجميع التحيات. ومضى كل من شوغ وألبرت بمعانقتهم.

نهضنا أخيراً أنا ونيتي وعانقت ولديّ. وعانقت تاشي. ثم صموئيل.

قالت هنريتا مخرجة لسانها من فمها المليء بالتذمر: لماذا يقام الاجتماع العائلي دائماً في الرابع من تموز. الطقس حار جداً.

قال هاربو: يحتفل البيض باستقلالهم عن إنجلترا في هذا التاريخ، ولهذا فإن معظم السود لا يتعين عليهم العمل في هذا اليوم. وبإمكاننا قضاء اليوم نحتفي ببعضنا البعض.

قالت ماري أغنيس وهي ترتشف بعض عصير الليمون: آه يا هاربو. لم أكن أعرف أنك تعرف التاريخ. كانت هي وصوفيا تحضّران معاً سلطة البطاطا. عادت ماري أغنيس لأخذ سوزي كيو، بعد أن هجرت غرادي، وعادت إلى ممفيس لتعيش مع أختها وأمها. إنهما تعتنيان بسوزي كيو عندما تكون في العمل. قالت إن لديها الكثير من الأغاني الجديدة. وليست متحمسة كثيراً لغنائها.

قالت: بعد فترة وجيزة من علاقتي مع غرادي، فقدت قدرتي على التفكير. عدا عن كونه مسلوب الإرادة في حياته، وأنا طبعاً كنت كذلك. كنا ندخن الكثير من الماريجوانا.

أبدى الجميع إعجاباً شديداً بتاشي. ونظر الناس إلى ندباتها وندبات آدم على أنها شأنهما الخاص. قالوا إن الشك لم يساورهم يوماً بجمال السيدات الأفريقيات. إنهما زوجان رائعان. يتحدثان بطريقة مضحكة بعض الشيء، لكننا اعتدناها.

سألناها: ما الذي يحب أهلك تناوله هناك في أفريقيا.

قالت وقد اصطبغ وجهها حمرة: *الشواء*.

ضحك الجميع وقدمنا لها قطعة إضافية.

تنتابني مشاعر خاصة جداً وأنا محاطة بالولدين. فهما قد كبرا. وأرى أنهما ينظران إليّ وإلى نيتي وشوغ وألبرت وصموئيل وهاربو وصوفيا

وجاك وأوديسا على أننا جميعاً عجائز لا ندرك الحاصل حولنا. إلا أنني لا أعتقد بأننا كبار على الإطلاق. نحن في قمة السعادة. وللحقيقة، فإنها الأوقات الأكثر شباباً في أعمارنا كلها.

آمين

أشكر كل من حضر في هذا الكتاب على مجيئه.
أ.و، مؤلفة ووسيطة روحية

بعد مرور ثلاث سنوات على نشر «اللون أرجواني» التي حازت جائزة بوليتزر وجائزة الكتاب الوطني، تحوّلت الرواية إلى فيلم سينمائي من إخراج ستيفن سبيلبرغ وحصد الفيلم شهرة دولية واسعة. وبعد مرور خمس سنوات على نشرها بيع ما يزيد عن ستة ملايين نسخة منها حول العالم. بعدها بعشر سنوات، تضاعف هذا الرقم، وأصبحت من بين أكثر خمسة كتب أعيدت قراءتها في أميركا. في العام ٢٠٠٥ أمست «اللون أرجواني» مسرحية موسيقية ناجحة على نحو استثنائي على مسرح برودواي، وكان المسرح يحتشد بالجمهور كل ليلة على مدار ما يزيد عن سنة.

آليس ووكر (١٩٤٤)، من أبرز الأصوات الأدبية في الولايات المتحدة، عدا عن كونها ناشطة حقوقية ونسوية ومناهضة للعنصرية ومناصرة للقضية الفلسطينية، شاركت في حركة الحقوق المدنية في ستينيات القرن الماضي، وغير ذلك من حركات، وعُرفت بمناهضتها الحرب على العراق. بدأت مسيرتها الأدبية شاعرة وصدرت عام ١٩٦٨ مجموعتها الشعرية الأولى «ذات مرة»، بينما صدرت روايتها الأولى «حياة غرانج كوبلاند الثالثة» عام ١٩٧٠. لها أكثر من ثلاث عشرة رواية ومجموعة قصصية، وتسع مجموعات شعرية، وغيرها من الكتب الفكرية والسياسية، وبرواية «اللون أرجواني» الساحرة تقدّم دار المدى أدب ووكر للمرة الأولى باللغة العربية.

ISBN 978-2843091704
9 782843 091704